
مطبوعات
مكتبة مصر
نجيب محفوظ
السكرية

السكرية





نجيب محفوظ

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة

٣٧ (١) شارع [illegible] ت [illegible]

DL

ــ ١

تقاربت الرءوس حول المجمرة وانبسطت فوق وهجها الأيدى ، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان ، ويدا عائشة المتحجرتان ، ويدا أم حنفى اللتان بدتا كغطاء السلحفاة ، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدى نعيمة . وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجا فى أركان الصالة ، تلك الصالة التى بقيت على حالها القديم بحصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان ، الا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازى قد اختفى وتدلى مكانه من السقف مصباح كهربائى ، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة الى الدور الأول ، بل انتقل الدور الأعلى جميعه الى هذا الدور تيسيرا للأب الذى لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالى . ثمة تغير أعمق أدرك أهل البيت أنفسهم ، فقد جف عود أمينة واشتعل رأسها شيبا، ومع أنها لم تكد تبلغ الستين الا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر ، ولكن تغير أمينة كان لا شىء بالقياس الى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال ، كان مما يدعو الى السخرية أو الرثاء ان شعرها لم يزل مذهبا وعينيها زرقاوين ، ولكن هذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة ، وهذه البشرة الشاحبة بأى مرض تنضح ؟ ، وهذا الوجه الذى نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة فى الرابعة والثلاثين ؟ . وأما أم حنفى فبدأ أن الأعوام تتراكم عليها ولاتنال من جوهرها ، لم تكد تمس لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها ، غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت فى حزنهم الصامت . نعيمة وحدها بدت فى هذه المجموعة كالوردة المغروسة فى حوش مقبرة ، استوت شابة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها ، مجللة الرأس بهالة ذهبية ، مزينة الوجه بعينين زرقاوين ، كعائشة فى شبابها أو أفتن ملاحة ، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال ، تعكس عيناها نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم ، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنما لا تود أن تفارقها لحظة . وقالت أم حنفى وهى تفرك يديها فوق المجمرة :

ــ سينزل البناءون عن العمارة فى هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل . . .

فقالت نعيمة فى نغمة ساخرة :

ـ عمارة عم بيومى الشرباتلى ..

ارتفعت عينا عائشة عن المجمرة الى وجه أم حنفى لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة ، قد علموا فى حينه بهدم البيت الذى كان يوما بيت السيد محمد رضوان ثم اعادة بنائه عمارة مكونة من أربعة ادوار باسم عم بيومى الشربانلى ، تلك الذكريات القديمة ، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم ؟ ، وأم مريم وبيومى الشرباتلى الذى استولى على البيت بالوراثة والشراء ، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال !.. وعادت أم حنفى تقول :

ـ اجمل ما فيها يا ستى دكان عم بيومى الجديدة ، شربات ودندرمة وحلوى ، كلها مرايا وكهرباء ، والراديو ليل نهار ، يا عينى على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبـان وابو سريع صاحب المقلى وهم ينظرون من دكاكينهم البالية الى دكان زميلهم القديم وعمارته ..

فقالت أمينة وهى تشبك الشال حول منكبيها :

ـ سبحان ربك الوهاب ..

فعادت نعيمة تقول وهى تحيط عنق أمها بذراعها :

ـ سد جدار العمارة سطحنا من هذه الناحية ، واذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نمضى الوقت فوق السطح ؟

لم يكن فى وسع أمينة أن تتجاهل سؤالا توجهه حفيدتها الجميـلة مراعاة لخاطر عائشة قبل كل شىء فقالت :

ـ لا يهمك السكان ، امرحى كيف شئت ..

واسترقت النظر الى عائشة لترى وقع اجابتها اللطيفة ، اذ انها باتت من شدة الخوف عليها وكأنما تخافها ، ولكن عائشة كانت مشغولة فى تلك اللحظة بالتطلع الى مرآة فوق نضد بين حجرة السيد وحجرتها . لم تزايلها عادة التطلع الى المرآة وان لم يعد لها معنى ، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل ، وكلما سألها صوت باطنى « أين عائشة زمان ؟ » اجابت دون اكتراث « وأين محمد وعثمان وخليل ؟ » ، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينقبض قلبها ، وسرعان ما يسرى الانقباض الى أم حنفى التى اندمجت فى الأسرة حتى ورثت عنها همومها . ونهضت نعيمة الى الراديو القـائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وادارت مفتاحه وهى تقول :

ـ ميعاد اذاعة الاسطوانات يا ماما ..

واشعلت عائشة سيجارة واخذت نفسا عميقا ، وجعلت أمينة ترنو الى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المجمرة ، وانبعث من الراديو صوت يغني « يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودى » . وعادت نعيمة الى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها . كانت - كأمها في الزمان الخالي - تهوى الغناء . وهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن . لم ينل من هذا الهوى شعورها الديني الذي غلب على كافة مشاعرها ، فهي تواظب على الصلاة ، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة ، وتحلم كثيرا بعالم الغيب ، وترحب في غبطة لا حد لها بزيارة الحسين اذا دعتها جدتها اليها ، ولكنها في الوقت نفسه لم تقلع عن حب الغناء ، فهي تغني كلما خلت الى نفسها في حجرتها أو في الحمام . وكانت عائشة ترضى عن كل مايصدر عن وحيدتها ، الأمل المضيء في افقها المظلم ، تعجب بتدينها كما تعجب بصوتها ، وحتى عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدا خارقا للحد - فهي تشجعه وتحبه ولاتطيق أن تسمع عنه اية ملاحظة ، بل هي تضيق بالنقد عامة وان هان وحسن القصد فيه . من ذلك انه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين ، فاذا دعتها امها الى المشاركة في عمل - لا لحاجتها الى مساعدتها ولكن لتخلق لها ما تتسلى به عن افكارها - امتعضت وقالت جملتها المشهورة « اف .. دعيني وشأني » . ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمد للعمل يدا ، كأنما كانت تخاف عليها أقل حركة ، ولو امكن أن تصلي نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة ، وكم من مرة حدثتها امها في هذا الشأن قائلة ان نعيمة اصبحت « عروسا » وينبغي لها أن تلم بواجبات « ست البيت » فكانت تقول لها بصوت ينم عن الضجر « الا ترينها كالخيال ؟ .. ان ابنتي لن تتحمل أي جهد فدعيها وشأنها ، لم يعد لي من امل في الدنيا سواها » . ولم تكن أمينة لتعيد القول ، كان قلبها يتقطع حزنا عليها ، وتنظر اليها فتجدها مثالا مجسما لخيبة الأمل ، وترى وجهها التعيس الذي فقد كل معنى للحياة فتذهب نفسها حسرات ، لذلك اشفقت من مضايقتها ، ولذلك اعتادت أن تتحمل ما قد ينم عنها من جفاء في الرد أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح . لم يزل الصوت يغني « ياعشرة الماضي الجميل » . وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغي اليه. هذا الغناء الذي كانت تحبه ، ولا زالت تحبه ، فالحزن واليأس لم يقتلا الاحساس به ، بل لعلهما قوياه في

نفسها بمايردد عادة من معانى الشجن والحسرات ، ولو أن شيئا فى الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل ، بل انها لتتساءل احيانا أكان هذا الماضى حقيقة لا حلما ولا خيالا ؟ ، اذن أين البيت العامر ؟ ، وأين الزوج الكريم ؟ ، وأين عثمان وأين محمد ؟ ، وهل لايفصلها عن ذلك الماضى الا ثمانية أعوام ؟. ولم تكن أمينة ترتاح الى هذه الأغانى الا فى النادر . ان فضيلة الراديو الأولى فى نظرها انه أتاح لها سماع القرآن والأخبار ، أما الأغانى فكانت تجزع عند تلقى معانيها الحزينة وتشفق على ابنتها من سماعها حتى قالت مرة لأم حنفى « أليس هذا هو النواح ؟ » . كانت لا تنى عن التفكير فى عائشة حتى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هى من اعراض الضغط ومتاعبه ، ولم تكن تجد فرجة الا فى زيارة الحسين وغيره من الأولياء ، وشكرا للسيد الذى لم يعد يحجر عليها فتركها تنطلق الى بيوت الله كما تحب . لم تعد — هى أيضا — أمينة العهد الماضى . غيرها كثيرا الحزن والتوعك . وقد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة فى التنسيق والتنظيف والتدبير ، ففيما عدا شئون السيد وكمال لم تكن تعنى بشىء ، عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم حنفى ، قانعة بالاشراف وحده ، وحتى الاشراف كانت تتهاون فيه . وكانت ثقتها فى أم حنفى لا حد لها ، فليست هى بالغريبة عن الدار وأهلها ، ثم انها شريكة العمر ورفيقة السراء والضراء ، وقد اندمجت فى الأسرة حتى صارت قطعة منها ، وتمثلت بكل قلبها مسراتها وأحزانها . وساد الصمت حينا كأنما استأثر الفناء بوعيهم ، حتى قالت نعيمة :

— لمحت فى الطريق اليوم صديقتى سلمى ، كانت معى فى الابتدائية ، وستقدم العام المقبل فى امتحان البكالوريا .. فقالت عائشة بامتعاض :

— لو سمح جدك لك بالاستمرار فى الدراسة لتفوقت عليها ، ولكنه لم يسمح !

وفطنت أمينة لما أوحت به جملة « ولكنه لم يسمح » من الاحتجاج فقالت :

— جدها له آراؤه التى لاينزل عنها ، ترى أكنت ترحبين باستمرارها فى التعليم رغم ما فى ذلك من تعب وهى العزيزة الرقيقة التى لا تحتمل التعب ؟ ! ..

فهزت عائشة رأسها دون أن تنبس . أما نعيمة فقالت بحسرة :

ــ وددت لو اتممت تعليمى ، كل البنات يتعلمن اليوم كالصبيان . .

فقالت أم حنفى باحتقار :

ــ يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس ، أما الجميلة مثلك . . .

فهزت أمينة راسها موافقة ثم قالت :

ــ وانت متعلمة يا ست البنات ، حائزة على الابتدائية ، ماذا تريدين اكثر من ذلك ؟ ، ولست فى حاجة الى الوظيفة ، فلندع الله أن يقويك وأن يكسو جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن . .

فقالت عائشة بحدة :

ــ أريد لها العافية لا السمانة ، السمانة من العيوب خاصة فى البنات ، امها كانت زين أيامها ولم تكن سمينة . .

فابتسمت أمينة وقالت برقة :

ــ حقا أمك يا نعمة كانت زين أيامها . .

فقالت عائشة وهى تتنهد :

ــ ثم صارت عبرة الأيام !

فغمغمت أم حنفى :

ــ ربنا يفرحك بنعمة . .

فقالت أمينة وهى تربت ظهر نعيمة بحنان :

ــ آمين يا رب العالمين . .

وعدن الى الصمت ، والى سماع الصوت الجديد الذى كان يغنى « أحب اشوفك كل يوم » ، واذا بباب البيت يفتح ثم يغلق فقالت أم حنفى « سيدى الكبير » وقامت مسرعة الى الخارج لتضىء مصباح السلم . وما لبثن أن سمعن دقات عصاه المعهودة ، ثم تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعا فى أدب . ووقف قليلا ينظر اليهن خلال انفاسه المبهورة ثم قال : « مساء الخير » فرددن فى صوت واحد « يسعد مساك » ، وسبقت أمينة الى حجرته فاضاءتها ، ومضى الرجل على أثرها فى هالة من وقار الشيخوخة البيضاء . وجلس كى يسترد أنفاسه . ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء ! . ظلت اناقته كما كانت فى الماضى ، فالجبة الجوخ والقفطان الشاهى والكوفية الحرير كالعهد القديم ، أما هذا الرأس المرصع بالبياض ، والشارب الفضى ، والجسم النحيل الذى خلا من سكانه ، فكانت جميعا ــ كعودته المبكرة ــ من طوارىء الزمن الجديد . ومن طوارىء هذا الزمن

أيضا سلطانية اللبن الزبادى والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه ، فلا خمر ولا مزة ولا لحوم ولا بيض ، وان بقى بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته فى الحياة لم تفتر ولم تهن . ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد ، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلفع بالعباءة ولبس طاقيته ثم تربع على الكنبة . وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس ، ثم قدمت له أمينة قدحا مملوءا حتى نصفه بالماء فاخذ زجاجة الدواء وسكب فى القدح ست نقط ، ثم تجرعه بوجه مقطب متقزز ، ثم تمتم « الحمد لله رب العالمين » . طالما قال له الطبيب ان الدواء مؤقت أما « الرجيم » فدائم ، وطالما حذره من الاستهتار أو الاهمال ، فالضغط قد استفحل ، والقلب قد تأثر به . واجبرته التجربة على الايمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى ، فما من مرة خرج عن حده حتى تداركه الجزاء ، وأخيرا اذعن لحكمه ، لا يأكل ولا يشرب الا ما يسمح به ، ولا يسهر الى ما بعد التاسعة ، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل فى أن يسترد يوما — بقدرة قادر — صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة ، وأن تكن حياة الماضى قد ولت الى الأبد . وامتدت اذنه الى الغناء المترامى من الراديو فى ارتياح ، وكانت امينة تحدثه من مجلسها فوق الشلتة عن برد اليوم والمطر الذى انهمر فى الضحى فلم يلق اليها بالا وقال فى سرور :

— قيل لى انه ستذاع الليلة بعض الأغانى القديمة . .

فابتسمت المرأة فى ترحيب اذ كانت تحب هذا اللون من الغناء ، ربما متابعة لحب السيد له أكثر من أى شىء آخر . ولبث السرور متألقا فى عينى الرجل لحظات حتى أدركه فتور . لم يعد يستطيع أن ينعم بشعور سار دون تحفظ ، أو دون أن ينقلب عليه فجاة فيستيقظ من حلمه مرتطما بالواقع . الواقع يحدق به من جميع النواحى . أما الماضى فحلم ، فيم السرور وقد ولت الى الأبد أيام الأنس والطرب والعافية ؟ ، وانطوى اللذيذ من المآكل والمشرب والهناء ؟ ، واين مسيره فى الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق ؟ ، وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشتى المسرات ؟ ، اليوم يقضى عليه بأن يعود من سهرته فى التاسعة كى ينام فى العاشرة والأكل والشرب والمشى بحساب دقيق مسجل فى دفتر الطبيب : وهذا البيت الذى غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه ، وعائشة التعيسة شوكة فى جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيهات أن

يطمئن على حالها ، أليس قد ينكشف عنهـا الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم ؟ ، وما يعانيه من قلق على صحته هو المهددة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه ، هذه الأفكار التى تحوم حوله كالذباب فيستعيذ الله من شرها ، أجـل ينبغى أن يسمع الأغانى القـديمة ولو لينام على الأنغام ..

ـ اتركى الراديو مفتوحا حتى لو نمت ..

فهزت رأسها بالايجاب باسمة ، فعاد يقول متنهدا :

ـ ما أشق السلم على !

ـ استرح يا سيدى عند كل بسطة ..

ـ لـكن جو السلم شـديد الرطوبة ، ما ألعن هذا الشتاء .. (ثم متسائلا) .. أراهن على أنك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد ..

فقالت فى حياء وارتباك :

ـ فى سبيل زيارته يهون كل صعب يا سيدى ..

ـ الحق على وحدى !

فقالت فى استرضاء :

ـ انى أطوف بالضريح الطاهر وادعو لك بالصحة والعافية ..

ما أمس حاجته الى صادق الدعاء ، فكل طيب يدبر عنه ، حتى الدش البارد الذى اعتاد أن ينعش به جسده كل صباح حرم عليه لخطورته ـ فيما قيل ـ على حال شرايينه ، واذا صار كل طيب ضارا فليرحمنا الله . ومضى وقت قصير ثم ترامت الى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة « كمال » . ولم تكد تمر دقائق حتى دخل كمال الحجرة فى معطفه الأسود الذى نم عن نحافته وطوله ، يتطلع الى أبيه خلال نظارته الذهبيـة ، وقد أضفى عليه شـاربه المربع الغزير الأسود وقارا ورجولة . انحنى على يد والده مسلما فدعاه الى الجلوس وهو يسأله كالعادة باسما :

ـ أين كنت يا أستاذ ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة التى لم يحظ بها الا بعد عمر طويل ، فأجاب وهو يجلس على الكنبة :

ـ كنت فى القهوة مع بعض الأصحاب .

ترى اى نوع من الأصحاب ؟ ، بيد انه يبدو جادا رزينا وقورا أكثر من ســـنه ، ثم أن أكثر لياليه تقضى فى مكتبته ، شـــتان ما بينه وبين ياسين ، وان كان لكل آفته . وعاد يسأل باسما :

ــ أشهدت اليوم المؤتمر الوفدى ؟

ــ نعم ، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس ، كان يوما مشهودا .

ــ قيل لنا انه كان حدثا عظيما ولكننى لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة الى احد الاصدقاء ، لم تعد الصحة تحتمل التعب ..

فداخل كمال العطف وتمتم :

ــ ربنا يقويك ..

ــ الم تقع حوادث ؟

ــ كلا مر اليوم بسلام ، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة ..

فهز الرجل راسه فى ارتياح ، ثم قال فى لهجة ذات معنى :

ــ نعـــود الى موضـــوعنا القديم ، الا زلت عنـــد رأيك الخاطىء عن الدروس الخصوصية ؟ !

لم يزل يشـــعر بالارتباك والحرج كلما وجد نفســـه مضطرا الى اعلان مخالفته لرأى والده ، فقال برقة :

ــ لقد انتهينا من هذا الموضوع !

ــ فى كل يوم يطلب الى أصدقاء أن تعطى دروسا خصوصية لأبنائهم ، لا ترفض الرزق الحلال ، ان الدروس الخصوصية مصدر رزق واســـع للمدرسين ، والذين يطلبونك من أعيان الحى ..

فلم ينبس كمال بكلمة وان نطق وجهه بالرفض المؤدب ، فعاد الرجل يقول متأسفا :

ــ تأبى هذا كى تضيع وقتك فى قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر ، أيصح هذا من عاقل مثلك ؟

وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة :

ــ ينبغى أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجهة الخطاب الى السيد وهى تبسم فى خيلاء) انه كجده لا يعدل بحب العلم شيئا ..

فقال السيد متأففا :

ــ رجعنا الى جده !. يعنى كان الامام محمد عبده ؟ !

ومع أنها لم تعرف شيئا عن الامام الا أنها قالت بحماس :

ـ لم لا يا سيدى ؟!. كان كل الجيران يقصدونه فى شئون دينهم ودنياهم !

فغلبت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكا :

ـ مثله الآن كل عشرة بقرش !

واحتج وجه المرأة دون لسانها . وابتسم كمال فى عطف وارتباك ، واستأذن فى الانصراف ثم غادر الحجرة . وفى الصالة اعترضت نعيمة سبيله لتريه فستانها الجديد ، وذهبت لتجىء به ، فجلس الى جانب عائشة ينتظر . كان ـ كبقية أهل البيت ـ يجامل عائشة فى شخص نعيمة ، ولكنه الى هذا كان معجبا بالفتاة الحسناء اعجابه بأمها قديما . وجاءت نعيمة بالفستان فبسطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدى الاعجاب ، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحب ، مأخوذا بجمالها البديع الهادىء الذى اكتسى من صفائها ورقتها نورانية ذات بهاء . ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن . ان مصاحبة اسرة حتى شيخوختها لمما يحزن . ليس مما يهون أن يرى أباه فى وهنه بعد سطوة وجبروت ، أو يرى ذبول أمه وتواريها وراء الكبر ، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها ، هذا الجو المشحون بنذر التعاسة والنهاية . ورقى فى السلم الى الدور الأعلى ـ شقته كما يسميه ـ حيث يعيش منفردا بين حجرة نومه ومكتبته المطلتين على بين القصرين . وخلع ملابسه ومضى مرتديا جلبابه متلفعا بالروب الى المكتبة ، وكانت مكونة من مكتب كبير فيما يلى المشربية وصفين من خزانات الكتب على جانبيها . وكان يريد أن يقرأ فصلا على الأقل فى كتاب « منبعا الدين والأخلاق » لبرجسون ، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهرى لمجلة « الفكر » الذى اتفق أن كان عن البراجمتزم . هذه السويعات الموهوبة للفلسفة ، التى تمتد حتى منتصف الليل ، هى أسعد أوقات يومه ، وهى التى يشعر فيها ـ على حد تعبيره ـ بأنه انسان . أما بقية اليوم الذى يتقضى فى عمله كمدرس بمدرسة السلحدار الابتدائية او فى اشباع شتى مطالب الحياة الضرورية ، فمداره الحيوان الكامن فيه ، المستهدف أبدا تأمين ذاته وتحقيق شهواته . ولم يكن يحب عمله الرسمى ولايحترمه ، ولكنه لم يعلن سخطه ، خاصة فى بيته ، أن يشمت به الشامتون . ومع ذلك فقد كان مدرسا ممتازا حائزا للتقدير ، وكان الناظر يعهد اليه

ببعض النشـاط المدرسى ، حتى رمى نفسه متفكها بالعبودية ، أليس العبد هو الذى يتقن العمـل الذى لا يحبه ؟!. والحق أن ولعه بالتفوق الذى اعتاده منذ الصغر هو الذى دفعه الى الاجتهاد والامتياز دفعـا لاهوادة فيه . وقد صمم من بادىء الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرسـين فكان له ما أراد ، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معا ، رغم رأسـه وانفه العظيمين . ولا شـك أنه كان لهما - رأسـه وأنفه - أو كان لاحساسه الأليم بهما الفضل الأول فى هذا التصميم القوى الذى خلق منه هذه الشخصية المهابة . كان يعلم بان رأسه وانفه سيثيران من حوله الفتن فاسـتل عزمه ليرد عنهما وعنه كيد العابثين . أجل لم ينج أحيانا من غمز وتعريض فى اثناء الدرس أو فى ملعب المدرسة ، فكان يلقى الهجوم بحزم شـديد ، ثم يلطفه بعطفه المطبوع ، الى ما أثر عنه من مقدرة فى الشرح والتفهيم ، وما يأخذ فيه بين وآنة وأخرى من موضـوعات طريفة حماسـية تمس القومية أو ذكريات الثورة ، كل أولئك جعله يستميل اليه « الرأى العـام » بين التـلاميذ ، وكان ذلك - الى حزمه المتوثب عنـد الضرورة - كفيلا بالقضاء على الفتن فى مهدها !. ولشد ما آلمه أول الأمر الغمز الجارح ، ولشد ما اسـتثار المنسى من احزانه ، بيد انه سر آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التى بات يحتلها فى نفوس الصـغار الذين كانوا يتطلعون اليه باعجاب وحب واجلال . وواجهته مشكلة اخرى تتعلق بمقالاته الشهرية فى مجلة « الفكر » ، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانا العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية « المدرس » ولـكن من حسن الحظ أن احدا من المسئولين لم يكن بين قراء « الفكر » ، ثم تبين له بعد ذلك أن المجـلة لا تطبع أكثر من الف نسخة يصدر نصفها الى البلاد العربية ، فشجعه ذلك على الكتابة اليها وهو آمن على نفسه ووظيفته . فى هذه السويعات القلائل ينقلب « مدرس اللغة الانجليزية بالسلحدار الابتدائية » سائحا حرا يجوب أجواء لا تحد من الفكر ، فيقرأ ويتـأمل ويدون الملاحظات التى يجمعها بعد ذلك فى مقالاته الشهرية ، تحثه على جهاده الرغبة فى المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين الى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذى يغشاه والشعور بالوحدة الذى يستكن فى أعماقه .

قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا ، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة فى الانتصار على الرغبة مع شوبنهور ، أو يهون من احساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز فى تفسير الشر ، أو يروى قلبه المتعطش الى الحب من شاعرية برجسون ، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد فى تقليم مخالب الحيرة التى تبلغ حد العذاب ، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمى دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول واثارة للشك والغيرة مع اغراء عنيف بالتملك والوصال ، وهى كالمعشوق الآدمى عرضة لأن تكون ذات وجوه واهواء وتقلبات ، ولا تخلو فى كثير من الأحايين من مكر وخداع وقسوة وكبرياء ، وكان اذا ركبته الحيرة واعياه الجهد يقول متعزيا « قد أكون معذبا حقا ولكننى حى ، انسان حى ، ولن تكون حياة الانسان الخليقة بهذا الاسم بلا ثمن ! » .

- ٢ -

مراجعة الدفاتر وضبط الحسابات وتسوية ميزانية اليوم السابق ، كل ذلك كان احمد عبد الجواد يؤديه على خير الوجوه وبالدقة المعهودة فيه من قديم غير أنه يؤديه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل ان يركبه العمر والمرض . وكان منظره وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة ، وشاربه الفضى يكاد يختفى تحت أنفه الكبير الذى زاده ضمور الوجه ضخامة ، كان ذلك المنظر مما يستحق العطف . غير أن منظر وكيله ومساعده جميل الحمزاوى الذى كان يهدف الى السبعين كان مما يستحق الرثاء . ولم يكن يفرغ من زبون حتى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان احمد يقول لنفسه فى شىء من الامتعاض « لو كنا موظفين لاغنانا المعاش فى مثل سننا من الكد والعمل ! » . ورفع السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول :

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشىء بالأزمة الاقتصادية . .

فارتسم الامتعاض على شفتى الحمزاوى الباهتتين وقال :

- بدون شك ، غير أن هذا العام خير من العام السابق ، والعام السابق خير من الذى قبله ، الحمد لله على اى حال . .

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام ، تلك الفترة التى كان التجار من

اصحابه يسمونها بأيام الرعب ، حين استبد اسماعيل صدقى بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية ، وكانوا يصبحون ويمسون على أخبارالافلاس والتصفيات ، ويقلبون الأكف وهم يتساءلون عما يخبيء لهم الغد ، وقد كان من المحظوظين بغير شك لأن ضيقته لم تبلغ به الافلاس الذى تهدده عاما وبعض عام .

ــ أجل ، الحمد لله على أى حال . .

ووجد جميل الحمزاوى يرنو اليه بنظرة غريبة ، فيها تردد وحرج ، ماذا عنده يا ترى ؟. وقام الرجل فقرب مقعده من المكتب ثم جلس وهو يبتسم فى ارتباك . وكان البرد قاسيا رغم سطوع الشمس ، وكان للهواء حملات قوية ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير . قال السيد وهو يعتدل فى جلسته :

ــ هات ما عندك ، انى موقن بانك ستقول شيئا هاما .

فخفض الحمزاوى عينيه وقال :

ــ موقفى لا أحسد عليه ، ولا أدرى كيف أتكلم . .

فقال السيد مشجعا :

ــ ولكنى عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلى فتستطيع أن تفضى الى بكل ما فى نفسك . . .

ــ العشرة هى التى تصعب على يا سى السيد . .

العشرة ؟!. لم يخطر له هذا على بال . .

ــ أتريد ؟. . حقا !

قال الحمزاوى بحزن :

ــ آن لى أن اعتزل ، الله لا يكلف نفسا الا وسعها . .

وانقبض قلب السيد ، فاعتزال الحمزاوى للعمل ليس الا نذيرا له هو بالاعتزال ، كيف ينهض بأعباء العمل فى دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر ؟. ونظر الى وكيله فى حيرة فعاد الرجل يقول متاثرا :

ــ انى آسف جدا ، ولكنى لم اعد أطيق العمل ، ولى ذلك الزمان ، غيرانىدبرت الأمر فلناتركك وحدك ، سيملأ مكانى من هو أقدر منى . .

ان ثقته فى أمانة الحمزاوى قد رفعت عن كاهله نصف متاعبه ، فكيف يعود ابن الثالثة والستين الى ملازمة الدكان من طلعة الشمس الى مغيبها ؟. قال :

- ولكن اعتزال العمل والقبوع فى البيت يسرعان بالانسان الى التدهور ، الا ترى هذا فى أصحاب المعاشات من الموظفين ؟

فقال جميل الحمزاوى باسما :

- التدهور موجود قبل الاعتزال .

وضحك السيد فجاة كأنما ليدارى الحرج الذى شعر به مقدما قبل ان يقول له :

- يا عجوز يا مكار ، انت تهجرنى تلبية لالحاح ابنك فؤاد ..

فهتف الحمزاوى متأثرا :

- معاذ الله ، ان حالتى الصحية لا تخفى على احد ، وهى السبب الأول والأخير ..

من يدرى ؟. فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء ابيه عاملا بسيطا فى دكان ولو كان صاحب الدكان هو الذى مهد له السبيل ليتبوأ مركزه فى النيابة . ولكنه شعر بأن تصريحه قد آلم وكيله الطيب فتراجع متسائلا فى لطف :

- متى ينقل فؤاد الى القاهرة ؟

- فى صيف هذا العام أو فى صيف العام القادم على الأكثر ..

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتى قال الحمزاوى مجاريا السيد فى لطفه :

- واذا اقام معى فى القاهرة وجب التفكير فى تزويجه ، اليس كذلك يا سى السيد ؟. انه ابنى الوحيد على سبع بنات ، ولا بد من تزويجه ، وكلما فكرت فى ذلك جرت فى خاطرى الآنسة المهذبة حفيدتك ..

واسترق الى وجه السيد نظرة استطلاع ، ثم تمتم :

- لسنا قد المقام طبعا ..

فلم يسع السيد الا أن يقول :

- استغفر الله يا عم جميل ، نحن اخوان من قديم الزمن ..

ترى أحرضه جميل على جس النبض ؟. وكيل نيابة شىء عظيم ، والعبرة فى الأصل بالطيبة ، ولكن أهذا وقت التحدث فى الزواج ؟

- حدثنى أولا ألأنت مصمم على اعتزال العمل ؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول :

- يا الف صباح الخير ..

فابتسم السيد بدافع المجاملة رغم استيائه لانقطاعه عن الموضوع الذى يهمه ، وقال :

ـ أهلا وسهلا .. (ثم وهو يشير الى المقعد الذى اخلاه الحمزاوى) تفضلى ..

جلست زبيدة بجسم قد ترهل ، ووجه قد تقنع بالأصباغ ، أما الحلى فلم يعد لها من اثر فى عنقها او أذنيها أو ساعديها ، ولا للجمال القديم مكان . وجعل السيد يرحب بها كعادته مع كل زائر لا أكثر ، أما قلبه فلم يرتح للزيارة ، فما من مرة تجيئه الا وترهقه بالمطالب . سألها عن الصحة فأجابت وهى لا تعنى شيئا « الحمد لله » وقال لها بعد هنيهة صمت .. أهلا .. أهلا ، فابتسمت شاكرة ولكن بدا انها استشعرت الفتور الكامن فى مجاملاته . وضحكت متجاهلة الجو الذى يكتنفها ، وكانت الأيام قد علمتها البرود ، ثم قالت :

ـ لا احب أن أضيع وقتك وانت مشغول ، ولكنك انبل من عرفت فى حياتى ، فاما أن تمدنى بسلفة أخرى ، واما أن تجد لبيتى شاريا ، ويا حبذا لو تكون انت الشارى !

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا :

ـ أنا ؟!. يا ليت ، الزمن غير الزمن يا سلطانة ، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدقين يا سلطانة ..

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت :

ـ السلطانة مفلسة ، فما العمل ؟

ـ فى المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه ، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك ..

فتساءلت فى قلق :

ـ ألا يمكن أن تجد لبيتى شاريا ؟

ـ سأبحث لك عن شار ، أعدك بذلك .

فقالت ممتنة :

ـ هذا ما ينتظر منك يا سيد الكرماء (ثم بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التى تغيرت ولكن الناس تغيروا أكثر ، سامح الله الناس ، فى أيام العز كانوا يستبقون الى تقبيل حذائى ، والآن اذا لمحونى فى جانب من الطريق مالوا الى الجانب الآخر .

لا بد أن يتنكر للانسان شيء ، بل أشياء ، الصحة أو الشباب أو الناس ، أما أيام العز ، أيام الأنغام والحب فأين هي ؟ !

- ومن ناحية أخرى فانت يا سلطانة لم تعملى للأيام حسابها .

فتنهدت آسفة وهي تقول :

- نعم ، لست كأختك جليلة التي تتاجر بالأعراض وتقتنى المال والبيوت ، وفضلا عن ذلك فقد ابتلانى الله بأولاد الحرام حتى بلغ الفجر بحسن عنبر انه كان يبيعنى شمة الكوكايين - عندما ندر فى الأسواق - بجنيه !

- لعنه الله .

- حسن عنبر ؟ . . ألف لعنة !

- بل الكوكايين .

- والله الكوكايين أرحم من الانسان .

- لا . . لا ، من المحزن حقا أنك وقعت فى شره .

فقالت بتسليم وقنوط :

- هد حيلى وضيع مالى ، ما علينا ، متى تجد لى شاريا ؟

- ان شاء الله عند أول فرصة .

فقالت فى عتاب وهى تنهض :

- اسمع ، اذا زرتك فى المرة القادمة فابتسم من قلبك ، كل اساءة تهون الا التى تجيئنى من ناحيتك ، أنا عارفة انى أضايقك بمطالبى ولكنى فى ضيق لا يعلم به الا الله ، وانت انبل الناس فى نظرى .

فقال معتذرا :

- لا تتوهمي ما ليس فى ، الأمر انى كنت مشغولا بمسألة هامة عند قدومك ، وهموم التجار لا تنتهى كما تعلمين !

- رفع الله عنك الهموم .

فحنى رأسه شاكرا وهو يوصلها ، ثم ودعها قائلا :

- أهلا بك من القلب فى كل حين . .

ولمح فى عينيها نظرة خابية تفيض غما فرق لها ، وعاد الى مجلسه منقبض الصدر فالتفت الى جميل الحمزاوى وقال بصوت اسيف :

- دنيا . .

- كفاك الله شرها وأطعمك خيرها .

غير أن نبرات الحمزاوى قست وهو يستدرك قائلاً :
ـ ولكنها عاقبة عادلة لامرأة مستهترة !

فهز أحمد عبد الجواد رأسه هزة مقتضبة سريعة كأنما يعلن بها احتجاجا صامتا على قسوة هذه الموعظة ، ثم سأله بصوت رجع به الى النغمة التى قطعها مجىء زبيدة :

ـ ألا تزال مصمما على رأيك فى هجرنا ؟
فقال الرجل فى حرج :
ـ ليس هجرا ولكنه تقاعد وأنا آسف من كل قلبى .
ـ كلام كالذى داريت به زبيدة منذ دقيقة !
ـ أستغفر الله ، انى أتكلم من قلبى ، ألا ترى يا سيدى أن الكبر يكاد يعجزنى ؟

ثم دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوى اليه ، واذا بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلا فى لهجة الغزل : .

ـ من هذا الذى يجلس وراء المكتب كالقمر ؟ !

بدأ الشيخ متولى عبد الصمد فى جلباب خشن رث لا لون له ، ومركوب متفزر ، معصوب الرأس بتلفيعة من وبر ، مستند القامة على عكاز ، وكان يرمش بعينيه الحمراوين مسددا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن انه يسدده نحوه ، فابتسم السيد رغم همه قائلا :

ـ تعال يا شيخ متولى ، كيف حالك ؟
فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يهتف :
ـ يا ضغط زل ، يا صحة عودى الى سيد الناس ..

وقام السيد فاتجه نحوه فاعتدل بصر الشيخ اليه ولكنه تراجع فى الوقت نفسه كالهارب ، ثم جعل يدور حول نفسه ، مشيرا الى الجهات الأربع وهو يصيح « من هنا تفرج ... ومن هنا تفرج ... ومن هنا تفرج ... ومن هنا تفرج » . ثم تحول الى الطريق قائلا :

ـ ليس اليوم ، غدا ، أو بعد غد ، قل الله أعلم ..
ومشى فى خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالى ..

— ٣ —

يوم الجمعة رجعت الفروع الى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد ، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه . ولم تعد أمينة « بطلة » يوم الجمعة كما كانت قديما ، فأم حنفى تبوأت المركز الاول فى المطبخ ، ولم تكن أمينة تنى عن تذكير القوم بأن أم حنفى تلميذتها فان غرامها بالثناء كان يتشجع على الافصاح عن ذاته كلما شعرت بقلة استحقاقها له ، الى أن خديجة ـ رغم أنها فى حكم الضيفة ـ لم تقصر فى اهداء معونتها . وقبيل ذهاب السيد الى الدكان التف به الضيوف ، ابراهيم شوكت وابناه عبد المنعم واحمد ، وياسين وابناه رضوان وكريمة ، يكتنفهم ذلك الخشوع الذى يجعل من ضحكهم ابتساما ومن حديثهم همسا . وكان السيد يجد فى حضورهم سرورا يزداد تعلقا به كلما تقدم به العمر ، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته فى الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة ، الا يريد هذا البغل أن يفهم انه يتوق الى رؤيته كل حين ؟. وابنه رضوان جميل المحيا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذى يعكس جماله الوانا متنوعة تذكره مرة بياسين ومرة بهنية أم ياسين وثالثة بصديقه الحبيب محمد عفت فهذا أحب الأحفاد الى قلبه ، وكريمة أخته مصغر شابة فى الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجا عجيبا كما تشهد عيناها السوداوان ـ عينا زنوبة أمها ـ اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات . أما عبد المنعم واحمد فحسبه أن يرى فى وجهيهما قدرا لا يستهان به من أنفه العظيم كما يرى عينى خديجة الصغيرتين الجميلتين ، غير انها أجرأ من الآخرين فى مخاطبته ، وكلهم ـ هؤلاء الأحفاد ـ يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو الى الفخار ، لكنهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدهم ، فمن جهة يعزونه بأن حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكرونه بأن شخصه يتراجع رويدا عن مركز الاهتمام الذى كان يستأثر به ، ولم يكن ذلك ليحزنه ، فان الايغال بالعمر يجىء بالحكمة كما يجىء بالوهن والمرض . ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفق ، عند ما

كان مثل هؤلاء فى مطلع العمر ، وعند ما كان العام ١٨٩٠ ، وكان يتعلم قليــلا ويلهو كثيرا ما بين مغانى الجمــالية ومرتاد الأزبكية ، وفى ركابه يجرى محمــد عفت وعلى عبد الرحيم وابراهيم الفار ، وكان ابوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيده قليلا ويرق له كثيرا ، وكان العمر صفحة مطوية مكتظة بالآمال ، ثم كانت هنية ... ولــكن مهلا ! لا ينبغى أن تستخفه الذكريات .

وقام ليصــلى العصر فـكان ذلك ايذانا لهم بالانصراف ، ثم ارتدى ملابســه ومضى الى الدكان ، وتجمعوا هم فى مجلس القهوة حول مجمرة الجدة ، فى جو التلاقى والسمر . احتلت الكنبة الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة ، أما الكنبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكريمة ، وعلى الكنبة اليسرى قعد ابراهيم شوكت وخديجة وكمال ، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم واحمد مجالسهم على كراسى توسطت الصالة تحت المصباح الكهربائى . وكان ابراهيم شوكت كعادته التى لم يغيرها الزمن ينوه بالوان الطعام التى إعجبته ، غير أن تنويهه اقتصر فى الأعوام الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة . وكانت زنوبة تعيد ثنــاءه كالصدى فانها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودد بها الى أحد من اهل زوجها . والحق انها مذ فتحت لهــا أبواب آل زوجهــا وأتيحت لهــا مخالطتهم وهى تعمل بلبــاقة فائقة على توثيق علاقتها بهم ، لأنها عدت ذلك اعترافا بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهى تعيش فى عزلة كالمنبوذة . وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقى فى زيارة اهله لبيته للتعزية ، فصافحت يدها أيديهم لأول مرة منذ زواجها ، وتشجعت بذلك فزارت السكرية ، ثم زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيد ، بل اقدمت على زيارته فى حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركا بينهما . هكذا اندمجت زنوبة فى آل أحمد حتى غدت تخاطب أمينة فتقول لهــا يا تيزة وتنادى خديجة فتقول يا أختى ، وبدت دائما مثالا للاحتشام ، وعلى خلاف نســاء الأسرة أنفسهن تجنبت التبرج خارج بيتها ، حتى بدت أكبر من سنها ، اذ بادر الذبول جمالها قبل الأوان ، فلم تصدق خديجة أبدا أنها فى السادسة والثلاثين ، ولكنها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتى قالت عنها أمينة يوما « لا شك أن أصلها طيب ، ربما أصلها البعيد ، فليكن ، ولكنها بنت حلال ، هى الوحيدة التى

عمرت مع ياسين ! » . وبدت خديجة فى شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه ، ولم تكن تنكر أنها سعيدة بذلك ، كما كانت سعيدة بعبد المنعم واحمد وحياتها الزوجية الموفقة عامة ، بيد أنها لم تكف يوما عن التشكى اتقاء العين . وقد تغيرت معاملتها لعائشة تغيرا كليا فلم تند عنها لها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنم عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل المازحة ، بل حرصت الحرص كله على الترفق بها والتودد اليها وملاطفتها ، خشوعا حيال تعاستها وخوفا من الأقدار التى قضت عليها بما قضت ، واشفاقا من ان تضع المرأة المحزونة حظيهما موضع المقارنة ، وقد وقفت موقفا كريما يوم حتمت على ابراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع فى ميراث اخيه المتوفى لنعيمة فآل الميراث كله لعائشة وكريمتها دون شريك . واملت خديجة أن يذكر صنيعها فى حينه ولكن عائشة استغرقها ذهول غيب عنها كرم اختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت اما أخرى لها ، ولم تكن تطمع فى أكثر من رضائها ومودتها كى تطمئن على أسباب التوفيق التى هيأها لها الله . وأخرج ابراهيم شوكت علبة سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة ، وتناول أخرى ، وراحا يدخنان . كثيرا ما يكون افراط عائشة فى التدخين وتعاطى القهوة ملتقى ملاحظات وان تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين ، اما امها فتقنع بأن تقول فى لهجة الدعاء « ربنا يصبرها » وأما ياسين فكان أجرأ الأهل فى نصحها كأنما قد أهله لذاك فقد وليده ، غير أن عائشة لم تكن تعده مصابا مثلها وتضن عليه بمكانة مرموقة فى دولة المبتلين اذ أن ابنه مات وهو دون العام لا كعثمان أو محمد ، والواقع أن حديث المصائب كان يبدو كثيرا هوايتها المفضلة ، كأنما كانت تعتز بدرجتها الممتازة فى دنيا الشقاء . واستمع كمال الى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع باسما ، وكان رضوان ياسين يقول :

ـ كلنا من القسم الادبى ، فليس أمامنا من كلية جديرة بالاختيار الا الحقوق .

فأجابه عبد المنعم ابراهيم شوكت بصوته القوى المفعم بنبرات

التوكيد ، وكان يهز راسه الضخم الذى جعله أقرب الشبان شبها الى كمال :

ـ مفهوم .. مفهوم ، ولكنه لا يريد أن يفهم ! .

وأومأ عند عبارته الأخيرة الى أخيه احمد الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، فانتهز ابراهيم شوكت الفرصة وقال مشيرا الى أحمد أيضا :

ـ ليدخل الآداب اذا شاء ولكن عليه أن يقنعني بقيمتها ، أنا أفهم الحقوق ولكنني لا افهم الآداب !

وغض كمال بصره فيما يشبه الأسى ، اذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين . انه لا زال يتنفس فى جو الآمال القديمة ، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم ، فوكيل النيابة مثلا لا يحتاج الى تعريف اما كاتب مقالات مجلة « الفكر » فربما احتاج الى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها ! . ولم يدعه أحمد ابراهيم شوكت لحيرته فنظر اليه بعينيه الصغيرتين البارزتين وهو يقول :

ـ انى اترك الجواب لخالى كمال ..

وابتسم ابراهيم شوكت ابتسامة يدارى بها حرجه ، اما كمال فقال دون حماس :

ـ أدرس ما تشعر بأنه يوافق موهبتك .

وبدا الظفر فى وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين اخيه وابيه غير أن كمال عاد يقول :

ـ ولكن ينبغى أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب . سيكون مستقبلك اذا اخترت الآداب فى التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها ..

ـ بل سأتجه الى العمل فى الصحافة .

ـ الصحافة ! .. (صاح ابراهيم شوكت) .. انه لا يدرى ماذا يقول !

فقال احمد بحدة مخاطبا كمال :

ـ ان قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شىء واحد فى اسرتنا !

فقال رضوان ياسين باسما :

ان أكبر قادة الفكر فى وطننا من الحقوق ..

فقال أحمد فى كبرياء :

ـ ان الفكر الذى أعنيه شىء آخر !

فقال عبد المنعم شوكت عابسا :

ـ وهو شىء مخيف هدام ، انى أعلم وأأسفاه بما تعنى ..

وعاد ابراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر الى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول :

ـ فكر قبل أن تقدم ، انك لا زلت فى السنة الرابعة ، لن يعدو ميراثك المائة جنيه فى العام ، وان بعض أصحابى يشكون مر الشكوى من أن ابناءهم الجامعيين لا يجدون عملا ، أو يعملون كتبة بمرتبات تافهة ، وأنت حر بعد ذلك فيما تختار ..

وتدخل ياسين فى المناقشة بأن أقترح قائلا :

ـ لنسمع راى خديجة ، انها المدرسة الأولى لأحمد ، وهى أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب ..

وامتلأت الثغور بالابتسام ، حتى أمينة ابتسمت وهى عاكفة على كنجة القهوة ، بل حتى عائشة ابتسمت ، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت :

ـ ساقص عليكم قصة طريفة ، أمس بعد العصر بقليل ـ والدنيا تظلم بسرعة فى الشتاء كما تعرفون ـ كنت راجعة من الدرب الأحمر الى السكرية ، فشعرت كأن رجلا يتبعنى ، واذا به يمر بى تحت قبة المتولى وهو يقول « على فين يا جميل » فالتفت نحوه قائلة « على البيت يا سى ياسين ! » .

وضجت الصالة بالضحك . ونظرت اليه زنوبة نظرة ذات معنى ، تجلى فيها الانتقاد واليأس ، أما ياسين فجعل يشير للضاحكين بيده حتى عاد السكون ، ثم تساءل :

ـ امن المعقول أن يصيبنى العمى الى هذا الحد ؟

فحذره ابراهيم شوكت قائلا :

ـ حاسب !

أما كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنها رغم كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصة عمتها . وقالت زنوبة تعليقا على الحال :

ـ شر الأمور ما يضحك !

وحدج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول « حفرت لى حفرة يا بنت الايه » فقالت خديجة :

ـ اذا كان أحد فى الموجودين فى حاجة الى الآداب فهو أنت لا أحمد ابنى المجنون !

وصدقت زنوبة على قولها ، اما رضوان فدافع عن ابيه ودعاه بالبرىء المظلوم ، وظل أحمد ينظر الى كمال متعلقا به كالآمل ، أما عبد المنعم فكان يسترق النظر الى نعيمة التى تبدت لصق أمها كالوردة البيضاء ، وكانت كلما شعرت بعينيه الصغيرتين تورد وجهها الشاحب الرقيق ، حتى عاد ابراهيم شوكت يقول مغيرا مجرى الحديث مخاطبا أحمد :

ـ انظر الى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوى وكيل نيابة قد الدنيا ..

شعر كمال كأن هذا القول انتقاد مر موجه الى شخصه ، أما عائشة فقالت لأول مرة :

ـ انه يريد أن يخطب نعمة .

وفى فترة الصمت التى استقبل بها الخبر قالت أمينة :

ـ ابوه فاتح جدها أمس ..

وتساءل ياسين جادا :

ـ وهل وافق ابى ؟

ـ هذا سابق لأوانه .

فتساءل ابراهيم شوكت بحذر وهو ينظر الى عائشة :

ـ وما رأى عائشة هانم ؟

فقالت عائشة دون أن تنظر الى أحد :

ـ لا أدرى ..

فقالت خديجة وهى تتفحصها بعمق :

ـ ولكنك أنت الكل فى الكل ..

وأراد كمال أن يشهد شهادة طيبة لصديقه فقال :

ـ فؤاد شاب ممتاز حقا ..

فقال ابراهيم شوكت بحذر كالمتسائل :

ـ أظن أهله من السوقة ؟!

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوى :

ـ نعم ، خاله مكارى ، وخاله الآخر فران ، وعمه كاتب محامى (ثم بلهجة استدراكية ضعيفة) ولكن هذا كله لا ينقص من قدر الانسان فالانسان بنفسه لا بأهله !

وادرك كمال أن ابن أخته يريد أن يقرر حقيقتين يؤمن بهما على تنافرهما ، أولا وضاعة أصل فؤاد وثانيا أن وضاعة الاصل لا تنقص من قدر الشخص . بل أدرك أكثر من هذا أنه يحمل فى الأولى على فؤاد وانه يكفر فى الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية القوية . ومن عجب أن تقرير هاتين الحقيقتين أراحه وكفاه شر التورط فى الافصاح عنهما بنفسه ، فانه كابن أخته لم يكن يؤمن بفوارق الطبقات ، وكان مثله أيضا يميل للحملة على فؤاد والحط من شأنه الذى يدرك خطورته وتفاهته هو بالقياس اليه . والظاهر أن أمينة لم ترتح لهذه الحملة فقالت :

ـ أبوه رجل طيب ، خدمنا العمر كله بأمانة واخلاص .

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت :

ـ ولكن ربما عاشرت نعيمة ـ لو تم هذا الزواج ـ اناسا ليسوا أهلا للمعاشرة ، الأصل كل شيء ..

وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر احد ، فقالت زنوبة :

ـ صدقت ، الأصل كل شيء !

واضطرب ياسين ، واسترق الى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجع قول زوجته فى نفسها ، وتعليقها الباطنى عليه وما يستدعيه ذلك الى خواطرها من عالم العوالم والتخت ، حتى لعن زنوبة فى سره على « فنزحتها » الفارغة ، واضطر أن يتكلم ليغطى على كلام زوجته ، فقال :

ـ تذكروا انكم تتحدثون عن وكيل نيابة . .

فقالت خديجة متشجعة بسكوت عائشة :

ـ ابى الذى جعل منه وكيل نيابة ، أموالنا نحن التى صنعته !

فقال احمد شوكت فى سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكران بالمرحوم خليل شوكت :

ـ نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا !

فأشارت اليه خديجة بسبابتها وهى تقول بلهجة ملؤها الانتقاد :

ـ أنت دائما ترمينا بكلام غير مفهوم .

فقال ياسين بلهجة من يأمل فى انهاء الموضوع :
ـ أريحوا انفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا . .

وزعت أمينة فناجيل القهوة . واتجهت أعين الشباب الى حيث جلست نعيمة لصق أمها . قال رضوان لنفسه : بنت لطيفة وجميلة ، ليته كان فى الامكان ان أصادقها وازاملها ، لو مشينا فى الطريق معا لاحتار الرجال أينا الأجمل ! . وقال احمد لنفسه أيضا : جميلة جدا ، ولكنها كأنما هى ملزوقة فى خالتى بالغرا ، ولا حظ لها من الثقافة . أما عبد المنعم فقال : جميلة وست بيت وشديدة التقوى ، لا يعيبها الا ضعفها ، وحتى ضعفها جميل ، خسارة فى عين فؤاد . ثم جاوز الحديث الباطنى فسألها :

ـ وأنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك ؟

فتورد الوجه الشاحب ، وقطبت ثم ابتسمت ، وتوتر حالها وهى تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منهما معا ، ثم قالت فى حياء واستياء :

ـ لا رأى لى ، دعنى وشأنى !
فقال احمد ساخرا :
ـ الحياء الكاذب . . .
ولكن عائشة قاطعته متسائلة :
ـ الكاذب ؟ !
فاستدرك قائلا :
ـ الحياء موضة قديمة ، ينبغى أن تتكلمى والا ضاعت منك الحياة .
فقالت عائشة بمرارة :
ـ اننا لا نعرف هذا الكلام !
فقال أحمد متشكيا دون أن يعبأ بنظرة امه المنذرة :
ـ أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون !
فسأله عبد المنعم ساخرا :
ـ لم حددتها بأربعة ؟
فقال دون اكتراث :
ـ على سبيل الرأفة !
واذا بخديجة توجه الخطاب الى كمال متسائلة :
ـ وأنت ! . متى تتزوج انت ؟

بوغت كمال بالسؤال فتهرب قائلا :

ـ حديث قديم !

ـ وجديد فى الوقت نفسه ، ولن نتركه حتى يجمع الله شملك على بنت الحلال .

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف ، فزواج كمال أعز أمانيها ، وكم رجته أن يحقق أمنيتها حتى تقر عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد . قالت :

ـ عرض عليه ابوه عرائس من أحسن الأسر ولكنه يتعلل دائما بعذر أو بآخر ..

ـ أعذار واهية ، كم عمرك الآن يا سى كمال ؟ ... تساءل ابراهيم شوكت ضاحكا .

ـ ثمانية وعشرون عاما ! . فات الوقت ..

انصتت أمينة الى رقم العمر بدهش كأنها لا تريد أن تصدق ، أما خديجة فاحتدت وهى تقول :

ـ أنت مغرم بتكبير عمرك !

أجل فهو الأخ الأصغر ، فالكشف عن عمره كشف غير مباشر عن عمرها . ومع أن زوجها بلغ الستين الا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها فى الثامنة والثلاثين . أما كمال فلم يكن يدرى ماذا يقول ، ولم يكن الموضوع فى نظره مما يحسم بكلمة ، ولكنه كان يشعر دائما بانه مطالب بايضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر :

ـ انى مشغول نهارى بالمدرسة وليلى بمكتبى .

فقال أحمد بحماس :

ـ حياة عظيمة يا خالى ، ولكن الانسان ينبغى مع ذلك أن يتزوج .

وقال ياسين الذى كان أعرف الجميع بكمال :

ـ أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب « الحقيقة » ولكن الحقيقة فى هذه الشواغل ، لن تعرف الحياة فى المكتبة ولكن الحقيقة فى البيت والشارع ..

فقال كمال ممعنا فى الهرب :

ـ تعودت أن انفق مرتبى لآخر مليم ، ليس عندى مدخر ، كيف أتزوج ؟ !

فقالت خديجة تحاصره :

ــ انو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له .

وقال ياسين ضاحكا :

ــ انك تنفق مرتبك لآخر مليم حتى لا تتزوج . .

كانهما شيء واحد . ولكن لم لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين ؟. اجل مضت فترة فيظل الحب فكان الزواج ضربا منالعبث. وتبعتهـا فترة حل محل الحب فيهـا بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم ، وكانت فرحـة الافراح أن يعثر على كتـاب جميل او يظفر بنشر مقالة . وقال لنفسـه ان المفكر لا يتزوج وما ينبغى له . كان ينظر الى فوق ويظـن أن الزواج سـيحمله على النظـر الى تحت . وكان ــ وما زال ــ يلذ له موقف المشـاهد المتأمل بقـدر ما ينفر من الاندماج فى ميكانيكية الحياة . وانه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله . ثم انه لم يبق عنده من المراة الا شهوة تقضى . والى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضى اسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسـدية . ثم انه حائر يداخله الشك فى كل شيء والزواج نوع من الايمان . قال :

ــ أريحوا انفسكم ، سأتزوج عند ما أرغب فى الزواج .

فابتسمت زنوبة ابتسامة أرجعتها الىالوراء عشرة أعوام وتساءلت :

ــ ولم لا ترغب فى الزواج ؟!

فقال كمال فيما يشبه الضجر :

ــ الزواج حبة وانتم تجعلون منه قبة . .

ولكنه كان يؤمن فى أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة . وكان يساوره شـعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيقضى عليه قضـاء مبرما . وانقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له :

ــ آن لنا أن نصعد الى المكتبة .

فنهض مرحبا بدعوته ، ومضى خارجا وعبدالمنعم واحمد ورضوان فى اثره . وصعدوا الى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا البيت القديم زائرين . وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائى بين صفين من خزائن الكتب ، فجلس الى مكتبه على حين رأى الشـبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الارفف ، ثم اختار عبد المنعم كتاب محاضرات فى تاريخ الاسلام ، وجاء احمد بكتاب

« مبادىء الفلسـفة » ، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتا ، حتى قال أحمد متضايقا :

ـ لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل ..

وتمتم عبد المنعم وهو يفر صفحات كتابه :

ـ لا أحد يعرف الاسلام على حقيقته .

فقال أحمد ساخطا :

ـ اخي يتلقىحقيقة الاسلام على يد رجل شبه عامي فيخانالخليلى..

فصاح به عبد المنعم :

ـ صه يا زنديق !

ونظر كمال الى رضوان متسائلا :

ـ وأنت الا تريد كتابا ؟

فأجاب عنه عبد المنعم :

ـ وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية ..

فقال رضوان وهو يومىء الى كمال :

ـ فى هذا يتفق مع عمى !

عمه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدى !. كما أنه يشك فى الحقيقة عامة ورغم ذلك فهو يتعامل مع النـاس والواقع . تساءل وهو يردد عينيه بين عبد المنعم وأحمد :

ـ وأنتما وفديان كذلك فما وجه الغرابة ؟. وكل وطنى فهو وفدى ، أليس كذلك ؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينى :

ـ الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب ، ولكنه فى ذاته لم يعد مقنعا كل الاقنـاع ..

فقال أحمد ضاحكا :

ـ انى أوافق اخي على رايه هذا ، أو بالأحرى لا أوافقه على راى الا هذا ، وربما اختلفنا فى درجة الاقناع الخاصة بالوفد ، أكثر من ذلك فان الوطنية نفسها يجب ان تكون موضع استفهام ، أجل أن الاسـتقلال فوق كل نزاع ، أما معنى الوطنية بعد ذلك فينبغى أن يتطور حتى يفنى فى معنى أشمل وأسمى ، وليس ببعيد ان ننظر فى المستقبل الى شهداء

الوطنية كما ننظر الآن الى ضحايا المعارك الحمقاء التى كانت تنشب بين القبائل والأسر !

معارك حمقاء يا أحمق !. فهمى لم يستشهد فى معركة حمقاء . ولكن أين وجه اليقين ؟. ورغم خواطره قال بحدة :

ـ اى قتيل فى سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد ، وقد تتغير قيم الأشياء اما موقف الانسان منها فهو قيمة لا تتغير ..

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبا عبد المنعم رداً على ملاحظة له :

ـ السياسة اخطر وظيفة فى المجتمع ..

ولما عادوا الى مجلس القهوة كان ابراهيم شوكت يقول لياسين :

ـ وهكذا فنحن نربى ونوجه وننصح ولكن كل ولد يندمج فىمكتبة ، هى عالم مستقل عنا ، يزحمنا فيه أناس غرباء لا ندرى عنهم شيئا ، فما عسى أن نصنع ؟ !

— ٤ —

كان الترام مكتظا حتى لم يعد به موضع لواقف ، وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطل عليهم بقامته الطويلة النحيلة . كانوا مثله ـ فيما بدا له ـ يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطنى ـ عيد ١٣ نوفمبر ـ فردد عينيه فى الوجوه مستطلعا ومرحبا ، والحق انه يشارك فى هذه الأعياد كأشد المؤمنين بها وان آمن فى الوقت نفسه بألا ايمان له . وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة « الوفدية » التى الفت بين قلوبهم . قال أحدهم :

ـ عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكل معنى الكلمة ، أو هذا ما يجب أن يكون ..

فقال آخر :

ـ يجب أن يرد فيه على هور وتصريحه المشئوم .

وثار ثالث لذكر هور فصاح :

- ابن الكلب قال : نصحنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ، ما شأنه هو ودستورنا ؟

فأجابه رابع :

- لا تنس أنه قال قبل ذلك « على أننا عند ما استشارونا نصحنا » الخ ...

- أجل ، من الذى استشاروه ؟

- سل عن ذلك حكومة القوادين !

- توفيق نسيم وكفى !. أنسيتموه ؟ . ولكن لماذا هادنه الوفد ؟ !

- لكل شيء نهاية ، انتظروا خطبة اليوم .

أصغى كمال اليهم ، بل اشترك فى حديثهم ، واعجب من هذا انه لم يكن دونهم حماسا . وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده . وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التى خلفتها الأعوام السابقة . أجل « لقد عاصرت عهد محمد محمود الذى عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب فى نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات ! . كما عشت سنين الارهاب والعهر السياسى التى فرضها اسماعيل صدقى على البلاد » . كان الشعب يثق فى قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق راسه دائما أولئك الجلادين البغضاء ، تحميهم هرآوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم ، وسرعان ما يقولون له بلغة أو بأخرى انت شعب قاصر ونحن الأوصياء . والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث ، حتى اتخذ فى النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية ، فخلا الميدان الا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية اخرى ، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله فى همس دون أن يمد لهم يدا » . ان قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب ، انه يخفق معه دائما ، رغم عقله التائه فى ضباب الشك . غادر الترام عند شارع سعد زغلول ، وسار فى طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام فى جوار بيت الأمة ، تقابلهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستابل انجليزى تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة . والتقى قبيل السرادق بعبد المنعم واحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معا يتحادثون ، فاقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت . منذ شهر

تقريبا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل الى السنة النهائية بالثانوى .. وانه ليراهم فى الطريق « رجالا » بخلاف ما يراهم فى البيت فليسوا الا ابناء اخته واخيه . وما اجمل رضوان ، كذلك جميل صاحبه الذى قدمه اليه باسم حلمى عزت وقد صدق من قال ان الطيور على أشكالها تقع . وكان احمد يسره ، وينتظر منه دائما قولا غريبا ممتعا او سلوكا لا يقل عنه غرابة ، انه أقرب الجميع الى روحه ، اما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله الى القصر والامتلاء ، لذلك فحسب يحبه ، أما يقينه وتعصبه فما ارذلهما ! .

واقبل على السرادق الضخم ، والقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة ، مسرورا بكثرتها الهائلة ، وتطلع مليا الى المنصة التى سيعلو عندها عما قليل صوت الشعب ، ثم اتخذ مجلسه . ان وجوده فى مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من اعماق ذاته المفارقة فى الوحدة شخصا جديدا ينتفض حياة وحماسا . هنا ينحبس العقل فى قمقم الى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة الى حياة مفعمة بالعواطف والاحاسيس دافعة الى الكفاح والأمل ، وعند ذاك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس فيشارك فى حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم . انه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لابد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية ، حياة الناس ، فلتؤجل مشكلات المادة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة وليمتلىء اهتماما بما يحب هؤلاء الناس وبما يكرهون ، بالدستور .. بالأزمة الاقتصادية .. بالموقف السياسى .. بالقضية الوطنية . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتف « الوفد عقيدة الأمة » غداة ليل قضاه فى تأمل عبث الوجود وقبض الريح . والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة ، فهو يعشق الحقيقة وهوى النزاهة ويتطلع الى التسامح ويرتطم بالشك ويشقى فى نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات ، فلا بد من ساعة يأوى فيها المتعب الى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمد حرارة وشبابا . فى المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل داروين وبرجسون ورسل ، فى هذا السرادق آلاف من الأصدقاء ، يبدون بلا عقول ، ولكن يتمثل فى مجتمعهم شرف الغرائز الواعية ، وليسوا فى النهاية دون الأول خلقا للحوادث وصنعا للتاريخ . فى هذه

الحياة السياسية يحب ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كل شيء ولا قيمة له . وكلما واجه هذا التناقض فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليس ثمة موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالى من قلق . لذلك شد ما يحن قلبه الى تحقيق وحدة منسجمة تتسم بالكمال والسعادة ، ولكن أين هذه الوحدة ؟!. ويشعر بأن الحيـاة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعده ذلك عن التطلع الى الحيـاة الاخرى تدفعه كافة القوى المعطلة المكبوتة ، فهى صخرة النجاة . فلعله لذلك بدا هذا الجمع رائعا ، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة . وها هو القلب ينتظر ظهور الزعمـاء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين . وقد جلس عبد المنعم وأحمـد على مقعدين متجاورين ، اما رضوان وصاحبه حلمى عزت فيسيران فى الممر الذى يشق السرادق ذهابا وجيئة او يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيالهما من شابين ذوى نفوذ !. وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عاما أما الأركان التى احتلها الشباب فعلا ضجيجها وتخللته الهتافات . ثم ترامى هتاف قوى ذو دلالة من الخارج فتطلعت الرءوس الى مدخل السرادق الخلفى ، ثم هبوا واقفين ، وتعالى هتاف يصم الآذان ، ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيى الألوف بابتسامة وضـيئة ويدين قويتين . وتطلع اليه بعينين اختفت منهما نظرة الشك الى حين ، وكان يتسـاءل كيف أومن بهذا الرجـل بعـد أن فقـدت الايمان بكل شيء ؟. الأنه رمز الاسـتقلال والديموقراطية ؟!. مهما يكن من أمر فان التجاوب الحار المتبـادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر ، وهى بلا شك قوة خطيرة تلعب دورها التـاريخى فى بنـاء القومية المصرية . وتشـبع الجو بالحماس والحرارة . وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون فى الأركان ، كى يسمع الناس المقرىء وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرددا فيما يتلو « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » . وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتـاف والتصفيق حتى احتج بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراما لكتاب الله . وأثار قولهم فى نفسه ذكريات قديمة يوم كان يعد واحدا من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشـعر من توه عالمه الخاص الحـافل بالمتناقضات الذى يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراغ . ووقف الزعيم وراح يلقى خطـابه .

ألقاه بصوت رنان وبيـان نافذ فاسـتغرق القاؤه ساعتين . ثم ختمه جاهرا فى عنف سافر بالدعوة الى الثورة . وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد ، وجعلوا يهتفون بحماس جنونى . ولم يكن دونهم حماسا وهتافا . نسى انه مدرس مطالب بالوقار وخيل اليه انه رجع الى الأيام المجيدة التى سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيهـا . اكانت الخطب تلقى بهذه القـوة ؟. اكان النـاس يتلقونها بمثل هـذا الحماس ؟. اكان الموت لذلك يهون ؟. من مثـل هذا الموقف بدأ فهمى دون ريب ، ثم اندفع الى الموت . الى الخلود أم الى الفناء ؟!. أمن الممكن أن يستشهد رجل فى مثل حاله من الشك ؟. لعل الوطنية ـ كالحب ـ من القوى التى نذعن لها وان لم نؤمن بها ! .

ان فورة الحماس عالية ، الهتافات حارة متوعدة ، المقاعد ترتج بمن فوقها ، فما الخطوة التـالية ؟ ما يدرى الا والجموع تتجه نحو الخارج . وغادر موضعه وهو يلقى نظرة عامة باحثا عن شـباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر . وغادر السرادق من الباب الجانبى ، ثم سار مستهدفا شارع قصر العينى فى خطوات سريعة حتى يسـبق الجموع . ومر فى طريقـه ببيت الأمة وكان كلما مر به تعلق به بصره وردد عينيـه بين الشرفة التاريخية والفنـاء الذى شهد أجل الذكريات الوطنية !. أجل فلهذا البيت مثل السحر فى نفسـه . فها هنا كان يقف سعد ، وها هنا كان يقف فهمى واقرانه ، وفى هـذا الطريق الذى يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقر فى صدور الشهداء . أن قومه فى حاجة دائمة الى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التى تترصد سبيل نهضتهم ، فى حاجة الى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضـد الأمراض الخبيثة ، والحق أن الاستبداد هو مرضهم المتوطن . هكذا نجح اشتراكه فى العيد الوطنى فى تجديد نفسـه فلم يكن يهمه فى تلك اللحظة الا أن تجيب مصر على تصريح هور اجابة حاسمة كالكلمة القاضـية . وانتصبت قامته النحيلة الطويلة ، وارتفع رأسه الكبير ، واشتد وقع خطاه وهو يتقدم أمام الجامعة الأمريكية متخيلا امورا جليلة وفعالا خطيرة . حتى المدرس ينبغى أن يثور أحيانا مع تلاميذه . وابتسم فيما يشبه الكآبة . مدرس كبير الرأس مقضى عليه بأن يعلم مبادىء الانجليزية ـ المبادىء فحسب ـ رغم انه يطلع بها على أسرار وأسرار . يحتل جسمه من مزدحم الأرض

موضعا ضـئيلا اما خياله فيضـطرب فى الدوامة التى تحيط بمغـالق الطبيعة . يسـأل فى الصباح عن معنى كلمـة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين . وفى الصباح أيضا يضطرم فؤاده بالثورة على الانجليز وفى الليـل تدعوه الأخوة العـامة المعذبة ـ اخوته لبنى الانسان ـ للتعاون أمام لغز القضـاء . وهز رأسه فى شيء من العنف كانما ليطـرد عنها هذه الخيـالات . وقد ترامت الى مسامعه اصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الاسـماعيلية فادرك أن المتظاهرين قد وصلوا الى شارع قصر العينى . ودعاه الشعور بالنضال الذى يعمر صدره الى التوقف لعله يشترك على نحو ما فى مظاهرة ١٣ نوفمبر . شد ما طال بالوطن موقف الصابر الذى يتلقى الضربات . اليوم توفيق نسيم وأمس اسماعيل صدقى وأول أمس محمـد محمود ، تلك السلسلة المشئومة من الطغاة التى تمتد الى ما قبل التاريخ . كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا انه الوصى المختار وان الشـعب قاصر .

مهلا !.. ان المظاهرة تغلى وتفور ، ولكن ما هذا ؟! . التفت كمال الى الوراء فى اضطراب . سمع صوتا اهتز له قلبه . وانصت فى انتباه فصك الصوت مسامعه مرة أخرى . انه الرصاص . ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون فى دوامة خطيرة لايتضح له أمرها ، ولكن جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان ، وآخرين الى الشوارع الجانبية ، وكثير من الكونسـتبلات الانجليز فوق الجياد ينهبون الأرض . وعلا الهتـاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتد انطلاق الرصاص . وخفق قلبه وتساءلت دقاته عن عبد المنعم وأحمد رضوان ، وامتـلأ اضطرابا وغضبا ، وتلفت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتجه اليها ـ وقد أغلق بابها نصف اغلاق ـ وما أن مرق منها حتى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرة ، وشاع الاضطراب فى كل مكان . وانطلق الرصاص فى غزارة مخيفة ثم متقطعـا . وترامت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل ، وعلت أصوات مزمجرة دلت على أن تجمعات ثائرة تنتقل من مكان الى مكان بسرعة خاطفة . ودخل المشرب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عما وراءه : « ان رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا » ثم جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدج : غدروا بالأبرياء غدرا ، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص فى

الهواء من مواقعهم البعيدة ، ولكنهم سايروا المظاهرة فيهدوء مصطنع ، وجعلوا يوزعون أنفسهم على مخارج الطريق ، وفجأة أشهروا المسدسات وأطلقوا الرصاص، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة ، وسقط الصغار يتخبطون فى دمهم ، الانجليز وحوش ولكن الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية ، انها مذبحة مدبرة يا الهى ! » . وجاء صوت من آخر المقهى يقول : « كان قلبى يحدثنى بأن اليوم لن يمضى على خير » . فأجاب آخر : « أيام تنذر بالشر . فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقع أحداثا خطيرة ، هذه معركة وستتلوها معارك ، أؤكد لكم هذا ! » .

ـ الضحايا هم الطلبة دائما ، أعز أبناء الأمة وأسفاه ! .

ـ ولكن الضرب سكت أليس كذلك ؟ ! ، أنصتوا . .

ـ المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة ، وسيستمر الضرب هنالك ساعات طويلة ! .

ولكن الصمت ساد الميدان . ومضى الوقت ثقيلا مشحونا بالتوتر : وأخذت الظلمة تدنو حتى أضيئت أنوار المقهى ثم لم يعد يسمع صوت كأنما حل بالميدان والشوارع المحيطة به الموت . وفتح باب المقهى على مصراعيه فتراءى الميدان خاليا من المارة والمركبات . ثم جاء طابور من فرسان البوليس ذوى الخوذات الفولاذية فطاف بالميدان يتقدمه الرؤساء الانجليز . وكان باطن كمال لا يكف عن التساؤل عن مصير الأبناء . ولما دبت الحركة فى الميدان مرة أخرى غادر المقهى متعجلا ، ولم يعد الى بيته حتى مر بالسكرية وقصر الشوق واطمأن على عبد المنعم وأحمد ورضوان .

وخلا الى نفسه فى مكتبته بقلب ملىء بالحزن والأسى والغضب . لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظل عقله غائبا فى منطقة بيت الأمة ، فى هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنى وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا . ووجد نفسه يحاول أن يتذكر اسم صاحب دكان البسبوسة التى اختبأ بها قديما ولكن الذاكرة لم تسعفه ! .

— ٥ —

كان منظر بيت محمـد عفت بالجمالية من المناظر المالوفة المحبوبة لدى أحمد عبدالجواد . هذه البوابة الخشبية التى تبدو من الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة ، وذلك السور العالى الذى يخفى ماوراءه خلا رءوس الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجميز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفـل والياسمين فشأنها عجيب ، وعجب أيضا بركة المياه التى تتوسطها ، ثم الفراندا الخشبية التى تمتد بعرض الحديقة . وكان محمدعفت واقفا على سلم الفراندا ينتظر القادم وهويحبك عباءته المنزلية ، أما على عبد الرحيم وابراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين . وسلم احمد على الاخوان ثم تبع محمـد عفت الى الـكنبة التى تتوسط الفراندا وجلسا معا . وكانت بدانتهم قد زايلتهم جميعا فيما عدا محمد عفت الذى بدا مترهلا كما بدا وجهه شديد الاحمـرار ، وقد صلع على عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شـيبا ، وانتشرت فى صفحات الوجوه التجاعيد ، وبدا على عبدالرحيم وابراهيم الفار أشد اذعانا للكبر، غير أن حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه ، وبقى أحمد رغم ضموره وشيبه جميلا صافيا. وكان أحمد يحب هذا المجلس حبا جما ، كما يحب منظر الحديقة التى تترامى حتى السور العـالى المشرف على الجمالية ، وقد مال برأسه الى الوراء قليلا كانما ليمكن انفـه العظيم من الارتواء بعبير الفل والياسمين والحناء ، وربما اغمض عينيه أحيانا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصـان التوت والجميز . غير أن انبل ما خالط قلبه فى تلك اللحظة كان شعور الاخوة والصداقة الذى يكنه لهؤلاء الرجال . كان يرنو بعينيه الزرقاوين الواسـعتين الى وجوههم الحبيبة التى نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسـه . وكان اشدهم تعلقا بالماضى وذكرياته ، يفتنه كل ما يذكر بجمال الشباب وصـبوة العواطف ومغامرات الفتوة . وقام ابراهيم الفـار الى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل :

ــ من يلاعبنى ؟.

فقال احمد مستنكرا وكان قليلا ما يشترك فى ألعابهم :
ــ أجل اللعب الى حين ، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة .

فأعاد الفار الصندوق الى مكانه ، ثم جاء نوبى بصينية عليها ثلاثة أقداح شاى وكأس ويسكى بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسما وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاى . وكان هذا التوزيع الذى يتكرر كل مساء كثيرا ما يضحكهم ؛ فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس فى يده ويشير الى أقداح الشاى فى أيديهم :

ــ عفا الله عن الأيام التى أدبتكم !.

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا :

ــ انها أدبتنا جميعا ، وأنت أولنا ، غير أنك قليل الأدب ..

وكان صدر اليهم أمر طبى واحد فى أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر ، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة فى اليوم ، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدد فيه طبيبه هو ، فما كان منه الا أن عرض نفسه عليه ولكن الطبيب حذره فى جد وحزم قائلا : « أن حالتك غير حالة صديقك » ، وقد افتضح أمر سعيه الى طبيب محمد عفت فكان موضع نقش وتعليق طويلين . وعاد أحمد يقول ضاحكا :

ــ لاشك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس !

فقال الفار متأوها وهو يرنو الى الكأس بيد محمد عفت :

ــ كدت والله أنسى نشوتها !.

فقال له على عبد الرحيم ممازحا :

ــ فسدت توبتك بهذا القول يا عربيد .

فاستغفر الفار ربه ثم تمتم فى استسلام :

ــ الحمد لله . .

وهز محمد عفت رأسه فى أسف قائلا :

ــ بتنا نحسد على كأس واحدة !. أين . . أين النشوات ؟! .

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكا :

ــ اذا ندمتم فاندموا على الشر لا على الخير يا أولاد الكلب !.

ــ انك كسائر الوعاظ ، ألسنتهم فى دنيا وقلوبهم فى دنيا أخرى . .

واذا بعلى عبد الرحيم يقول رافعا صوته الى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث :

ـ يا رجال !. ما رأيكم فى مصطفى النحاس ؟!. الرجل الذى لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانيــة واحدة مطلبه الأسمى « دستور سنة ١٩٢٣ » ..

ففرقع محمد عفت بأصابعه وقال فى سرور :

ـ براڤو .. براڤو !. انه أصلب من سـعد زغلول نفسه ، من كان يرى الملك الجبار مريضا باكيا ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النـادرة ويردد فى ثبات صوت الأمة التى أولته زعامتها قائلا : « دســتور سنة ١٩٢٣ أولا » ، وهكذا عاد الدستور ، فمن كان يتصور ذلك ؟ .

فقال ابراهيم الفار وهو يهز رأسه فى عجب :

ـ تصوروا هذا المنظر ، الملك فؤاد وقد حطمه المرض والشيخوخة ، يضع يده على كتف مصطفى النحاس فى مودة بالغــة ! . ثم يدعوه الى تأليف وزارة ائتلافية ، فلا يتأثر النحاس لذلك كله ، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين ، ولا يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذى توشك الدموع الملكية أن تغطى عليه ، لا يتأثر لشىء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة : دستور سنة ١٩٢٣ أولا يا مولاى ..

على عبد الرحيم محاكيا نفس اللهجة :

ـ أو الخازوق أولا يا مولاى !.

احمد عبد الجواد ضاحكا :

ـ قسما بمن جرت مقــاديره بأن نرى الويســكى بيننا ونتجنبه انه لموقف عظيم ! .

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال :

ـ نحن فى عام ١٩٣٥ ، ثمانى سنوات مرت على موت سعد ، وخمسة عشر عاما منذ الثورة ، ولايزال الانجليز فى كل مكان ، فى الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات ، الامتيازات الأجنبية التى تجعل من كل ابن لبؤة سيدا مهابا ما زالت قائمة ، ينبغى أن تنتهى هذه الحال المؤسفة ..

ـ ولاتنس الجلادين أمثال اسماعيل صدقى ومحمد محمود والأبراشى !.

ـ اذا ذهب الانجـليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شــأن ، ستصبح الانقلابات فى خبر كان ..

ـ نعم ، واذا فكر الملك فى أن يلعب بذيله فلن يجد من يسانده !.

وعاد محمد عفت يقول :

ـ سيجد الملك نفسه بين اثنتين فاما احترام الدستور واما السلام عليكم !.

فتساءل ابراهيم الفار فيما يشبه الشك :

ـ وهل يتخلى عنه الانجليز اذا طلب حمايتهم ؟

ـ اذا سلم الانجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك ؟ .

فتساءل الفار مرة أخرى :

ـ وهل يسلم الانجليز بالجلاء حقا ؟! .

فقال محمد عفت فى ثقة من يعتز بثقافته السياسية :

ـ لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات ، وكان الشهداء رحمة الله عليهم ، ثم كانت الدعوة الى الائتلاف ، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣ ، أؤكد لكم ان الانجليز راغبون الآن فى المفاوضة ، حقا أن الانسان لا يدرى كيف تنكشف هذه الغمة ، كيف يمكن أن يذهب الانجليز أو ينتهى نفوذ الخواجات ، ولكن ثقتنا فى مصطفى النحاس لا نهاية لها . .

ـ ثلاثة وخمسون عاما من الاحتلال تنتهى بشوية كلام حول مائدة ؟!.

ـ كلام قد سبق بدم زكي مسفوح . .

ـ ولو ! . . .

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه :

ـ سيجدون انفسهم فى مركز حرج وسط حالة دولية خطيرة ! .

ـ يستطيعون أن يجدوا دائما من يؤمن ظهرهم ، واسماعيل صدقى حى لم يمت ! .

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف :

ـ حادثت كثيرين من المطلعين فوجدتهم متفائلين ، يقولون ان العالم مهدد بحرب طاحنة ، وان مصر فى فوهة المدفع ، وأن من صالح الطرفين الاتفاق المشرف . .

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه فى ثقة واطمئنان :

ـ اليكم خبرا هاما ، وعدت بأن أرشح فى دائرة الجمالية فى الانتخابات القادمة ، وعدنى النقراشى نفسه .

وتهللت وجوه الأصـدقاء سرورا ، ثم لما جاء دور التعليق قال علي عبد الرحيم متصنعا الجد :
ـ لا يعيب الوفد الا انه يرشح حيوانات أحيانا باسم نواب !.
فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد :
ـ وماذا يفعل الوفد ؟. انه يريد أن يمثل الأمة كلها ، والأمة أبناء حلال وأبناء سفلة ، فمن يمثل أولاد السفلة الا الحيوانات ؟!.
فلكزه محمد عفت فى جنبه وهو يقول :
ـ عجوز وقارح ، أنت وجليلة شخص واحد ، كلاكما عجوز وقارح !.
ـ انى أرضى لو رشـحوا جليلة ، فهى عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسـه ! .
وهنا قال على عبد الرحيم باسما :
ـ قابلتها أول أمس أمام عطفتها ، ما زالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال ! .
فقال الفار :
ـ صارت معلمـة قد الدنيا ، بيتها شـغال ليل نهار ، ويموت الزمار وصباعه بيلعب .
فضحك علي عبد الرحيم طويلا ثم قال :
ـ كنت مارا أمام بيتها فرايت رجلا يتسلل اليه وهو يظن انه بمأمن من الرقباء ، فمن تظنونه كان ؟.. (ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبدالجواد) .. المحروس كمال افندى أحمد خوجة مدرسة السلحدار !.
ضـحك محمد عفت والفـار ضحكة عالية ، أما أحمد عبدالجواد فقد اتسعت عيناه دهشا وانزعاجا ، ثم تساءل فى ذهول :
ـ كمال ابني ؟! .
ـ أى نعم ، كان ملتفا فى معطفـه ، وعلى عينيه نظـارته الذهبية ، وشاربه الغليظ يختال وقارا ، كان يسير فى رزانة ومهابة كأنما ليس هو ابن « ضحكجى اغا » ، وبنفس الوقار انعطف الى البيت كأنمـا ينعطف الى الجامع الحرام ، فقلت له فى نفسى خفف الوطء يا بن المركوب !.
وعلا الضحك ، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة فى الضحك . وتساءل محمد عفت بلهجـة ذات مغزى وهو يحدق فى وجه أحمد :

ـ ما وجه العجب فى ذلك أليس هو ابن حضرتك ؟!.

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجبا :

ـ عرفته دائما مؤدبا مهذبا هادىء الطبع ، لا يرى الا فى مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الاغراق فى الانزواء والافراط فى عمل لا جدوى منه . .

فقال ابراهيم الفار مداعبا :

ـ من يدرى فلعل فى بيت جليلة فرعا من دار الكتب ! .

وقال على عبد الرحيم :

ـ أو لعله يعتزل فى مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الانسان أصله قرد ! .

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذى كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجد فى أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفا سهلا للمزاح والقفش ، ثم قال :

ـ لهذا لا يفكر الملعون فى الزواج حتى ظننت به الظنون !.

ـ ما عمر المحروس الآن ؟ .

ـ فى التاسعة والعشرين . . .

ـ يا سلام !. يجب أن تزوجه ، لماذا يرغب عن الزواج ؟.

تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول :

ـ هذه موضة جديدة ، الشبان الآن لا يتزوجون . . .

ـ ليست موضة فحسب ولكن بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعفت الثقة بهن ، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يغنى يا ما نشوف حاجات تجنن . البيه والهانم عند مزين ؟ .

ـ ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشبان ، ان خريجى الجامعة يتوظفون بعشرة جنيهات ان وجدوا وظيفة بطلوع الروح !

وتساءل أحمد عبد الجواد فى قلق بين :

ـ أخاف أن يعرف ان جليلة كانت يوما صاحبتى أو تعرف هى أنه ابنى !

فتساءل على عبد الرحيم ضاحكا :

ـ أحسبتها تستجوب الزبائن ؟!

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه :

ـ لو عرفته الفاجرة ، لقصت عليه قصة أبيه من الألف الى الياء !

فهتف احمد عبد الجواد وهو ينفخ :

ـ لا قدر الله ولا كان . .

فتساءل ابراهيم الفار :

ـ اتحسب أن الذى يستطيع أن يعرف أن جده الأول قرد يعجز عن معرفة أن أباه فاسق فاجر ؟!

فضحك محمد عفت عاليا حتى سعل ، وصمت لحظات ثم قال :

ـ الحق أن مظهر كمال خداع ، رزين هادىء متزمت ، خوجة بكل معنى الكلمة . .

فقال على عبد الرحيم بلهجة الترضية :

ـ يا سيدى ربنا يخليه ويطول عمره ، ومن شابه أباه فما ظلم .

فعاد محمد عفت يتساءل :

ـ المهم أهو « حلنج » كأبيه ؟.. اعنى هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهن ؟

فقال على عبد الرحيم :

ـ اما هذا فلا اظن !. يخيل الى انه يظل متقدما برزانته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب ، ثم يأخذ فى نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار ، ثم يرتمى عليها ، وهو فى الغاية من الجد والتجهم ، ثم يرتدى ملابسه ويذهب بعين الجد والرزانة كأنما كان يلقى درسا خطيرا !

ـ يخلق من ظهر الحلنج دهل !

وساءل احمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط : لماذا يبدو لى الأمر غريبا ؟!. وصمم على أن يتناسى الخبر . ولما رأى الفار يذهب الى صندوق النرد ويعود به ، قال دون تردد انه آن لهم أن يلعبوا . بيد أن أفكاره ظلت تدور حول الخبر الجديد . وقال لنفسه متعزيا أنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرسا محترما فله أن يفعل ما يشاء . ولعله من حسن التوفيق ان يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين !. ولو انصف الحظ لتزوج كمال منذ سنوات ، ولما تزوج ياسين ابدا ؛ ولكن من يدعى القدرة على حل هذه الرموز ؟!. واذا بالفار يسأله :

ـ متى رأيت زبيدة آخر مرة ؟

فاجاب احمد بعد تذكر :

- فى يناير الماضى ، أى منذ عام تقريبا ، يوم جاءتنى فى الدكان لابيع لها البيت . .

فقال ابراهيم الفار :

- اشترته جليلة ، ثم وقعت المجنونة فى حب عربجى كارو فتركها على الحديدة ، وهى الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العالمة فى حال من الاضمحلال يرثى لها !

فهز احمد عبد الجواد راسه فى أسف ، وتمتم :

- السلطانة فى حجرة فوق السطح !. سبحان من له الدوام . .

فقال على عبد الرحيم :

- نهاية محزنة ، بيد أنها كانت متوقعة . .

فندت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال :

- فليرحم الله من يأمن الى هذه الدنيا !

ثم دعا الفار الى اللعب فتحداه محمد عفت ، وسرعان ما التفوا جميعا حول النرد ، واحمد عبد الجواد يقول :

- ترى من يكون حظه كجليلة ، ومن يكون كزبيدة ؟ !

- ٦ -

فى احدى حجرات قهوة احمد عبده ، جلس كمال واسماعيل لطيف ، وهى نفس الحجرة التى كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوى فى مطلع شبابه . وبالرغم من برودة ديسمبر كان جو القهوة دافئا ، اذ انه باغلاق مدخلها يسد المنفذ الوحيد لها الى سطح الأرض ، فكان من الطبيعى أن تدفأ وان انتشرت الرطوبة فى جنباتها بدرجة محسوسة . ولم يكن اسماعيل لطيف ليرضى بالجلوس فى قهوة أحمد عبده ، لولا رغبته فى مجاراة كمال . انه الصديق القديم الذى لم تنقطع بكمال اسبابه ، رغم أن مطالب الرزق دفعت به الى طنطا خبيرا محاسبا مذ تخرج فى مدرسة التجارة ، فكان اذا عاد الى القاهرة فى اجازة اتصل به تليفونيا بمدرسة السلحدار ، ونال منه موعدا للقاء فى هذا الركن الأثرى . وجعل كمال

ينظر الى صديقه القديم ، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المدببة الحادة ، ويعجب لما آل اليه حاله من رزانة وأدب واستقامة ، جعلته مثالا طيبا للزوج والأب ، هذا الذى كان يوما مثالا فذا للقحة والاستهتار والفظاظة . وصب كمال الشاى الأخضر فى قدح صاحبه ثم فى قدحه ، وهو يقول باسما :

ــ يبدو أن قهوة أحمد عبده لا تعجبك ؟

فارتفع رأس اسماعيل فى تطاوله المعهود ، وقال :

ــ انها غريبة حقا ، ولكن لماذا لا نختار مكانا فوق سطح الأرض ؟!

ــ على اى حال هى انسب مكان للناس المستقيمين امثالك ؟

فضحك اسماعيل وهو يهز راسه فى تسليم ، كأنما يقر بانه اصبح جديرا حقا بفضيلة الاستقامة ، هو الذى كان وكان ، وعند ذلك سأله كمال مجاملا :

ــ كيف الحياة فى طنطا ؟

ــ عال ، أما النهار فعمل متواصل فى المصلحة ، وأما الليل فاقضيه مع زوجى واولادى .

ــ وكيف حال الأنجال ؟

ــ نحمده ، ان راحتهم دائما على حساب تعبنا ، ولكن نحمده فى جميع الأحوال ...

فسأله كمال مدفوعا بحب الاستطلاع الذى يثيره فى نفسه حديث الأسرة بصفة عامة :

ــ وهل وجدتهم حقا السعادة الحقيقية ، كما يقول العارفون ؟

ــ نعم ، انهم لكذلك ...

ــ رغم متاعبهم ؟

ــ رغم كل شىء !

وجعل كمال ينظر الى صاحبه بفضول أشد . هذا شخص جديد لا يكاد يمت بصلة الى اسماعيل لطيف الذى زامله فيما بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٧ ، تلك الفترة الفذة من حياته التى عاشها بكل جوارحه ، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد ، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة فى حسين شداد ، وعهد الحب الصادق متبلورا فى عائدة ، وعهد الحماسة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة ، ثم عهد

التجارب العنيفة التى قذف به اليها الشك والمجون والأهواء ، وقد كان اسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير ، ودليله الخطير ، فأين هو اليوم من ذاك ؟!. وعاد اسماعيل لطيف يقول فى شىء من التذمر :

— بيد أن هناك أمورا تشغل بالنا باستمرار ، كالكادر الجديد ووقف الترقيات والعلاوات ، وانت تعلم اننى تعودت على الحياة الرغيدة فى كنف أبى ، ولكن أبى لم يترك ميراثا ، ووالدتى بدورها تستهلك كل معاشها ، لذلك رضيت فى سبيل الرزق أن أعمل فى طنطا ، وهل كان مثلى يرضى بذلك ؟!

فضحك كمال قائلا :

— مثلك ما كان يرضى بشىء !

فابتسم اسماعيل فيما يشبه الزهو اعتزازا بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره . وسأله كمال :

— الا تنازعك نفسك الى معاودة شىء من الماضى ؟

— كلا شبعت من كل شىء ، وأستطيع أن أقول بأنى لم أضجر من حياتى الجديدة بعد ، كل المطلوب منى ان ابدى شيئا من المهارة بين حين وآخر ، حتى أفوز ببعض النقود من والدتى ، كذلك على زوجى أن تلعب نفس الدور مع أبيها ، اذ أنى لا زلت مغرما بالحياة الرغيدة . .

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكا :

— علمتنا وتركتنا وحدنا فى الطريق . .

فضحك اسماعيل ضحكة عالية اعادت الى وجهه الرزين كثيرا من ملامح الماضى الماكرة ، وقال :

— آآسف انت على ذلك ؟. كلا ؟ أنت تحب هذه الحياة باخلاص عجيب ، غير انك رجل معتدل ، انى فعلت فى سنوات لعبى القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك (ثم بلهجة جدية) : . تزوج وغير حياتك !

فقال كمال بلهجة عابثة :

— هذا أمر جدير بالتفكير !

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خلق اسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب ، على أى حال انه الصديق القديم الباقى ، أما حسين شداد فقد اختطفته فرنسا من وطنه ، وكذلك حسن سليم امسى الخارج مقامه ومعاشه ، لم يعد لهما من سبب فى القلب وا أسفاه ، ولم

يكن اسماعيل لطيف يوما صديق الروح ، ولكنه ذكرى حية من الماضي العجيب ، لذلك فهو خليق بأن يعتز به ، واعتز به أيضا لو فائه ، لا مسرة روحية في مصاحبته ، ولكنه آية حية على أن الماضي لم يكن خيالا ، ذلك الماضي الذي أحرص على اثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها ، ترى ماذا تصنع عايدة في هذه اللحظة من الزمان ؟. واين هي من عالم المكان ؟ . وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبها ؟ ! . كل اولئك أعاجيب .

- انى معجب يا سيد اسماعيل ، أنت شخص جدير بكل توفيق ..

والقى اسماعيل نظرة على ماحوله ، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحالمة والعاكفين على السمر واللعب ، ثم تساءل :

- ماذا يعجبك في هذه القهوة ؟

فلم يجبه كمال على سؤاله ، ولكنه قال بلهجة آسفة :

- اما علمت ؟!. سوف تهدم في القريب ليقام على انقاضها عمارة جديدة ، سيختفي هذا الأثر الى الأبد !

- مع ألف سلامة ، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

انطق بالحق ؟. ربما ، ولكن للقلب لواعجه ، يا قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي ، فيك حلمت كثيرا وفكرت كثيرا ، وفيك سكن ياسين أعواما ، واجتمع فهمي بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل ، ثم انى احبك لأنك مصنوعة من مادة الحلم ، ولكن ما جدوى هذا كله ؟. وما قيمة الحنين الى الماضي ؟. ربما ظل الماضي أفيونة أصحاب القلوب ، واشقى ما تصاب به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك ، فلنقل أى كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء .

- في هذا صدقت ، انى أقترح ان يهدموا الهرم اذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل !

- الهرم !. ما دخل الهرم في قهوة احمد عبده ؟!

- أعنى الآثار ، اعنى أن نهدم كل شيء في سبيل اليوم والغد ..

فضحك اسماعيل لطيف ، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديما كلما تحدى - ثم قال :

- احيانا تكتب كلاما يناقض هذا القول ، انى كما تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلة الفكر اكراما لك ، وسبق أن صارحتك برايي ، أى نعم ،

مقالاتك عسيرة ، المجلة كلها جافة والعياذ بالله ، لم أستطع المثابرة على اقتنائها لأن زوجتي لا تجد فيها شيئا يقرأ ، ولا تؤاخذني فهذا قولها !. أقول انى وجدت احيانا فيما تكتب نقيض ما تقول الآن ، ولكنى لا أزعم انى افهم كثيرا — وبينى وبينك ولا قليلا — مما تكتب ، وبهذه المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب المحبوبون ؟ . لو فعلت لوجدت جمهورا كبيرا ، ولربحت مالا وفيرا ...

فى زمن مضى كان يحتقر مثل هذا الراى فى عناد وثورة ، الآن لا زال يحتقره ولكن دون ثورة ، لكنه يشك فى هذا الاحتقار ، لا لشبهة فى انه فى غير موضعه ، ولكن لأنه يرتاب أحيانا فى قيمة ما يكتب ، وربما ارتاب فى ارتيابه نفسه ، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بانه قد ضاق بكل شيء ذرعا ، وأن الدنيا تبدو أحيانا كلفظة قديمة اندثر معناها.

— انك لم ترض يوما عن عقلى !

اسماعيل وهو يقهقه :

— أتذكر ؟ . يا لها من أيام !

أيام مضت ، لم تعد نيرانها تحرق ، لكنها مصونة فى موضعها كالجثة العزيزة ، أو كعلبة الملبس المستكنة فى مكانها منذ ليلة عائدة .

— الم يبلغك شيء عن حسين شداد او حسن سليم ؟!

رفع اسماعيل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

— ذكرتنى !. حدثت أمور فى العام الماضى الذى قضيته بعيدا عن القاهرة ...

ثم استطرد فى اهتمام متزايد :

— علمت حال عودتى من طنطا ان اسرة شداد انتهت :

تفجرت فى قلب كمال ثورة اهتمام طاغية ، وعانى كثيرا وهو يغالب آثارها الظاهرة ، ثم تساءل :

— ماذا تعنى ؟

— أخبرتنى والدتى أن شداد بك افلس ، التهمت البورصة آخر مليم فى حوزته ، انتهى شداد ، ثم انه لم يتحمل الصدمة فانتحر !

— يا له من خبر !. متى حدث ذلك ؟

— منذ أشهر ، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع ، ذلك القصر الذى عشنا فى حديقته زمنا لا ينسى ..

اى زمن ، واى قصر ، واى حديقة ، اى ذكريات ، اى الم نسى ، اى نسيان مؤلم ، الأسرة الرفيعة ، الرجل العظيم ، الحلم الكبير ، اليس هذا الجيشان اضخم مما ينبغى أن يستدعيه الحال ؟!. وهذه الخفقة التى تمخض عنها القلب اشد مما تستحق ذكريات عفى عليها النسيان ؟ .

قال كمال بصوت حزين :

ـ انتحر البك ، وضاع القصر ، ولكن ما مصير أهله ؟

قال اسماعيل فى امتعاض :

ـ لم يعد لأم صديقنا الا خمسة عشر جنيها شهريا من ريع وقف ، وقد انتقلت الى شقة متواضعة بالعباسية ، وقد زارتها والدتى فعادت تصف حالها وهى تبكى ، تلك السيدة التى تقلبت فى نعيم لا يتصوره الخيال ، الا تذكر ؟

يذكر ولا شك ، أم يظنه نسى ؟ . يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذى كان يترنم به الهواء ، ويذكر السرور والحزن ، بل انه الساعة حزين جقا ، ان الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية ، ولن يحق له أن يحزن بعد الساعة على قهوة احمد عبده التى يتهددها الزوال ، فكل شىء ينبغى أن ينقلب رأسا على عقب .

ـ انه لشىء محزن ، ومما يضاعف الحزن اننا لم نقم بواجب العزاء ، ترى ألم يعد حسين من فرنسا ؟

ـ لا شك انه عاد عقب الحادث ، كذلك حسن سليم وعايدة ، ولكن لا احد منهم فى مصر الآن .

ـ وكيف عاد حسين تاركا أسرته على حالها ؟ . ومن أين له أن ينفق بعد افلاس والده ؟

ـ سمعت انه تزوج هناك ، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملا فى أثناء اقامته الطويلة فى فرنسا ، لا أدرى شيئا عن هذا ، فانا لم أره منذ ودعناه معا ، كم مضى على ذلك ؟. عشرة أعوام على وجه التقريب . أليس كذلك ؟. انه تاريخ قديم ، كم أثار شجونى !

كم وكم ، اما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية ، انها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدأ ، وقلبه يقطر حزنا ، فيذكر بذلك القلب الذى اتخذ من الحزن شعارا ، ان هذا الخبر قد رجه رجا عنيفا حتى كاد ينفض عنه الحاضر كله ، ويكشف عن الانسان القديم

الذى كان حبا خالصا وحزنا خالصا ، أهذه هى نهاية الحلم القــديم ؟ الافلاس والانتحــار !. كأنما قضى بأن تؤدبه هــذه الأسرة بأدب الآلهة الساقطين !. الافلاس والانتحار ، واذا كانت عايدة لا تزال فى بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجهــا ، فماذا طرأ على كبريائها الملائكى ؟. وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة الى ...

ــ كان لحسين أخت صغيرة ، ما اسمها ؟. انى أذكره حينا وأنساه أحيانا كثيرة !

ــ بدور ، انها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة ..

تصور آل عايدة فى حياة متواضعة !. كحياة هؤلاء الناس حولنا ، فهل تمضى بدور يوما بجورب مرفو ؟. أو هل تتخذ من الترام مركبا ؟. أو تتزوج من موظف بمصلحة كذا ؟. ولكن ماذا يهمه من ذلك كله ؟. آه ... لا تغالط نفسك فانت اليوم حزين ، ومهما يكن لعقلك من رأى فى الطبقات وفوارقها ، فانك تشعر من جراء هذا الانقلاب بانهيار مخيف ، ويعز عليك أن تسمع بأن مثلك العليــا تتمرغ فى التراب ، فلتهنأ على أى حال بانه لم يبق من الحب شىء ، أجل .. ماذا بقى من الحب القديم ؟. اذا قال لا شىء فان قلبه يخفق فى حنان عجيب عند تردد أى أغنية من أغانى ذلك العهد ، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيهــا وأنغامها ، فما معنى ذلك ؟. لكن مهلا ، انها ذكرى الحب لا الحب نفسه ، ونحن نحب الحب فى جميع الأحوال ، خاصــة الأحوال التى لا حب فيها ، أما فى هــذه اللحظة فانى أشعر كأنى غريق فى بحر الهوى ، ذلك أن المرض الــكامن ينفث سمومه حين الضعف الطارىء ، وما الحيــلة ما دام الشك الذى زلزل الحقائق جميعا يقف عند الحب فى حذر ، لا لأنه شىء فوق الشك ، ولكن احتراما للحزن ، وحرصا على حقيقة الماضى .

وعاد اسماعيل الى المأساة سائقا كثيرا من التفاصيل ، حتى ضــاق بها فيما بدا ، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها :

ــ الدوام لله ، انه شىء مؤسف حقا ، ولكن حسبنا نكد ..

ولم يحاول كمال أن يدعوه الى مزيد . كان فيما قال الكفاية . الى نه وجد رغبة الى الصمت والتأمل . وكان يبكى بكاء صامتا بدموع غير نظورة يذرفها قلبه . وأدهشه ذلك بصفته مريضا قديما قد برىء من رضه . وقال لنفسه متعجبا : تسعة أعوام أو عشرة !. ما أطولها وما

اقصرها ، ترى ما صورة عايدة الآن ؟. كم يود ان يديم اليها النظر ليطلع على سر ذلك الماضي الساحر ، بل ليقف على سر نفسه . انه الآن لايراها الا لمحا خاطفا فى نغمة قديما معادة ، أو صـــورة فى اعلان صابون ، أو من سباته كالفزع وهو يهمس : هذه هى !. ولكن ما هى على الحقيقه قسمة من قسمات نجمـــة سينمائية ، أو ذكرى متسللة ، فيستيقظ والواقع ؟. ونبا به مجلســه ، فتاقت نفسه الى رحلة مغامرة فى دنيـــا الغيب ، فقال لاسماعيل :

- اتقبل دعوتى الى كأسين فى مكان لطيف مأمون ؟

فقهقه اسماعيل قائلا :

ـ ان زوجتى تنتظرنى لنذهب معا الى زيارة خالتها . .

ولم يكترث لرفض دعوته . طالما كانت نفسه نديمه . وغادرا المكان وهما يتبـــادلان الحديث ، اى حـــديث . وفيما بين ذلك قال كمـــال لنفســه : قد نضيق بالحب اذا وجد ، ولكن شد ما نفتقده اذا ذهب .

— ٧ —

مليح هذا المجلس . . غير ان اليد قصيرة ، من هذا الموضع الدافىء ترى الغادى والرائح . . من شارع فاروق واليه . . ومن الموسكى واليه . . ومن العتبة واليها ، ولولا برودة ينـــاير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة ، تاركا رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة فى الطوار المقابل ، ولكن سيأتى الربيع يوما . . اجل سيأتى غير أن اليد قصيرة ، ستة عشر عاما أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة ، دكان الحمزاوى يبعث بأبخس الأثمان . . وربع الغورية على ضخامته لا يدر الا جنيهات . . أما بيت قصر الشـــوق فمسكنى ومأواى ، واذا كان لرضوان جد غنى فكريمة لا عائل لها غيرى ، رب أسرة وعشيق ، ولكن للأسف اليد قصيرة .

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذى شارب مربع ونظارة ذهبية ، يخطر فى معطفه الأسود قادما من الموسكى متجها نحو العتبة ، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما يهم بالقيام ، ولكنه لم يفارق مجلسه . ولولا أن الشاب كان مسرعا لمضى اليه ودعاه الى مجالسته . كمال

خير سمير حين الضجر ، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين ، لم تعجلت الزواج قبل الأوان ؟. ولم وقعت فيه مرة اخرى قبل ان أفيق من لطسته الأولى ؟. ولكن منذا الذى لايشكو : أعزب كان أم متزوجا ؟. وكانت الأزبكية ملاذا ومتعة ، ثم حل بها البوار فهى اليوم بؤرة الحثالة والسفلة ، لم يبق لك من عالم المسرات الا لذة المشاهدة فى هذا المفرق من الطرق ، ثم الصيد الرخيص ، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات فى الأسر الأفرنجية .. فهى فى الغالب مهذبة المظهر نظيفة ، أما سيد مزاياها دون منازع فضعف الخلق ، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار .

كان قد فرغ من حسو قهوته ، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه الى ملتقى الطرق ، يتابع كل ذات حسن ، فتنطبع على عدسة عينه صور النسباء من ذوات المعاطف والملاءات اللف ، يراهم كلا وأجزاء فى مثابرة لا تعرف الكلال . كان يجلس أحيانا فيطول به الجلوس حتى العاشرة ، وفى أحيان أخرى ربما لم يطل به الجلوس الا ريثما يشرب قهوته ، ثم ينهض مسرعا فى اثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصا ، كأنه تاجر روبابكيا . ولكنه كان يقنع فى الغالب بالمشاهدة ، وربما تبع الحسناء دون مقصد جدى ، أما الاقدام الحق ، كان يصطاد خادما خليعة أو أرملة فوق الأربعين ، فكان يقع على فترات وفى حرص شديد . اذ أنه لم يعد الرجل الذى كان ، لا لأن الموارد قد ناءت بالأعباء فحسب ، ولكن لسن الأربعين التى نزلت به ضيفا دون دعوة أو استئذان . يا لها من حقيقة مرعبة !. « وشعرة بيضاء فى عارضى طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها ، وقال الحلاق ان أمر الشعرة هين ، ولكن الشيب لايلبث أن ينفجر . تبا لهما ، للحلاق وللشيب ، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولكنى لن ألجأ اليها ، بيد أن أبى بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة ، أين أنا من أبى ؟!. لا فى الشيب وحده ، كان شابا فى الأربعين ، وكان شابا فى الخمسين ، أما أنا !. رباه لم أفرط أكثر مما فرط أبى » . أرح رأسك من الأفكار بمشاهدة هذه المرأة ، أرح رأسك وأتعب قلبك ، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقا كما يرويها الرواة ؟. أين زنوبة من هذا كله ؟!. جانب من الزواج خدعة بنت كلب ، ولكن قوته فى أنك تحتضن الخدعة ما حييت ، وسوف تدول دول وتتقلب أزمان ، ولن يزال الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل

جاد فى اثرها ، الشباب لعنة ، والكهولة لعنات ، فأين راحة القلب أين ؟. واتعس ما فى الدنيا أن تتساءل يوما ذاهلا أين أنا !.

وغادر القهوة فى منتصف العاشرة ، فقطع العتبة متمهلا الى شارع محمد على ، ثم مال الى حانة « النجمة » ، وحيا « خالو » المائل وراء البار فى وقفته التقليدية ، فرد الرجل تحيته بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مثرمة ، ثم أشار بذقنه الى الحجرة الداخلية كأنما ليخبره بأن أصحابه فى الانتظار . وكان يمتد أمام البار دهليز ينتهى الى ثلاث حجرات متداخلة يضج جوها بالعربدة ، فمضى الى الأخيرة منها ، ولم يكن بها الا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطل على عطفة الماوردى ، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة فى الأركان ، خلت اثنتان واحدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهللين ، شأنهم كل مساء . كان ياسين — رغم شكواه — أصغرهم سنا ، أما اكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات ، يليه فى مجلسه باشكاتب بالأوقاف ، فرئيس المستخدمين بادارة الجامعة ، ثم محام من ذوى الأملاك غير مشتغل . كان الادمان يلوح فى سحنائهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب . وكانوا يتوافدون الى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلايفارقونها الا فى الهزيع الأخير من الليل ، يتجرعون أردأ أنواع الخمر واشدها مفعولا وارخصها ثمنا ، غير أن ياسين لم يكن يلازمهم من البداية الى النهاية ، أو لم يكن يفعل ذلك الا فى القليل النادر ، وفيما عدا ذلك فكان يمضى معهم ساعتين أو ثلاثا كيفما اتفق . وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلا :

— أهلا بالحاج ياسين ..

وكان يصر على وصفه بالحاج اكراما لاسمه المبارك ، أما المحامى وكان اشدهم ادمانا فقال :

— تأخرت يا بطل ، حتى قلنا لقد عثر فى امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلها ..

فعلق الأعزب العجوز على كلام المحامى متفلسفا :

— لا يفرق بين الرجل والرجل الا امرأة !.

فقال له ياسين مداعبا ، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف :

— لا خوف عليك من هذه الناحية ..

فقال العجوز وهو يرفع الكأس الى فيه :

ـ الا فى لحظات شيطانية ، فقد تستثيرنى بنت فى الرابعة عشرة ..

فقال الباشكاتب :

ـ الاسم لطوبة والفعل لأمشير !.

ـ لا افهم ما تقصد بهذا الكلام البارد .

ـ ولا أنا فاهم !.

وجاء خالو بالكأس والترمس ، فتناول ياسين الكأس وهو يقول :

ـ يناير هذا العام شايف كيفه .

فقال رئيس المستخدمين :

ـ لله فى خلقه شئون ، جاء يناير بالبرودة ولكنه ذهب بتوفيق نسيم الى غير رجعة !.

فصاح المحامى :

ـ انقذونا من السياسة ، ما زلنا نسكر ونمز بالسياسة حتى أخمدت انفاسنا ، شوفوا حكاية ثانية ..

فقال رئيس المستخدمين :

ـ حياتنا فى الواقع سياسة ولا شىء غير هذا ..

ـ أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة ، مالك انت والسياسة ؟.

فقال الرئيس محتدا :

ـ درجة سادسة قديم من فضلك ، من أيام سعد !.

فقال الأعزب العجوز :

ـ أنا درجتى السادسة من أيام مصطفى كامل ، لذلك احلت بها على المعاش اكراما لذكراه ... اسمعوا ، أليس الأفضل أن نسكر ونغنى ؟.

فقال ياسين وهو يهم بافراغ كأسه :

ـ لنسكر أولا يا والدى ..

لم يتمتع ياسين فى حياته بنعمة الصداقة العميقة ، ولكنه كان له فى كل مجلس ـ قهوة أو حانة ـ اصحاب ، وكان يألف بسرعة ويؤلف بأسرع من ذلك . ومنذ اتخذ هذه الحانة ـ تبعا لتطور حالته المادية ـ مجلسا ليليا مختارا عرف هذه الجماعة ، وتوثقت أسباب السمر بينهم ، غير انه لم يقابل احدا منهم فى الخارج ، ولم يسع الى ذلك . جمع بينهم الادمان والاسترخاص وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزا ، ولكنه كان كثير العيال ، أما

المحامي فقد جاء هذه الحانة جريا وراء سمعة خمرها القوية ، بعد أن لم تعد تؤثر فيه الخمور النظيفة الا في النادر ، ثم الفها واعتادها . وجعل ياسين يشرب ويثرثر ، قاذفا بنفسه فى دوامة العربدة التى تجتاح المكان وترتطم بأركانه . وكان العجوز الأعزب أحب أفراد الجماعة اليه ، ولم يكن يشبع من مداعبته خاصة فيما يتعلق بالرموز الجنسية ، فكان الرجل يحذره من الافراط ، ويذكره بمسئولياته العائلية ، فيقول له ياسين فى استهانة ومباهاة « نحن قوم خلقنا لهذا ، هكذا ابى ، وهكذا كان جدى من قبل » ، وأعاد هذا القول فى هذه السهرة ، فتساءل المحامى مازحا :

— وأمك ؟ . . أكانت كذلك أيضا ؟ . .

وضحكوا كثيرا ، وضحك ياسين ، غير ان قلبه غاص فى صدره متوجعا . وافرط فى الشراب . وخيل اليه رغم نشوته أنه يتدهور ، فلا المكان مكانه ، ولا الخمر خمره ، ولا اليوم يومه « وفى كل مكان يتغامزون على ، فاين أنا من أبى ؟ . ليس اتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك ، بيد أن رحمة الشراب واسعة ، تفيض عليك انسا ، انسا رقيقا وعزاء جميلا يهون عنده كل خطب ، فقل ما اعظم مسرتى ، لن يعود العقار الذى ضاع ، ولا الشباب الذى انقضى ، ولكن الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر ، رضفتها شابا يافعا ، وها هى تؤنس رجولتى ، وسوف يهتز لها طربا رأسى المجلل بالمشيب ، بذلك يفرح منى القلب رغم العناء ، وغدا عندما يستوى رضوان رجلا وتتهادى كريمة عروسا ، إشرب أنخاب السعادة فى العتبة الخضراء ، فما أعظم مسرتى » .

واذا بالجماعة تغنى « أسير العشق يا ما يشوف هوان » ثم غنت « يا جارة الوادى » فى جو صاخب واصوات معربدة ، فردد الغناء اقوام من سيائر الحجرات والدهليز . ثم ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدث عن استقالة توفيق نسيم ، ويتساءل عن المعاهدة التى تهدف الى حماية مصر من خطر ايطاليا ، ذلك الجار الثقيل القائم فى ليبيا ، فما كان من الجماعة الا أن رددت فى صوت واحد « ارخى الستارة اللى فى ريحنا . . أحسن جيرانا تجرحنا » ، ورغم افراط العجوز فى الشراب والعربدة ، فقد احتج على هذه الاجابة الماجنة ، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجد . فاجابوه فى صوت واحد مرددين « صحيح خصامك

والا هزار » فلم يسع الشيخ الا ان يضحك ، وأن يعود الى مشاركتهم بلا تحفظ .

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل ، فبلغ بيته فى قصر الشوق حوالى الواحدة صباحا . وكعادته كل ليلة جعل يمر بحجرات شقته كانما يقوم بجولة تفتيشية ، فوجد رضوان فى حجرته يذاكر ، وقد رفع الشاب رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة . وكان الحب بينهما عميقا ، كذلك الاحترام رغم أن رضوان كان يعلم أن والده لا يعود هذه الساعة الا ثملا . اما ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيما أعجاب ، كما يعجب بذكائه واجتهاده ، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذى سيرفع من شانه ، ويعز من كبريائه ، ويعزيه عن أمور كثيرة . ساله :

ـ كيف تجد دروسك ؟.

واشار الى نفسه كانما يقول له « نحن هنا » . فابتسم رضوان ، وابتسمت فيه عينا جدته هنية المكحولتين ، فعاد ابوه يسال :

ـ أأزعجك اذا أدرت الفونوغراف ؟.

ـ اما عنى فلا . ولكن الجيران نائمون فى هذه الساعة المتاخرة !.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئا :

ـ نوم العافية !.

ومر بحجرة نوم « الأولاد » فوجد كريمة تغط فى نومها على فراش صغير ، على حين بقى فراش رضوان فى الجانب الآخر من الحجرة خاليا ينتظر فراغه من مذاكرته . وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها ، ولكنه ذكر ما يصحب ايقاظها فى تلك الساعة من تذمر فعدل عن خاطرته . واتجه صوب حجرته . أجمل الليالى فى هذا البيت حقا هى ليلة الجمعة ، تلك العطلة المقدسة . فاذا عاد الى بيته ليلة الجمعة ـ بصرف النظر عن الساعة التى يعود فيها ـ فانه لا يتردد فى أن يدعو رضوان الى مجلسه بالصالة ، ثم يوقظ كريمة وزنوبة ، ويدير الفونوغراف ، ويمضى فى محادثتهم وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل . كان مغرما بأسرته ـ خاصة رضوان ـ أجل لم يكن يشغل نفسه ـ او لم يكن لديه الوقت ـ ليتابعهم برعايته وتوجيهه ، تاركا امرهم لعناية زنوبة وحكمتهم الفطرية !. ومهما يكن الأمر فانه لم يطق لحظة واحدة أن يمثل حيالهم الدور القاسى الذى مثله أبوه حياله ، وكره من صميم قلبه أن يخلق فى قلب رضوان شعور

الرهبة والخوف الذى كان يجده نحو أبيه !. والحق أنه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراده . وعند ما كان يجمعهم حوله بعد منتصف الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ ، وهو فى نشوة من الخمر والحب ، كان يمازحهم ويسامرهم ، وربما قص عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم فى الحانة ، غير عابىء بأثر ذلك فى الأنفس البريئة ، مستهينا باحتجاجات زنوبة التى تومىء بها اليه من وراء وراء ، فيبدو وكأنما قد نسى نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة .

وفى حجرته وجد زنوبة — كالعادة — نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أبدا ، فقبل أن يلج الحجرة يترامى اليه شخيرها ، حتى اذا توسطها تحركت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمدالله على السلامة». ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت فى صورتها الطبيعية أكبر من سنها ، وكثيرا ما ظنها تمالله سنا. ولكنها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره . تلك الغانية القديمة التى نجحت فى معاشرته فيما لم تنجح فيه سيدة من قبل ، فارست حياته الزوجية الى أساس متين . نعم لقد انتابت حياتهما فى أول الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنها بدت دائما حريصة على حياتها الزوجية كل الحرص. ومع الأيام صارت أما ، ومنيت بالثكل ، فلم يبق لها الاكريمة ، غير أن ذلك دعاها الى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجية ، خاصة بعد أن تهددها الذبول وناوأها الكبر المبكر. ثم علمتها الأيام أن تتحلى بالصبر والمهادنة ، وأن تتمرس بدور « السيدة » بكل معنى الكلمة ، وغالت فى ذلك الى حد أنها لم تكن تتبرج خارج بيتها حتى فازت أخيرا باحترام بين القصرين ، والسكرية الى حد ما !. وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة ، على الرغم من أنها لم تكن تجد نحوه حبا ، خاصة بعد أن ثكلت فى الذكر الوحيد الذى أنجبته لياسين . وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقتها ونظافتها ، وقد لاحظها ياسين باسما وهى تعيد ترتيب شعرها أمام المرآة ، ومع أنه كان يضيق بها أحيانا الى حد الضجر ، الا أنه كان يشعر بحق بأنها أصبحت شيئا ثمينا فى حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال . وجاءت بشال فتلفعت به وهى تقفقف من البرد ، وقالت متشكية :

— ما أشد البرد !. هلا رحمت نفسك من السهر فى الشتاء ؟ !

فقال ساخرا :

ــ الخمر تغير الفصول كما تعلمين ، لم تتعبين نفسك بالاستيقاظ ؟.

فنفخت قائلة :

ــ فعلك متعب وكلامك متعب !.

بدا في جلبابه كالمنطاد ، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو الى المرآة في إرتياح ، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان ، ثم ضحك فجأة قائلا :

ــ لو رايتنى وانا اتبادل التحية مع العساكر !. امسى عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزاء !.

فغمغمت وهي تتنهد :

ــ يا فرحتي !..

- ٨ -

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغورية بخطواته المتئدة ، مما يلفظ الأنظار حقا . كان في السابعة عشرة من عمره ، مكحول العينين ، متوسط القامة مع ميل خفيف الى الامتلاء ، أنيق الملبس الى حد التبرج ، ينتسب ببشرته الوردية الى آل عفت ، فهو يشع بهاء ونورا ، وتنم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله. وعند ما مر بالسكرية اتجه راسه اليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوه عمته خديجة وابنيها عبدالمنعم واحمد ، فوجد لذكرهما شعورا لا يخلو من فتور ، والحق انه لم يجد من نفسه مشجعا ــ ولو مرة ــ على أن يتخذ أحدا من أقربائه صديقا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وسرعان ما اجتاز بوابة المتولى ، ثم مال الى الدرب الأحمر ، حتى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر ، وفتح الباب عن وجه حلمى عزت ، صديق صباه ، وزميله اليوم بكلية الحقوق ، ومنافسه ــ فيما بدا ــ في الجمال . وتهلل وجه حلمى لرؤياه ، ثم تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء . ومضيا معا يصعدان السلم ، وفي اثناء ذلك جعل حلمى ينوه بربطة رقبة صديقه وتجاوب لونها مع قميصه وجوربه ، وكان يضرب بهما المثل في الأناقة وحسن الذوق، فضلا عن أن إهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو

دراسة القــانون . وانتهيا الى حجرة كبيرة عالية السقف ، دل وجود الفراش والمكتب بها على انها معدة للنوم والمذاكرة معا . والحق انهما طالما سهرا بها يذاكران ، ثم ناما جنبا الى جنب على الفراش الكبير ذى الأعمدة السوداء والناموســية . ولم يكن بيات رضوان خارج البيت بالشىء الجديد ، فقد اعتاد منذ صـــباه ان يدعى الى اكثر من بيت لقضاء عدة ايام ، كبيت جده محمد عفت بالجمالية ، او بيت امه بالمنيرة ، التى لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حســـن ، ولذلك ، ولميل ابيه الطبيعى الى اللامبالاة ، وترحيب زنوبة الخفى بكل ما يبعده عن بيتها ولو الى حين ، لم يجد معارضة فى البيات عند صــديقه فى مواسم المذاكرة ، ثم صار الأمر بعد ذلك مألوفا فلم يكن احد ليعيره اى اهتمام . وفى مثــل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمى عزت . توفى ابوه ــ وكان مأمور قسم ــ منــذ عشرة أعوام . وفى ذلك الوقت كانت اخواته الست قد تزوجن ، فعاش وحده مع أمه العجوز . ووجدت المرأة صعوبة من بادىء الأمر فى السيطرة عليه ، ثم ما لبث ان صار هو المســيطر على البيت كله . وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير ، وايجار الدور الأول من بيتها القديم ، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب ، ولكن حلمى لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكلية الحقوق ، محافظا فى اثناء ذلك كله على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام . وكان سرور حلمى بلقــاء صديقه لا يعادله سرور ، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة الا به ، لذلك بعث وجوده فى نفســه نشاطا وحماسة ، فأجلسه على الكنبة اللاصقة لباب المشربية وجلس الى جانبه ، وراح يفكر فى اختيار موضوع ــ وما أكثر المواضيع ــ لمحادثته ، غير ان نظرة واجمة لاحت فى عينى رضــوان اعترضت تيار حماســه ، فرنا اليه متسائلا ، ثم خمن ما هنالك فتمتم :

ــ زرت والدتك ؟. أراهن انك قادم من هناك . .

ادرك رضوان أن صدق تخمين صاحبه يرجع الى وجهه هو ، فلاح الضجر فى عينيه ، وهز رأسه بالايجاب دون أن يتكلم ، فسأله حلمى :

ــ وكيف حالها ؟

ــ عال . . .

ثم وهو يتنهد :

ــ ولكن هذا المدعو محمــد حسن ! ! ، إنت لم تعرف معنى أن يكون لامك زوج غير أبيك !

فقال حلمى مواسيا :

ــ كثيرا ما يقع هذا ، لا عيب فيه ، ثم انه شيء قديم !

فهتف رضوان حانقا :

ــ لا لا لا ، انه دائما فى البيت ، لا يبرحه الا الى عمــله فى الوزارة ، نفسى مرة ازورها فاجدها وحدها ، ويطيب له أن يمثل معى دور الوالد والمرشد ، سحقا له ، وعند كل مناسبة يذكرنى بانه رئيس أبى فى ادارة المحفوظات ، ولا يتردد عن انتقاد مسلكه فى عمله ، ولـكنى من ناحيتى لا أسكت له . .

وصمت دقيقة حتى يهدأ انفعاله ، ثم واصل حديثه :

ــ امى حمقاء اذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل ، ألم يكن الأفضل أن تعود الى ابى ؟

وكان حلمى يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة ، فقال باسما :

ــ فى العشق يا ما كنت أنوح !

فلوح رضوان بيده معاندا ، وهو يقول :

ــ ولو ! ، ان ذوق النســاء سر مخيف والأدهى من ذلك انهــا فيما يبدو راضية !

ــ لا تسع وراء ما ينغص صفوك . .

فقال رضوان فى نبرات حزينة :

ــ يا للعجب ، ان جانبا عريضا من حياتى ينضح بالتعاسة ، انى امقت زوج أمى ولا أحب امرأة أبى ، جو مشحون بالبغضاء ، أن ابى ــ كأمى ــ لم يحسن الاختيــار ، ولكن ماذا فى وســعى أن أفعل ؟ ! ، وامرأة ابى تحسن معاملتى ولكنى لا أتصور أنها تحبنى ، هذه الحياة ما ارذلها !

وجاءت خادم عجوز بالشــاى ، فتحلب ريق رضوان الذى عانى فى الطريق من رياح فبراير القاسية . وساد الصمت وهما يذيبان السكر . وتغير تعبير وجه رضوان فآذن ذلك بانهاء السيــرة المحزنة ، ورحب حلمى بذلك فقال فى ارتياح :

ــ تعودت المذاكرة معك ، فلا أدرى كيف اذاكر وحدى . .

فابتسم رضوان متجاوبا مع هذا الشعور الرقيق ، ولكنه سأله فجأة :

ـ هل اطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضة ؟

ـ نعم ، ولكن كثيرين يلغطون متشائمين بالجو الذى يحيط بالمفاوضة ، ويبدو أن ايطاليا ـ التى تهدد حدودنا ـ هى محور المفاوضة الحقيقى ، والانجليز من جانبهم يهددون فى حال فشل الاتفاق !

ـ ان دماء الشهداء لم تبرد بعد ، وعندنا دماء جديدة !

فهز حلمى راسه قائلا :

ـ هذا كلام يقال ، لقد سكت القتال وبدأ الكلام ، ما رأيك ؟

ـ على أى حال فان للوفد اغلبية ساحقة فى هيئة المفاوضة ، تصور انى سألت محمد حسن زوج أمى عن رأيه فى الموقف ، فقال لى ساخرا « أتتوهم حقا أن الانجليز يمكن ان يخرجوا من مصر ؟! » ، هذا هو الرجل الذى ارتضته أمى زوجا !

فضحك حلمى عزت عاليا وسأله :

ـ وهل يختلف رأى أبيك عن ذلك ؟

ـ ان أبى يكره الانجليز ، وحسبه ذلك !

ـ أيكرههم من صميم قلبه ؟

ـ ان أبى لا يكره ولا يحب شيئا من صميم قلبه !

ـ انى أسألك عن رأيك أنت ، فهل أنت مطمئن ؟

ـ لم لا ؟ ، حتى متى تبقى القضية معلقة ؟ ، اربعة وخمسون عاما من الاحتلال ، أف ، لست أنا التعيس وحدى !

فتناول حلمى عزت آخر رشفة من قدحه ، وقال باسما :

ـ يبدو لى انك كنت تحادثنى بهذه الحماسة عند ما وقعت عيناه عليك !

ـ من ؟

فابتسم حلمى ابتسامة غريبة ، وقال :

ـ كلما تحمست تورد وجهك وبرز جمالك فى أحسن أحواله ، وفى لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شك وأنت تحادثنى ، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة الى بيت الأمة داعين الى الاتحاد ، الا تذكر ذلك اليوم ؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول اخفاءه :

ـ نعم ، ولكن من هو ؟

- عبد الرحيم باشا عيسى !

فتفكر رضوان قليلا ثم تمتم :

- رأيته مرات عن بعد . .

- أما هو فقد رآك ذلك اليوم لأول مرة .

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام ، فعاد حلمى يقول :

- وعند ما قابلنى عقب انصرافك سألنى عنك ، وطلب الى أن أقدمك اليه فى أول فرصة !

وتبسم رضوان ثم قال :

- هات كل ما عندك .

فقال حلمى وهو يربت منكب صاحبه :

- دعانى وسألنى بخفته - على فكرة هو خفيف جدا - : « من المليح الذى كان يحدثك ؟ » فأجبته أنه زميل فى الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الخ . فسألنى باهتمام : « ومتى تقدمه الى ؟ » فسألته بدورى متجاهلا غرضه : « ولِمَ يا باشا ؟ » فانفجر قائلا كالغاضب - هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانا - : « لأعطيه درسا فى الديانة يابن الكلب » .

فضحكت بدورى حتى كتم فمى بيده . .

وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح فى الخارج ، وترامى صوت ارتطام ضلفة شباك بجدار ، ثم علا صوت رضوان وهو يتساءل :

- سمعت عنه كثيرا ، أهو كما يقال ؟

- وأكثر . . .

- لكنه عجوز !

فقال حلمى عزت وأساريره تنطق بالضحك دون صوت :

- هذا فى المرتبة الأخيرة من الأهمية ، انه رجل كبير المقام ، ظريف ، ذو نفوذ ، ولعل شيخوخته أجل فائدة من الشباب . .

فعاود رضوان الابتسام ، ثم تساءل :

- أين منزله ؟

- ڤيلا هادئة فى حلوان .

- آه ، تكتظ طبعا بالقاصدين من كافة الطبقات !

- سنكون ضمن مريديه ، لم لا ؟ ! ، انه من شيوخ الساسة ونحن من شبابهم !

فتساءل رضوان فى شىء من الحذر :

ــ وزوجه وأولاده ؟

ــ يا لك من جاهل ، انه أعــزب ، لم يتزوج قط ولا يحب هــذه السيرة ، كان وحيــد أبويه ، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنه مقطوع من شجرة ، واذا عرفته فلن تسلو عنه أبدا . .

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات ، حتى قال حلمى عزت فى شىء من الجزع :

ــ سلنى متى نذهب لزيارته من فضلك ؟

فقال رضوان وهو ينظر الى ثمالة الشاى فى قدحه :

ــ متى نذهب لزيارته ؟

— ٩ —

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية فى البســاطة والأناقة . فيلا سمراء مكونة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار . تكتنفه حديقة أزهار ، ويستهل بسلاملك . وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة فى صمت مريح . وكان يجلس على أريكة عند الباب البواب وسائق السيارة ، بواب نوبى بارع القسمات ممشوق القوام ، وسائق فى ريق الشــباب مورد الخدين . وهمس حلمى عزت فى أذن رضوان وهو يمد بصره نحو السلاملك :

ــ صدق الباشا فيما وعد ، فلا زائر اليوم غيرنا !

وكان حلمى عزت معروفا لدى البواب والسائق ، فوقفا لاستقباله فى أدب ، ولما داعبهما ممازحا انطلقــا يضحكان دون كلفــة . وكان الجو قارص البرودة رغم جفافه ، فدخلا بهو اســتقبال آية فى الفخــامة ، تتصدره صورة كبيرة لســعد زغلول فى بدلة التشريفة . ومال حلمى عزت الى مرآة ممتدة طولا حتى السقف تتوسط الجدار الأيمن ، فألقى على صورته نظرة متفحصة طويلة ، فلم يتردد رضــوان أن يلحق به ، وأن يمتحن منظره بنظرة مثلها ، حتى قال حلمى باسما :

ـ قمران يرتديان بدلة وطربوشـا ، واللى يعشـق جمـال النبى يصلى عليه !

وجلسا متجاورين على كنبة مذهبة ذات غطاء أزرق ومثير . ومرت دقائق ثم سمعت حركة آتية من وراء السـتار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد ، فاتجه ناحيتها راس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن تراءى الرجل فى بدلة سوداء أنيقة ، تنتشر بين يديه رائحة زكية ، وقد بدا داكن السمرة ، حليق الوجه ، نحيل الجسم ، مائلا الى الطول نوعا ، ذا قسمات دقيقة برأها الكبر ، وعينين صغيرتين ذابلتين ، أما طربوشه فقد مال الى الأمام حتى كاد يمس حاجبيه ، وكان يتقدم هادئا وقورا فى خطوات متقاربة وبطيئة معا ، فانعكس منـه الى قلب الشبـاب اجلال وطمأنينة . ولازم الصمت حتى وقف أمام الشـابين اللذين وقفا لاستقباله ، ثم تفحصهما بنظرة ثاقبـة ثبتت على رضوان طويلا حتى اختلج جفناه ، ثم ابتسم فجأة ، فشـاع فى الوجه القديم ايناس وجاذبية قربت المسافة التى تفصل بينه وبينهما حتى لم تعد شيئا . ومد حلمى يده فتناولها الآخر واستبقاها فى يده ، ثم مد بوزه وانتظر ، فأدرك حلمى غرضـه ، وسرعان ما عرض له خده فقبله ، ثم نظر صوب رضوان قائلا بصوت رقيق :

ـ لا تؤاخذنى يا بنى ، فهذه هى طريقة السلام عندى . . .

ومد رضوان يده فى حياء ، فتناولها الرجل وهو يتساءل ضاحكا :

ـ وخدك ؟

فتورد وجه رضوان ، وهتف حلمى مشيرا الى نفسه :

ـ المخابرة يا سعادة الباشا مع ولى الأمر !

فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة رضوان ، ثم دعاهما الى الجلوس وهو يجلس على مقعد كبير على كثب منهما ، وقال باسما :

ـ ولى أمرك هذا ملعون يا رضوان ، أليس هذا هو اسمك ؟ ، أهلا وسهلا ، لقد رأيتك فى صحبة هذا الولد الشقى ، فراقنى أدبك وتمنيت لقاءك ، وها أنت لم تضن على به . .

ـ انى سعيد بالتشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا .

فقال الرجل وهو يدير خاتما ذهبيا كبيرا فى بنصر يسراه :

ـ أستغفر الله يا بنى ، لا تستعمل عبارات التعظيم وألقاب التفخيم ،

انى لا احب شـيئا من هذا كله ، الذى يهمنى حقـا هو الروح اللطيف والنفس الصافية والاخلاص ، اما سعادة الباشا وسعادة البك فكلنا ابناء آدم وحواء ، الواقع لقد راقنى أدبك فوددت لو أدعوك الى بيتى ، فأهلا بك وسهلا ، أنت زميل حلمى فى كلية الحقوق ، أليس كذلك ؟

ـ نعم يا فندم ، اننا زملاء من عهد خليل أغا الابتدائية ..

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين فى اعجاب قائلا :

ـ زمالة صبا ! .. (ثم وهو يهز راسه) .. جميل ، جميل ، لعلك مثله من حى الحسين ؟

ـ نعم يا سيدى ، ولدت فى بيت جدى السيد محمد عفت بالجمالية ، واقيم الآن بمنزل والدى بقصر الشوق ..

فقال الرجل فى سرور بلغ حد النشوة :

ـ احياء مصر الأصيلة ، البقاع الطيبـة ، ما رايك لقد عشت فيهـا دهرا مع المرحوم أبى فى بيرجوان ، كنت وحيد أبوى ، وكنت عفريتا ، وطالما جمعت الصبيان فى شبه زفة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب الأرض ، ويا ويل الدنف لو رماه القدر الى طريقنا ، وكان أبى يثور غضبه فيجرى ورائى بالعصا ، .. قلت يابنى ان جدك هو محمد عفت ؟

فقال رضوان بفخار :

ـ نعم يا سيدى ..

فتفكر الباشا قليلا ثم قال :

ـ اذكر انى رايتـه مرة فى بيت نائب الجمالية ، رجل وجيه ووطنى صادق ، كاد يرشح نائبا فى الانتخابات القادمة لولا تنحيه فى آخر لحظة لصديقه النائب القديم ، ان الاتحاد الأخير أوجب الصداقة فى الانتخابات حتى يظفر اخواننا الأحرار الدستوريون ببعض المقاعد ، اذن انت زميل حلمى فى الحقوق ! . جميل ، القانون سـيد الدراسات ، وهو يتطلب لدراسته ذكاء لماعا ، أما عن المستقبل فما عليك الا الاجتهاد ! ..

وجد فى نبراته الأخيرة ما يوحى بالوعد والتشجيع ، فدب فى قلبـه الطموح والحماسة فقال :

ـ نحن لم نفشل ولا مرة واحدة فى حياتنا الدراسية ! ..

ـ براڤو ، هذا هو الأساس ، بعد ذلك تجىء النيـابة ثم القضـاء ، وسيوجد دائما من يفتح الأبواب المغلقة امام المجتهدين ، حياة القضاء شىء

عظيم ، عمـادها الذكاء اليقظ والضمير الحى ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين ، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة ، فالوطنيـة تحتم علينا احيانا أن نهجر أعمالنا المحبـوبة ، ولكن الى اليوم تجد من يضرب بنا المثل فى العـدالة والنزاهة ، فضع نصب عينيـك الاجتهاد والنزاهة وأنت حر بعد ذلك فى حياتك الخاصة ، قم بواجبك وافعل ما تشاء ، أما اذا قصرت فى الواجب فلن يرى فيك الناس الا النقائص ، الا ترى أنه لا يحلو لكثير من الفضوليين الا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانى ، وفلان الشاعر به الداء العلانى . حسن، ولكن ليس كل المصابين وزراء وشعراء ، فكن وزيرا أو شاعرا أولا وافعل بعد ذلك ما تشاء ، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . .

وهنا قال حلمى عزت بخبث :

ـ كفى المرء نبلا أن تعد معايبه ، أليس كذلك يا سعادة الباشا ؟ .

فثنى الرجل رأسه الى منكبه الأيمن ، وقال :

ـ طبعا ، سبحان من له الكمال وحده ، الانسان ضعيف جـداً يا رضوان ، ولكن عليه أن يكون قويا فى الجوانب الاخرى . مفهوم ؟ . لو تشأ أحدثك عن كبار الرجال فى الدولة ولن تجد واحدا خاليا من داء ، وسوف نتحادث طويلا ونتـدارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . .

فنظر حلمى الى رضوان قائلا :

ـ ألم أقل لك ان صداقة الباشا كنز لا يفنى ؟.

فقال عبد الرحيم عيسى موجها الخطاب الى رضـوان الذى لم تكد تتحول عنه عيناه :

ـ انى أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس ، وديدنى أن آخذ بيد الصـغير حتى يكبر ، وأى شىء فى الدنيـا خير من الحب ؟ . يجب اذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلها معا ، واذا فكرنا فى المستقبل أن نفكر معا ،. واذا نازعتنا أنفسنا الى الراحة أن نرتاح معـا ، ما وجدت رجلا حكيما مثل حسن بك عمـاد ، اليوم هو من رجال السلك السـياسى المعدودين ، ودعك من أنه من أعدائى السياسيين ، ولكنه كان اذا تفرغ لبحث قتله ، واذا طرب رقص عاريا ، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيما واسع . . الادراك ! . ألست واسع الادراك يا رضوان ؟ .

فأجاب عنه حلمى عزت من فوره :

ـ اذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه ! .

فاشرق وجه الباشا بابتسامة طفلية نمت عن رغبته التى لا حد لها فى المسرة ، وقال :

ـ هذا الولد عفريت يا رضوان ، ولكن ماحيلتى ؟. انه زميل صباك يا بخته ، ولست أنا القائل ان الطيور على أشكالها تقع ، لازم أنت أيضا عفريت ، خبرنى يارضوان من أنت ؟. هه ؟. انك تركتنى أتكلم بلا وعى وانت صامت كدهاة السياسة ، هه ؟. قل يارضوان ماذا تحب وماذا تكره ؟.

عند ذاك دخل الخادم حاملا صينية القهوة ، وكان فتى أمرد شبيها بالبواب والسائق ، فشربوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر ، وجعل الباشا يقول :

ـ الماء بالزهر شراب أهل الحسين ، أليس كذلك ؟ .

فغمغم رضوان باسما :

ـ نعم يا سيدى .

فقال الباشا وهو يهز رأسه طربا :

ـ يا أهل الحسين مدد ! .

وضحكوا جميعا ، حتى الخادم ابتسم وهو يغادر البهو ، واستطرد الباشا متسائلا :

ـ ماذا تحب ؟. وماذا تكره ؟. تكلم بصراحة يارضوان ، دعنى أيسر لك الجواب ، أأنت مهتم بالسياسة ؟.

فقال حلمى عزت :

ـ كلانا فى لجنة الطلبة . .

ـ هذا أول سبب للمقاربة بيننا ، وهل لك فى الأدب ؟.

فأجاب حلمى عزت :

ـ أنه مغرم بشوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فنهره الباشا قائلا :

ـ اسكت أنت ، اريد يا أخى أن أسمع صوته . .

فضحكوا ، وقال رضوان باسما :

ـ انى أموت فى شوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فقال الباشا باعجاب :

— « اموت فى » ، ياله من تعبير ، لا تسمعه الا فى الجمالية ، اهى نسبة الى الجمال يا رضوان ؟. اذن أنت من هواة « فضة ذهب » و « فى الليل لما خلى » و « من يكن » و « فنن يشنيله وفنن يحطه » ، الله .. الله ، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية ، وهل تحب الغناء ؟.

— انه من غواة ..

— اسكت أنت ..

فضحكوا مرة أخرى ، وقال رضوان :

— أم كلثوم .

— جميل ، لعلى من عشاق القديم ، ولكن الغناء كله جميل ، فانا احبه ثقيله وخفيفه كما يقول المعرى ، أو اموت فيه كما تقول حضرتك ، جميل جدا ، الليلة عجب ..

ودق جرس التليفون ، فنهض الباشا اليه ووضع السماعة على اذنه وهو يقول : آلو ! .

— اهلا اهلا معالى الباشا .

— .. ..

— وما وجه العجب فى ذلك ! . الا يجلس اسماعيل صدقى نفسه اليوم فى هيئة المفاوضات كزعيم من زعماء الوطن ؟ .

— .. ..

— أنا قلت رأيى للزعيم صراحة ، وهو رأى ماهر والنقراشى أيضا .

— .. ..

— آسف يا باشا ، لا أستطيع ، أنا لا أنسى أن الملك فؤاد هو الذى عارض فى ترقيتى يوما ، والملك فؤاد آخر من يتكلم فى الأخلاق ، وعلى أى حال سأقابلك غدا فى النادى ، سلام عليكم يا باشا ..

وعاد الرجل متجهم الوجه ، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلا :

— نعم يا سيد رضوان ، تعارفنا وما أجمل التعارف ، أنصحك بالاجتهاد ، أنصحك بألا تتخلى عن الواجب والمثل الأعلى ، بعد ذلك أحثك على الطرب والهناء ..

وهنا نظر رضوان فى ساعته ، فلاح الجزع فى وجه الباشا وقال :

— الا هذا ! ، الساعة عدو مجالس الأنس .

فتمتم رضوان فى شىء من الارتباك :

— ولكنا تأخرنا يا سعادة الباشا .

— تأخرنا ! . أتعنى أنه تأخر بى العمر ؟ ! . أخطأت يا بنى ، ما زلت أحب السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة ، السهرة لم تبدأ بعد ، لم نقل الا باسم الله الرحمن الرحيم ، لا تعترض ، السيارة تحت أمركما حتى الصباح ، وبلغنى أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة ، فلنذاكر ، لم لا ؟ . ما أحلى أن أعود الى المدخل فى القانون العام أو شىء من الشريعة ، بهذه المناسبة من يدرس لكم الشريعة ؟ . الشيخ ابراهيم نديم ، مساه الله بالخير ، انه كابتن عظيم ، لا تدهش ، سنؤرخ يوما لكل رجال العصر ، يجب أن تفهم كل شىء ، ليلتنا ليلة محبـــة وصداقة ، خبرنى يا حلمى ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة ؟ .

فقال حلمى باطمئنان :

— ويسكى وصودا وشواء .

فتساءل الباشا ضاحكا :

— وهل الشواء شراب يا شقى ؟ .

— ١٠ —

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لايكاد يتغير . وهكذا جمعت الصـــالة بين الأب ابراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد ، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة دون عمل فقد جلست بينهم وهى تطرز غطاء مائدة . وقد بدا الكبر أخيرا على ابراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة ، فشاب شعره وترهل بعض الشىء ، وإن حافظ فيما عدا ذلك على صحة يحسد عليها . وكان يدخن سيجارة ، ويأخذ مكانه بين ابنيه فى هدوء وطمأنينة ، تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليدية ، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث ، فيما بينهما حينا أو مع الأب أو الأم التى شاركت فى الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها ، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم . لم يعد فى الجو ماينغص على خديجة صفوها ، اذ لم يبق من ينازعها السيادة على بيتها مذ توفيت

حماتها . كانت تقوم بواجباتها بهمة لاتخذلها أبداً ، وترعى سمانتها بعناية فائقة وهى جوهر جمالها كله ، وتحاول فرض رعايتها على الجميع ، الأب والابنين ، فيطاوع الرجل ، وأما عبدالمنعم واحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيذين بحبها من سطوتها . وقد نجحت منذ سنوات فى حمل زوجها على احترام تقاليد الدين ، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما ، وكان عبد المنعم واحمد قد شبا على ذلك من قبل ، غير أن احمد توقف عن اداء الفريضة منذ عامين ، وجعل يتهرب من استجواب أمه كلما استجوبته أو يتعلل بعذر أو بآخر . وكان ابراهيم شوكت يحب ابنيه حبا جما ، ويعجب بهما أشد الاعجاب ، وينوه فى كل فرصة بنجاحهما المتواصل الذى بلغ بعبدالمنعم كلية الحقوق وباحمد نهاية المرحلة الثانوية ، وفى ذلك كانت خديجة تقول فى مباهاة :

ــ كل هذا ثمرة اهتمامى أنا ، لو ترك الأمر لك ما فلح احدهما ولا كان له شأن . .

وقد ثبت اخيرا انها نسيت مبادىء القراءة والكتابة لعدم الاستعمال مما جعلها هدفا لسخرية ابراهيم ، حتى اقترح ابناها أن يذكراها بما نسيت ردا لجميلها الذى تباهى به ، فغضبت قليلا وضحكت كثيراً ، ثم لخصت الحال فى كلمة قائلة :

ــ لا حاجة بامرأة الى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام !

بدت فى أسرتها سعيدة راضية ، ولعل شهية عبدالمنعم واحمد لم تكن تعجبها كثيرا ، كما أن نحافتهما كانت تغيظها ، فقالت باستياء :

ــ قلت ألف مرة انه يجب أن تغيرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيتكما ، يجب أن تأكلا جيدا ، الا تريان أباكما كيف يأكل ؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما ، فقال الرجل :

ــ ولماذا لا تضربين المثل بنفسك ، وأنت تأكلين كالطاحونة ؟

فقالت باسمة :

ــ انى أترك لهما الحكم والخيار .

فقال ابراهيم محتجا :

ــ عينك يا شيخة ! ، أصابتنى ، لذلك نصحنى الدكتور بأن أخلع أسنانى ...

فلاحت فى عينيها نظرة رقيقة ، وقالت :

ــ لا تجزع ، ستذهب بشرها ، ولن تشكو ألما بعد ذلك ان شاء الله . .

وهنا خاطبها أحمد قائلا :

ــ جارنا الساكن فى الدور الثانى يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم ، قابلنى على السلم فرجانى فى ذلك !

فسألته وهى تنظر اليه مقطبة :

ــ وماذا قلت له ؟

ــ وعدته بأن أحدث أبى .

ــ وهل حدثت أباك ؟

ــ ها أنا أحدثك أنت !

ــ اننا لا نشاركه فى شقته فلا يجوز له أن يشاركنا فى رزقنا ، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأول ، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيما لا يعنيك . .

فنظر أحمد الى أبيه متسائلا :

ــ ما رأيك يا بابا ؟

فابتسم ابراهيم شوكت قائلا :

ــ فى عرضك لا تصدع دماغى ، عندك أمك . . .

فعاد أحمد الى أمه قائلا :

ــ اذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع . .

فقالت خديجة بامتعاض :

ــ لقد حدثتنى زوجه وأجلت لها الدفع فليرتح بالك ، ولكنى أفهمتها ان أجرة المسكن واجبة كمصروف الاكل والشرب ، أفى ذلك خطأ ؟ ، انى الام أحيانا لأنى لم أتخذ من جاراتى صديقات ، ولكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة . .

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه :

ــ وهل نحن خير من الناس ؟

فعبست خديجة قائلة :

ــ نعم ، الا اذا كان لك فى نفسك رأى آخر !

فقال عبد المنعم :

ــ رأيه فى نفسه انه خير الناس جميعا ، لا رأى الا رأيه ، والحكمة

موقوفة على راسه !

فقالت خديجة متهكمة :

ـ ومن رايه أيضا أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها !

فقال عبد المنعم ضاحكا :

ـ انه غير مقتنع بانه من حق بعض النـاس ان يملكوا بيـوتا على الاطلاق . .

فقالت خديجة وهى تهز راسها :

ـ يا عينى على الراى الفقرى . .

وحدج احمد اخاه بنظرة غاضبة ، فهز عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول :

ـ راجع نفسك قبل ان تغضب . .

فقال احمد محتجا :

ـ يحسن بنا الا نتناقش معا !

ـ بل أنتظر حتى تكبر . .

ـ انك أكبر منى بعام لا أكثر . .

ـ أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة . .

ـ هذا المثل لا أومن به !

ـ اسمع ، لا يهمنى الا شيء واحد ، هو أن تعود الى الصلاة معى . .

فهزت خديجة رأسها بأسف وهى تقول :

ـ صدق أخوك ، النـاس تكبر تعقل أما أنت فاعوذ بالله منك ، حتى ابوك صـلى وصام ، فكيف فعلت بنفســك ما فعلت ؟ ، انى اتساءل ليـل نهار !

فقال عبد المنعم بصوت قوى شديد الثقة بنفسه :

ـ بالصراحة ان راسه يحتاج الى تطهير من الداخل . .

ـ انه . . .

ـ اسمعى ، هذا الشاب لا دين له ، هذا ما بت أعتقده . .

فلوح أحمد بيده كالغاضب ، وهتف متسائلا :

ـ من أين لك الحق فى الحكم على القلوب ؟

ـ الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يدارى ابتسامة) يا عدو الله !

فقال ابراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته :

- لا تتهم أخاك ظلما .

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهى تلحظ أحمد :

- لا تسلب أخاك أعز ما يملك الانســان ، كيف لا يكون مؤمنا ؟ ! ، ان آل أمه لا تنقصهم الا العمــائم ليكونوا من رجال الدين ، وكان جده من صميم رجال الدين ، لقد نشــأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبدون كأننا فى جامع !

فقال أحمد متهكما :

- مثل خالى ياسين . . !

وندت عن ابراهيم شوكت ضحكة ، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب

- تكلم عن خالك بأدب ، ماله ؟ ، قلبه عامر بالايمان ، وربنا يهديه ، انظر الى جدك وجدتك . .

- وخالى كمال ؟

- خالك كمال من محاسيب الحسين ، أنت لا تدرى شيئا .

- بعض الناس لا يدرون شيئا . .

فسأله عبد المنعم محتدا :

- لو كان الناس جميعا مهملين فى دينهم ، فهل يشفع لك ذلك ؟

فقال أحمد فى هدوء :

- على أى حال اطمئن ، فلن تؤخذ يوما بذنبى !

وهنا قال ابراهيم شوكت :

- كفاكما خصاما ، نفسى أراكما كرضوان ابن خالكما . .

فحدجته خديجة بنظرة اســتياء ، كأنما عز عليها أن يعد رضــوان خيرا من ابنيها ، فقال ابراهيم موضحا رأيه :

- هذا الشــاب على صلة بكبار الســاسة ، شاب ذكى ، وقد ضمن بذلك مستقبلا باهرا . .

فقالت خديجة غاضبة :

- لست من رأيك ، رضوان شاب سيىء الحظ ، ككل شاب يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه ، وزنوبة « هانم » لا تهتم فى الواقع بأمره ، أنا لاأنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الانجليز ، لذلك لايقر للمسكين قرار ، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته ، أما صلته بالكبراء فلا

معنى لها ، انه طالب مع عبد المنعم فى سنة واحدة ، فما معنى هذا التداخل الخطير ؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال . .

فرمقها ابراهيم بنظرة كأنما يقول لها : « لايمكن أن تغرينى على رأى » ، ثم قال مواصلا ايضاح رأيه :

— ليس الشبان اليوم كما كانوا فى الزمن الماضى ، السياسة غيرت كل شىء ، فكل كبير له مريدوه منهم ، والطموح الذى يريد أن يشق سبيله فى الحياة لابد له من كبير يرجع اليه ، ان مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء !

فقالت خديجة بكبرياء :

— أبى يسعى الناس الى التعرف به ولا يسعى هو الى احد ، اما عن السياسة فابنائى لا شان لهم بها ، لو أتيح لهما ان يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسهما معنى كلامى ، بين يحيا فلان ويسقط علان يهلك أبناء الناس ، ولو عاش المرحوم فهمى لكان من أكبر القضاة اليوم . .

فقال عبد المنعم :

— لكل طريقته ، نحن لانقلد أحدا ، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا . .

فقالت خديجة :

— احسنت !

وقال له أبوه باسما :

— أنت كأمك ، وكلاكما لا تساويان شيئا . .

ودق الباب ، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة الساكنة فى الدور الأول ، فقالت خديجة وهى تهم بالقيام :

— ماذا تريد يا ترى ؟ . . ان كان فى الأمر تأجيل دفع اجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية . . !

- ١١ -

كان الموسكى شديد الزحام ، اكتظ باهله وما اكثرهم فضلا عما استجد عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبـة . وكانت شمس ابريل الصافية تقذف لهبا ، فشق عبد المنعم واحمد سبيلهما فى جهد غير يسير وهما يتصببان عرقا . وقال احمد وهو يتأبط ذراع أخيه :

ـ حدثنى عن شعورك . .

فتفكر عبد المنعم قليلا ، ثم راح يقول :

ـ لا أدرى ، الموت رهيب ، فما بالك بموت ملك ، وكان طريق الجنازة مكتظا بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم اشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنازتين ، ولكن يبدو لى أن أكثر الناس كان متأثرا على نحو ما ، وبعض النساء بكين ، نحن المصريين قوم عاطفيون . .

ـ لكنى أسألك عن شعورك أنت ؟ .

فعاد عبد المنعم يفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس ، ثم قال :

ـ لم اكن أحبه ، هذا اعتنقنـاه جميعا ، فأنا لم أحزن ، ولكننى لم أسر كذلك ، تابعت النعش بعين من لا قلب له ، لا له ولا عليه ، غير أن فكرة الجبار فى النعش أثرت فى ، لا يمكن أن يمر منظر كهذا دون أن يؤثر فى ، لله الملك جميعا ، هو الحى الباقى فليت الناس يعلمون ، غير أنه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التى كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون جدا ، وأنت ما شعورك ؟ .

فقال أحمد باسما :

ـ أنا لا أحب الطغاة أيا كانت الحالة السياسية ! .

ـ هذا حسن ، ولكن منظر الموت ؟ .

ـ ولا أحب الرومانتيكية المريضة ! .

فتساءل عبد المنعم فى ضجر :

ـ أسررت اذن ؟ .

ـ تمنيت أن يمتد بى العمر حتى أرى العالم وقد خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم . . .

وسكتا قليلا وكان التعب قد نال منهما كل منال ، ثم عاد أحمد يتساءل :

ـ وماذا عما بعد ذلك ؟ .

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التى اشتهر بها :

ـ فاروق غلام ، ليس له دهاء ابيه ولا ناب الأزرق ، فاذا سارت الأمور سيرا حسنا ، فنجحت المفاوضات ، وعاد الوفد الى الحكم ، فسوف تستقر الأمور وينقضى عهد المؤامرات ،.. المستقبل حسن فيما يبدو..

ـ والانجليز ؟ .

ـ اذا نجحت المفاوضات انقلب الانجليز اصدقاء ، وبالتالى ينقطع التحالف القائم بين السراى والانجليز ضد الشعب ، فلا يجد الملك بدا من احترام الدستور ...

ـ الوفد خير من غيره ...

ـ بلا شك ، انه لم يحكم طويلا حتى يعرف مدى قدرته ، وقريبا تكشف التجربة عن امكانياته الحقيقية ، انى أوافقك على أنه خير من غيره ، ولكن طموحنا لن يقف عنده ! .

ـ طبعا ، انى أومن بأن حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطور أعظم ، هذا كل ما هنالك ، ولكن هل نتفق مع الانجليز حقا ؟ .

ـ اما الاتفاق واما العودة الى عهد صدقى ، فى امتنا احتياطى من الخونة لا ينفد ، كل مهمته دائما تأديب الوفد اذا قال للانجليز « لا » ، وانهم لفى الانتظار وان انضموا اليوم الى صفوف الأمة ، صدقى ومحمد محمود وغيرهما فى الانتظار ، هذه هى المأساة ...

وعند ما بلغا السكة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدهما أحمد عبد الجواد الذى كان متجها صوب الصاغة ، فتقدما اليه ، وسلما عليه باجلال ، فسألهما باسما :

ـ من اين والى أين ؟ .

فقال عبد المنعم :

ـ كنا نتفرج على جنازة الملك فؤاد ...

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

ـ سعيكم مشكور ! .

ثم صافحهما ومضى كل الى حال سبيله . واتبعه احمد نظره قليلا ، ثم قال :

ـ جدنا ظريف وانيق ، لقد ملأ انفى شذا طيبا . . .

ـ نينة تروى عن جبروته الأعاجيب . . .

ـ لا اظنه جبارا ، هذا شيء لا يصدق .

فضحك عبد المنعم قائلا :

ـ ان الملك فؤاد نفسه بدا فى أواخر عهده لطيفا طيبا . . .

وضحكا معا . ومضيا الى قهوة احمد عبده . وفى الحجرة المواجهة للنافورة راى احمد شيخا مرسل اللحية حاد البصر يتوسط جمعا من الشبان يتطلعون اليه فى اهتمام ، فتوقف وهو يقول لأخيه :

ـ الشيخ على المنوفى صديقك ، اخرجت الأرض اثقالها ، ينبغى أن اتركك هنا . . .

فقال له عبد المنعم :

ـ تعال اجلس معنا ، احب أن تجالسه وتسمع له ، ناقشبه كيفما شئت ، كثير ممن حوله من طلبة الجامعة . .

فقال احمد وهو يخلص ذراعه من ذراع اخيه :

ـ لا يا عم ، كدت مرة اشتبك معه فى عراك ، انا لا أحب المتعصبين ، مع السلامة . . .

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد ، ثم قال بحدة :

ـ مع السلامة ، ربنا يهديك . .

واقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية ، فنهض الرجل لاستقباله ـ وقد نهض معه جميع الجلوس حوله ـ وتعانقا ، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحصا عبد المنعم بعينيه الحادتين :

ـ لم نرك أمس ؟ .

ـ المذاكرة . . .

ـ الاجتهاد عذر مقبول ، ومال اخيك قد تركك وذهب ؟ .

فابتسم عبد المنعم ولم يجب ، فقال الشيخ على المنوفى :

ـ ربنا الهادى ، لاتعجبوا له ، لقد صادف مرشدنا كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشد المخلصين لدعوته ، ذلك أن الله اذا أراد لقوم هداية فلن

يكون للشيطان عليهم من سلطان ، ونحن جنود الله ، ننشر نوره ونحارب عدوه ، وهبنا أرواحنا له من دون الناس ، فما أسعدكم جنود الله . . .

وقال أحد الجالسين :

ــ ولكن مملكة الشيطان كبيرة !

فقال الشيخ على المنوفى معاتبا :

ــ انظروا الى من يخاف دنيا الشيطان والله معه !. ماذا نقول له ؟. نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف ؟. من من جنود الأرض يتمتع بقوتكم ؟. واى سلاح أحد من سلاحكم ؟. الانجليز والفرنسيون والألمان والطليان جل اعتمادهم على الحضارة المادية ، اما أنتم فاعتمادكم على الايمان الصادق ،ان الايمان يفل الحديد ، الايمان أقوى قوة فى العالم ، املأوا قلوبكم الطاهرة بالايمان تخلص الدنيا لكم . . .

فقال آخر :

ــ نحن مؤمنون ، ولكننا أمة ضعيفة .

فكور الشيخ قبضته وشد عليها وهو يهتف :

ــ اذا كنت تستشعر ضعفا فايمانك يعتوره نقص وانت لا تدرى ، الايمان خالق القوة وباعثها ، ان القنابل تصنعها ايد كأيدينا وهى ثمرة القوة قبل أن تكون من مسبباتها ، كيف انتصر النبى على أهل الجزيرة ؟. وكيف قهر العرب العالم كله ؟ .

فقال عبد المنعم بحماسة :

ــ الايمان . . الايمان . .

غير أن صوتا رابعا تساءل :

ــ ولكن كيف كان للانجليز هذه القوة وهم قوم غير مؤمنين ؟.

فابتسم الشيخ متخللا لحيته باصابعه وهو يقول :

ــ لكل قوى ايمانه ، انهم يؤمنون بالوطن وبالمصلحة ، أما الايمان بالله فهو فوق كل شىء ، واحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا ، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها ، يجب أن يبعث الاسلام كما بعث أول مرة ، نحن مسلمون اسما فيجب أن نكون مسلمين فعلا ، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلة علينا ، فلنعد الى الكتاب ، هذا هو شعارنا ، العودة الى

القرآن ، بذلك نادى المرشد فى الاسماعيلية ، ومن ساعتها ودعوته تسرى فى الأرواح ، غازية القرى والدساكر حتى تملأ القلوب جميعا ...

ـ ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة ؟.

ـ الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة ، ان الله أرحم من أن يترك اخطر امور الانسانية دون تشريع وتوجيه ، وهذا فى الواقع هو درسنا الليلة ...

كان الشيخ شديد الحماسة ، وكانت طريقته أن يقرر حقيقة ما ، ثم تدور حولها المناقشة ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه ، يقوم اكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث . وكان يتحدث وكأنه يخطب ، أو كأنه يخطب الجالسين فى القهوة جميعا ، فسمعه أحمد وهو جالس فى اقصى المكان ، يحتسى الشاى الأخضر ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة . وكان يقيس الشقة بينه وبين هذه المجموعة المتحمسة فى عجب ، ويجد نحوها ازدراء وغضبا . وثار به التحدى مرة فهم بأن يطلب من الشيخ ان يخفض من صوته حتى لايعكر على رواد القهوة صفاء راحتهم ، ولكنه عدل عما هم به فى اللحظة التى تذكر وجود أخيه بينهم . وأخيرا لم يجد بدا من مغادرة القهوة ، فقام ساخطا وغادرها ...

— ١٢ —

عاد عبد المنعم الى السكرية حوالى الثامنة مساء . وكان الجو قد سكت حنقه فمال الى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع . كان الدرس ما يزال يكبر فى راسه ويتردد فى قلبه ، ولكن اعياه الجهد والفكر . وعبر حوش البيت فى ظلام دامس ثم اتجه الى السلم ، وفى تلك اللحظة فتح باب الدور الأول ، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقة رأى شبحا يتسلل الى الخارج ثم أغلق الباب وراءه وسبقه الى السلم . وخفق قلبه وجرى دمه حارا كحشرة هيجها القيظ . رآها فى الظلام تنتظر عند أول بسطة وتتطلع نحوه فتطلع نحوها ، ولم يتحول عنها رأسه . وعجب كيف يستغفل الصغار الكبار ، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجة زيارة الجيران ، وسوف تزور الجيران ، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق

بسطة السلم المستكنة فى الظلام . ولتوه وجد رأسه فارغا ، تبخر ماكان يصطرع فيه من أفكار ويتطاير ، وتركز هو فى رغبة واحدة هى أن يشبع النهم الذى بات يؤرق أعصابه وأعضاءه . أما ذلك الايمان الصادق فيبدو انه ولى غاضبا ، أو غاص فى الأعماق يدمدم حانقا ولكن صوته ضاع فى ازيز النار المستعرة . أليست هى فتاته ؟. بلى ، تشهد بذلك حنايا الحوش وبئر السلم وركن السطح المطل على السكرية . وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقى به فى اللحظة المناسبة ، كل هذا العناء من اجله هو !. ومضى متعجلا حذرا حتى وقف ازاءها على البسطة ، لا يكاد يفصل بينهما شىء ، وقد سطع انفه شذا شعرها ، ودغدغ عنقه تردد أنفاسها. وربت منكبها برقة هامسا :

ــ نصعد الى البسطة الثانية فنكون فى موضع آمن من هذا . .

تقدمته دون أن تنبس فتبعها محاذرا . وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين . فوقفت مستندة الى الجدار ووقف بين يديها ، ثم أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثم سكنت فى حضنه . .

ــ حبيبتى . . .

ــ انتظرتك فى النافذة ، نينة مشغولة باستعدادات شم النسيم . .

ــ كل سنة وانت طيبة ، دعينى أشم النسيم بين شفتيك . .

والتقت شفتاهما فى قبلة طويلة جائعة . ثم تساءلت :

ــ أين كنت ؟.

ذكر فى سرعة خاطفة درس السياسة فى الاسلام ، ولكنه أجاب :

ــ مع بعض الأصدقاء فى القهوة . . .

قالت بلهجة تشى بالاحتجاج :

ــ القهوة ولم يبق على الامتحان الا شهر ؟.

ــ ولكنى أعرف واجبى ، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنك بى . . .

ــ صوتك عال ، أنسيت أين نحن ؟.

ــ نحن فى بيتنا ، فى غرفتنا ، هذه البسطة هى غرفتنا !.

ــ العصر وأنا ذاهبة الى خالتى نظرت الى فوق لعلى أراك فى النافذة ، فاذا بوالدتك تطل على الحارة فالتقت عينى بعينها فارتعدت من الخوف.

ــ ماذا خفت ؟.

ــ خيل الى أنها عرفت عمن أبحث وأنها كشفت سرى . .

ـ تعنين سرنا ، انه شيء واحد يربطنا ، السنا الآن شيئا واحدا ؟.

وضمها الى صدره بعنف فى رغبة جامحة ، وفى الوقت نفسه كأنما كان يجد هاربا من اصوات المعارضة الخافتة فى أعماقه باستسلام يائس ، فلفحته نيران متاججة ، واحتوته قوة قادرة على اذابة اثنين فى دوامة واحدة . .

وند عن الصمت تنهدة ثم تردد أنفاس ، وشعر أخيرا بأنه هو وانها هى وأن الظلام يضم شبحين . ثم جاءه همسها الرقيق يقول فى استحياء :

ـ نتقابل غدا ؟.

فرد فى امتعاض حاول ما استطاع التستر عليه :

ـ نعم . . ، نعم ، ستعلمين فى حينه . .

ـ اخبرنى الآن . .

فقال والامتعاض يزداد ثقلا على قلبه :

ـ لا أدرى كيف يكون وقتى غدا !.

ـ لم ؟. .

ـ اذهبى بالسلامة ، سمعت صوتا !.

ـ كلا ، لا صوت هناك . .

ـ لا ينبغى أن يجدنا أحد هكذا . .

وربت كتفها كأنما يربت خرقة ملوثة ، وتخلص من ذراعيها فى رقة مفتعلة ثم رقى فى السلم على عجل . كان والداه جالسين فى الصالة يستمعان الى الراديو ، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشراعة مما دل على أن أحمد يذاكر ، فحياهما تحية المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه . واستحم ، وتوضأ ، وعاد الى حجرته فصلى ، ثم تربع على سجادة الصلاة وراح فى تأمل عميق . كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة ، وكان صدره يضطرم شجنا ، وهفت نفسه الى البكاء . ودعا ربه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشد أزره فى مقاومة الغواية . ذلك الشيطان الذى يعترضه فى صورة فتاة ويندفع فى دمه رغبة جامحة. ودائما أبدا يقول عقله لا فيقول قلبه نعم ، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذى ينتهى بالهزيمة والندم . كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمتى ينقضى هذا العذاب ؟ ! . ان نضاله الروحى كله مهدد بالخراب

وكانما يبنى قصورا فى الهواء ولن يقر قرار لفارق فى الطين ، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت . .

- ١٣ -

أخيرا اهتدى احمد ابراهيم شوكت الى مبنى مجلة «الانسان الجديد» بغمرة . كان المبنى يقع فى مكان وسط بين محطتى الترام ، وكان مكونا من دورين وبدروم ، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدل من الغسيل المعلق فى شرفته ، اما الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابه ، واما البدروم فقد خصص للمطبعة التى رأى آلاتها خلل قضبان النوافذ.. وصعد درجات أربعا الى الدور الأول ، ثم سأل أول من التقى به ـ وكان عاملا يحمل بروفات ـ عن الأستاذ عدلى كريم صاحب المجلة ، فأشار الرجل الى باب مغلق فى نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير ، فمضى اليه وهو يتلفت فيما حواليه عله يجد حاجبا ولكنه ألفى نفسه منفردا بالباب ، فتردد لحظة ثم طرقه برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «أدخل» ففتح الباب ودخل ، فالتقت عيناه فى نهاية الحجرة بعينين واسعتين تحدقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين ، فرد الباب وراءه وقال بصوت المعتذر :

ـ لا مؤاخذة ، دقيقة واحدة . .

فقال الرجل بصوت رقيق :

ـ تفضل . .

وتقدم أحمد من مكتب كدست فوقه الكتب والأوراق ، ثم سلم على الأستاذ الذى قام لاستقباله ، ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له فى الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو الى الأستاذ الكبير الذى تلقى عنه النور والعرفان فى الأعوام الثلاثة الماضية ، سواء عن مؤلفاته ام مجلته ، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذى وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من امارات الفتوة الا عينان عميقتان تشعان بريقا نافذا .. هذا أستاذه ، أو أبوه الروحى كما يدعوه ، وانه الآن فى حجرة

الوحى التى لا جدران لهـا ولـكن رفوف من الـكتب تمتد عاليا حتى السقف . وقال الأستاذ بلهجة المتسائل :

ــ أهلا وسهلا ؟

فقال أحمد بلباقة :

ــ جئت لأسدد الاشتراك .

ولما اطمأن الى الأثر الطيب الذى أحدثه قوله استدرك قائلا :

ــ وأسأل عن مصير مقالة ارسلتها الى المجلة منذ اسبوعين . .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم وهو يتساءل :

ــ اسم حضرتك ؟

ــ احمد ابراهيم شوكت .

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطيبة التذكر ثم قال :

ــ انى اذكرك ، أنت أول مشـترك فى مجلتى ، نعم ، وجئتنى بثلاثة مشتركين ، هه ؟ ، انى اذكر اسم شوكت ، واظننى أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة ؟

فقال احمد فى ارتياح ممتنا لهذا التذكر الجميل :

ــ جاءنى كتاب من حضرتك اعتبرتنى فيه « صديق المجلة الاول » !

ــ هذا حق ، ان مجلة الانسان الجديد مجلة مبدأ ولابد لها من اصدقاء مؤمنين كى تشـق طريقها فى زحمة مجلات الصـور والاحتكار ، فانت صديق المجلة ، أهلا وسهلا ، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل ؟

ــ كلا ، انى لم آخذ البكالوريا الا فى هذا الشهر . .

فضحك الأستاذ عدلى كريم قائلا :

ــ انت فاهم ان المجلة لا يزورها الا الحاصل على البكالوريا ؟ !

فابتسم احمد فى ارتباك وقال :

ــ كلا طبعا ، أعنى انى كنت صغيرا

فقال الأستاذ جادا :

ــ لا يليق بقارىء الانسـان الجديد أن يحسب العمـر بالسنين ، فى بلادنا شيوخ قد جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شبانا بعقولهم ، وفيها شـبان فى ربيع العمـر ولـكنهم معمرون ــ منذ ألف عام أو أكثر ــ بعقولهم ، وهذا هو داء الشرق . . (ثم بلهجة أرق) وهل ارسلت الينا مقالات من قبل ؟

ثلاث مقــالات كان مصيرها الاهمــال ، ثم مقالة أخيرة كنت اطمع فى نشرها !

ــ عن ماذا ؟ ، لا تؤاخذنى فانى أتلقى عشرات المقالات يوميا ؟

ــ عن رأى لوبون فى التعليم وتعليقى عليه !

ــ على أى حال ستبحث عنها فى الســكرتارية ــ الحجرة المجــاورة لحجرتى ــ وتعلم بمصيرها . .

وهم أحمد بالقيــام ولـكن الأستاذ عدلى أشار اليه بالاستمرار فى الجلوس وهو يقول :

ــ المجلة اليوم فى شبه اجازة ، ارجو أن تمكث معى قليلا لنتحدث :

فتمتم أحمد بارتياح عميق :

ــ بكل سرور يا فندم .

ــ قلت انك أخذت البكالوريا هذا العام ، كم سنك ؟

ــ ستة عشر عاما .

ــ سن مبكرة ، حسن ، هل المجلة منتشرة فى المدارس الثانوية ؟

ــ كلا للأسف . .

ــ أعلم هــذا ، أكثرية قرائنــا فى الجامعة ، القراءة فى مصر ملهــاة رخيصة ، ولن نتطور حتى نؤمن بأن القراءة ضرورة حيوية . .

ثم بعد قليل من الصمت :

ــ وما حال التلاميذ ؟

فنظر اليه أحمد متسائلا كأنما يستزيده تفسيرا لقوله ، فقال الرجل :

ــ أنى أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها . .

ــ الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون . .

ــ ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة ؟

ــ مصر الفتــاة ؟ . . لا وزن لها ، فرقة تعد على الأصابع ، الأحزاب الأخرى لا أنصار لهــا الا أقارب زعمائها ، وهنــاك قلة لا تهتم بشئون الأحزاب كافة ، وآخرون ــ وأنا منهم ــ نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمع فيما هو أكمل . .

فقال الرجل بارتياح :

ــ هذا ما اســأل عنه ، الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن ، كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيــا رجعيا ،

اما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب والخبائث ، الى انه مدرسة الوطنية والديموقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة ، نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية ، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .

فهتف أحمد بحماس :

ـ ما أجمل هذا الكلام !

ـ ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطراً ، وهى ليست الا صدى للعسكرية الألمانية والايطالية التى تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزرى بالقيم الانسانية والكرامة البشرية ، ان الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله ..

فعاد احمد يقول متحمسا :

ـ ان جماعة « الانسان الجديد » تؤمن بهذا كل الايمان ..

فهز الرجل رأسه الكبير فى اسف وهو يقول :

ـ ولذلك فالمجلة هدف للرجعيين من كافة النحل ، انهم يرموننى بافساد الشباب !

ـ كما اتهموا سقراط من قبل ..

فابتسم الأستاذ عدلى كريم فى ارتياح وقال :

ـ وما وجهتك ؟ ، أعنى أى كلية تقصد ؟

ـ الآداب ..

فاعتدل الأستاذ فى جلسته ، وقال

ـ الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى ، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية ، فاعرف سبيلك ، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت أجيالا على تجميد العقل وقتل الروح ، ومهما يكن من امر ـ ولا تدهش ان يصارحك بهذا الرأى رجل معدود فى الأدباء ـ فالعلم أساس الحياة الحديثة ، ينبغى أن ندرس العلوم وأن نتشبع بالعقلية العلمية ، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا ، وعلى الأدباء ان ينالوا حظهم منه . لم يعد العلم وقفا على العلماء ، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف ، ولكن على كل

مثقف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه ، ينبغى أن يحل العلم محل الكهانة والدين فى العالم القديم ..

فقال احمد مؤمنا على قول أستاذه :

ـ ولذلك كانت رسالة « الانسان الجديد » هى تطوير المجتمع على أساس علمى ..

فقال عدلى كريم باهتمام :

ـ اجل ، على كل منا أن يقوم بواجبه ، ولو وجد نفسه وحيداً فى الميدان ..

فهز احمد رأسه موافقا فعاد الآخر يقول :

ـ ادرس الآداب كما تشاء ، وامن بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات ، ولا تنس العلم الحديث ، ولا يجب أن تخلو مكتبتك ـ الى جانب شكسبير وشوبنهور ـ من كونت ودارون وفرويد وماركس وانجلز ، لتكن لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغى أن تذكر أن لكل عصر أنبياءه ، وأن أنبياء هذا العصر هم العلماء ..

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحت بأنها تحية الختام فنهض احمد مادا يده ، وسلم ثم غادر الحجرة ممتلئا حياة وسعادة . وفى الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فمال الى الحجرة المجاورة ، وطرق الباب مستاذنا ثم دخل . راى حجرة بها ثلاثة مكاتب ، اثنان خاليان ، والثالث جلست عليه فتاة . لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر اليها فى حيرة وتساؤل . كانت فى العشرين ، عميقة السمرة ، سوداء العينين والشعر ، وكان فى أنفها الدقيق وذقنها المدبب وفمها الرقيق ما يوحى بالقوة ، دون أن يفسد ملاحتها . تساءلت وهى تتفحصه :

ـ أفندم ؟

فقال يعزز مركزه :

ـ الاشتراك ..

ودفع المبلغ وأخذ الايصال ، وفى اثناء ذلك كان قد تغلب على ارتباكه فقال :

ـ كنت قد ارسلت مقالة الى المجلة ، واخبرنى الأستاذ عدلى كريم بأنها فى السكرتارية .

وهنا دعته الى الجلوس على كرسى أمام المكتب فجلس ثم سألت :

ـ عنوان المقالة من فضلك ؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة :

ـ التعليم عند لوبون .

ففتحت دوسيها ، وفرت أوراقا حتى استخرجت المقال ، ولمح احمد خطه فخفق قلبه ، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنها وفرت عليه عناء المحاولة اذ قالت :

ـ موقع عليه بما يأتى « يلخص وينشر فى باب رسائل القراء » .

فشعر احمد بخيبة أمل ، ولبث لحظات ينظر اليها دون أن ينبس ، ثم تساءل :

ـ فى أى عدد ؟

ـ فى العدد القادم .

فسأل بعد تردد :

ـ ومن الذى يلخصه ؟

ـ أنا .

وداخله شعور بالامتعاض ، لكنه سأل :

ـ ويوقع عليه باسمى ؟

فقالت ضاحكة :

ـ طبعا ، ينشر عادة ما يفيد بانه جاءتنا رسالة من الأديب (ثم وهى تنظر فى الامضاء) احمد ابراهيم شوكت ثم نورد تلخيصا وافيا لفكرتك !

فتردد قليلا ثم قال :

ـ كنت أفضل لو نشرت بأكملها . .

فقالت باسمة :

ـ المرة القادمة ان شاء الله . .

فجعل ينظر اليها صامتا ثم سألها :

ـ حضرتك موظفة هنا ؟

ـ كما ترانى !

نازعته نفسه الى أن يسألها عن مؤهلاتها ولكن شجاعته خذلته فى اللحظة الأخيرة فسألها :

ـ اسم حضرتك من فضلك لأطلبك فى التليفون اذا لزم الأمر !

ـ سوسن حماد .

ـ متشكر جدا .

ونهض محييا اياها بيده ، وقبل ان يغادر الحجرة التفت نحوها قائلا :

ـ ارجو ان تلخصيها بعناية ..

فقالت دون أن تنظر اليه :

ـ انى اعرف واجبى !

فغادر الحجرة نادما على قوله ..

- ١٤ -

كان كمال فى حجرة مكتبه عند ما جاءت ام حنفى لتقول له :

ـ سى فؤاد الحمزاوى عند سيدى الكبير ..

ونهض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعا الى تحت . اذن عاد فؤاد الى القاهرة بعد غيبة عام ، عاد وكيل نيابة قنا العتيد !. وكانت تجيش بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوائب من عدم الارتياح شابتها ، فصداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوى على نوع من الصراع ، صراع من الحب والنفور ، بين المودة والغيرة ، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشده على رغمه الى الاسفاف الدنيوى . فلم يكن يشك وهو يهبط السلم فى أن هذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها فى الوقت نفسه ستنكأ جروحا كادت أن تندمل . وعند ما مر فى الصالة بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع امه وهى تهمس قائلة :

ـ سوف يطلب يد نعيمة ..

ولما شعرت بوجوده التفتت اليه قائلة :

ـ صديقك بالداخل ، ما الطفه ، اراد أن يقبل يدى فمنعته !

ورأى والده متربعا على الكنبة وفؤاد جالسا على مقعد قبالته ، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول :

ـ حمد الله على السلامة ، أهلا وسهلا ، ... أنت فى اجازة ؟

فأجاب عنه السيد احمد باسما :

ـ بل نقل الى نيابة القاهرة ، نقل اخيرا بعد غربة طويلة فىالصعيد ..

فجلس كمال على الكنبة وهو يقول :

ـ مبارك ، من الآن فصاعدا نرجو أن نراك من آن لآخر .

فقال فؤاد :

ـ طبعا ، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية ، استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلى ..

لم تتغير هيئة فؤاد كثيرا ، ولكن صحته تقدمت بدرجة محسوسة فامتلأ عوده وتورد وجهه ، أما عيناه فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكى . وسأل السيد أحمد الشاب قائلا :

ـ وكيف حال والدك ؟.. لم اره منذ اسبوع ؟

ـ ليست صحته على ما يرام ، انه لا يزال آسفا على ترك المحل ، ولكن المأمول ان يكون خليفته قائما بالواجب ؟

فضحك السيد قائلا :

ـ الأمر يقتضينى اليوم يقظة متواصلة ، كان والدك يقوم بكل شيء شفاه الله وعافاه ..

واعتدل فؤاد فى جلسته ووضع رجلا على رجل فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج ، أما السيد فلم يبد عليه حتى انه لاحظها . أهكذا تتطور الأمور ؟ ، أجل انه وكيل نيابة قد الدنيا ، ولكن انسى من يكون الشخص المتربع أمامه ؟ ، رباه ليس هذا فحسب ، لقد اخرج علبة سجائر وقدمها للسيد فاعتذر شاكرا ! ، حقا ان النيابة تنسى ، ولكن من المؤسف ان يمتد نسيانها الى ولى النعمة الذى يبدو أن فضله تبدد فى الهواء كدخان هذه السيجارة الفاخرة . ولم يكن فى حركات فؤاد تكلف من اى نوع كان ، كان سيدا قد تعود السيادة . وقال السيد مخاطبا كمال :

ـ وهنئه أيضا فقد رقى من مساعد الى وكيل نيابة .

فقال كمال باسما :

ـ مبارك .. مبارك ، أرجو أن أهنئك قريبا بكرسى القضاء ..

فقال فؤاد :

ـ الخطوة التالية ان شاء الله .

ربما استباح لنفسه ـ عند ما يصير قاضيا ـ أن يبول أمام الرجل

المتربع أمامه ! ، أما مدرس ابتــدائى فيظل مدرسا ابتدائيا ، وحسبه شاربه الغليظ واطنان الثقافة التى عوجت رأسه !

ونظر السيد احمد الى فؤاد باهتمام وهو يسأل :

ــ وكيف حال السياسة ؟

فقال فؤاد بارتياح :

ــ وقعت المعجزة ! ، وقعت المعاهدة فى لندن ، أصغيت الى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفظات الأربعة. فلم أصــدق اذنى ، من كان يصدق هذا ؟

ــ اذن أنت من الراضين على المعاهدة ؟

فقال وهو يهز رأسه هزة أصحاب الشأن :

ــ فى الجملة نعم ، للمعاهدة أعداء مخلصــون وآخرون غير مخلصين ، فاذا تأملنا الظروف التى تحيط بنا ، وذكرنا أن شعبنا صبر على عهد صدقى رغم مرارته دون أن يثور عليه ، فينبغى ان نعد المعاهدة خطوة موفقة ، أزالت التحفظات ومهدت الطريق لالغاء الامتيازات الأجنبية ، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة ، أنها خطوة عظيمة بلا شك ..

كان حماس السيد احمد للمعاهدة أقوى واحاطته بظروفها أقل ، وكان يود لو تجاوب الآخر معه تجاوبا أشد ، فلما خاب ظنه قال بعناد :

ــ على اى حال ينبغى أن نذكر أن الوفد قد أعاد الى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين ..

وفكر كمال : كان فؤاد دائما « باردا » فى الناحية السياسية ، ولعله لم يتغير ، ولكنه يبدو مائلا الى الوفد ، اما انا فطالمــا كنت مندفعا مع العــاطفة ، ثم انقلبت لا أومن بشىء ، والسياســة نفسها لم تسلم من شكى النهم ، ولــكن قلبى لا زال ينبض بالوطنية رغم عقلى .

وعاد فؤاد يقول ضاحكا :

ــ ان النيابة فى عهود الانقلاب تنكمش الى الوراء على حين يحتــل البوليس المقدمة ، اذ أن عهود الانقلاب عهود بوليسية ، فاذا عاد الوفد الى الحكم ردت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده ، ففى عهد الحكم الطبيعى يكون القانون هو الكلمة العليا ..

فعلق السيد على ذلك قائلا :

ــ وهل يمكن أن ننسى عهد صــدقى ؟ ! ، لقد كان الجنود يجمعون الأهالى بالعصى أيام الانتخابات ، وكثير من الأعيان من اصدقائنا خربت بيوتهم واشهروا افلاسهم ثمنا لثباتهم على مبدأ الوفد ، ثم اذا بنا نرى « الشيطان » ضمن هيئة المفاوضات فى لباس الوطنيين الأحرار !

فقال فؤاد :

ــ كانت الظروف توجب الاتحاد ، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون ان ينضم اليه الشيطان واعوانه ، والعبرة بالخواتيم ..

ولبث فؤاد فى حضرة السيد فترة غير يســيرة ، احتسى فى اثنــائها القهوة ، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه الى بدلته الحريرية البيضاء الأنيقة ، والوردة الحمــراء التى تزين عروتها ، والى الشخصية القوية التى أضفتها عليه الوظيفة ، فشــعر فى اعماقه بانه سيسر ــ رغم كل شىء ــ اذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته ، غير ان فؤاد لم يطرق هذا الموضوع ، وبدا عليه أنه يرغب فى الذهاب ، وما لبث أن قال للسيد :

ــ آن وقت ذهابك الى الدكان ، سامكث بقيــة الوقت مع كمال ، وسوف أزور حضرتك قبل سفرى الى الاسكندرية ، اذ اننى قررت أن اقضى بقية اغسطس وبعض سبتمبر فى المصيف ..

ونهض قائما فصافح السيد مودعا ثم غادر الحجرة يتقــدمه كمال . وصعدا معا الى الدور الأعلى حيث استقرا فى حجرة المكتب . وجعــل فؤاد يتصفح الكتب المصفوفة على الأرفف باسما ثم تساءل :

ــ الا استطيع أن استعير منك كتابا ؟.

فقال كمال وهو يدارى عدم ارتياحه :

ــ بكل سرور ، ماذا تقرأ عادة فى أوقات فراغك ؟ .

ــ عندى دواوين شــوقى وحافظ ومطران ، وبعض كتب الجاحظ والمعرى ، وأحب بصفة خاصة « ادب الدنيا والدين » ، الى مؤلفــات كتابنا المعاصرين ، هذا الى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل ، ولــكن انكبابى على القانون يلتهم أكثر وقتى ..

ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئا عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلا :

ــ مكتبة فلسفية قحة ، لاناقة لى فيها ولا جمل ، انى اقرأ مجلة الفكر التى تكتب فيها ، واتابع مقالاتك التى تظهر تباعا منذ سنوات ، لا أزعم

انى قراتها جميعا ، او انى اذكر منها شيئا ، ان المقالة الفلسفية اثقل مايقرا؛ ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل ، لماذا لاتكتب فى الموضوعات الجذابة ؟.

طالما سمع باذنه نعى مجهوده ، ولكنه لم يحزن لذلك كثيرا كانما اعتاده ، ان الشك يلتهم فيما يلتهم الحزن نفسه ، والشهرة ما هى ؟. والجاذبية ماهى؟. ولكن ممايسره حقا الا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه . وسأله :

ـ ماذا تعنى بالموضوعات الجذابة ؟.

ـ الأدب مثلا .

ـ قرات لطائف منه مذ كنا معا ولـكننى لست أديبا . .

فضحك فؤاد قائلا :

ـ اذن ابق فى دنيا الفلسفة وحدك ، السبت فيلسوفا ؟

الست فيلسوفا ؟ ! . عبارة مطبوعة فى اعماقه ، ارتجف من هول وقعها قلبه ، هكذا هى مذ القيت عليه فى شارع السرايات من ثغر عايدة !. ولكى يدارى جيشة صدره ضحك ضحكة عالية ، ثم ذكر الأيام التى كان فؤاد يتودده ويتبعه كظله ، ها هو الآن يطالعه رجلا خطيرا جديرا بالتودد والولاء !. ماذا جنيت من حياتى ؟. وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجاة قائلا :

ـ ولو !..

فتساءل كمال بعينيه عن معنى هذا فعاد الآخر يقول :

ـ كلانا يجرى نحو الثلاثين دون أن يتزوج ، جيلنا مكتظ بالعزاب ، جيل الأزمة ، الا زلت عند رايك ؟.

ـ لا اتزحزح . .

ـ لا أدرى لم أعتقد بانك لن تتزوج ابدا .

ـ أنت بعيد النظر طول عمرك . .

فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة كانما ليعتذر بها سلفا عما سيقول :

ـ أنت رجل انانى ، تابى الا ان تستأثر بكل حياتك لنفسك ، يا اخى لقد تزوج النبى ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة . .

ثم مستدركا وهو يضحك :

ـ لا تؤاخذنى على ضرب المثل بالنبى ، كنت انسى انك . . . . ، ولكن مهلا ، انك لم تعد الملحد القديم ، أنت الآن تشك حتى فى الالحاد ، وهذه خطوة كسب للايمان . .

فقال كمال بهدوء :

ـ دعنا من التفلسف فانك لا تحبه وخبرنى لم لم تتزوج أنت ما دام هذا هو رايك فى العزوبة ؟.

وشـعر لتوه بأنه ما كان ينبغى له ان يطرح هذا السؤال خشية ان يفسره الآخر بانه استدراج له الى الكلام فى خطبة نعيمة !. ولكن فؤاد لم يبد عليه انه فكر فى هذا ، بل ضحك ضحكة عالية وان لم تخرج به عن حد الوقار ، وقال :

ـ أنت تعلم انى لم افسد الا متاخرا ، لم افسد مثلك فى زمن مبكر ، فانا لم اشبع بعد ! .

ـ أتتزوج اذا شبعت ؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكلب وقال بلهجة المعترف :

ـ ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى ، أصبر حتى ارقى قاضيا مثلا فيسعنى ان أصاهر وزيرا اذا شئت . .

يابن جميل الحمزاوى !. عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة !. أتحدى ليبنتز ان يبرر هذا ولو كما برر وجود الشر فى الخليقة !.

ـ أنت تنظر الى الزواج نظرة . .

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكا :

ـ خير من الذى لا يعيره نظرة على الاطلاق !.

ـ ولكن السعادة . . .

ـ لا تتفلسف !. السعادة فن ذاتى ، قد تجدها عند كريمة وزير بينا لا تجد الا التعاسة فى وسطك ، الزواج معاهدة كالتى وقعها النحاس بالأمس ، مساومة وتقدير ودهاء وبعد نظر وفوائد وخسائر ، وفى بلدنا لا تتأتى الرفعة الا عن هذا السبيل ، فى الأسبوع الماضى عين مستشارا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره ، وقد أخدم القضاء عمرى مجتهداً ناصبا دون أن أظفر بهذا المركز السامى !.

ومعلم ابتدائى ما قوله ؟. فى الدرجة السادسة ينقضى عمره ، ولو طفح بالفلسفة رأسه .

ـ ان مركزك يغنيك عن أمثال هذه المغامرات . .

ـ لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلف وزارته !.

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال :

ـ أنت فيحاجة اليشيء منالفلسفة ، تحتاج الى جرعة من سبينوزا .
ـ اشبع منه أنت ، لكن دعنا من هذا ، وخبرني عن أماكن اللهو والشراب ، في قنا كنت أختلس اللذة في حذر ، أن مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر ، والصراع الأبدى بيننا وبين البوليس يوجب الحذر اكثر ، وكيل النيابة مركز خطير متعب ..
عودة الى الحديث الذى يهدد مرارتي بالانفجار ، حياتي في ضوئك تاديب وتهذيب واشد امتحان لفلسفتي الحائرة في هذه الحياة ..
ـ تصور ان الظروف تجمعني بكثير من الأعيان ، لم يدعونني الى سراياتهم ، فاجد ان الواجب يقضي بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثر في قيامي بواجبي ، ولكن عقليتهم لا تفهم هذا ، فاعيان الاقليم جميعا يرمونني بالكبر وأنا منه براء ..
« بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معا » . وقال موافقا :
ـ نعم ..
ـ ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس ، أنا لا أرضى عن طرقهم الملتوية ، لذلك أقف لهم بالمرصاد ، ورائي القانون ، وورأءهم همجية القرون الوسطى ، ان الجميع يكرهونني ولكن الحق معي ..
الحق معك ، هذا ما اعرفه فيك من قديم ، الذكاء والنزاهة ، ولكنك لا تحب ولا يمكن أن تحب ، أنت لا تتمسك بالحق لوجه الحق وحده ولكن لوجه الحق والغرور والكبرياء والشعور بالنقص ، هكذا الانسان ، اني اصطدم بامثالك حتى في الوظائف الحقيرة ، الانسان العذب القوى أسطورة ، ولكن ما قيمة الحب ؟. وما المثالية ؟. وما اى شيء ؟!.
وهكذا طال بهما الحديث . وعندما هم فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسائلا :
ـ أنا جديد في القاهرة ، طبعا أنت تعرف بيتا بل بيوتا ، مستورة طبعا ؟ .
فقال كمال باسما :
ـ ان المدرس كوكيل النيابة يتحرى الستر دائما ..
ـ عال ، سنلتقي قريبا ، انني مشغول الآن بترتيب الشقة الجديدة ولا بد أن نسهر كم مرة معا !.
ـ اتفقنا ...

وغادرا الحجرة معا فلم يتركه حتى أوصله الى باب السكة . وعند ما مر بالدور الأول فى أثناء عودته التقى بامه واقفة تنتظره عند المدخل ، فسألته بلهفة :

ـ الم يكلمك ؟.

فادرك ما تسأل عنه ، وشعر لذلك بألم لم يشعر بمثله ، ولكنه تجاهل الأمر وتساءل بدوره :

ـ عن ماذا ؟.

ـ نعيمة ؟.

فاجاب ممتعضا :

ـ كلا . .

ـ عجيبة !.

وتبادلا نظرة طويلة ، ثم عادت امينة تقول :

ـ ولكن الحمزاوى كلم أباك !.

فقال كمال وكان يدارى ما استطاع ثورة حنقه :

ـ لعله لم يكن فيما قال نائبا عن ابنه . .

فقالت امينة غاضبة :

ـ هذا عبث لا يليق ... الا يدرى من يكون هو ومن تكون هى ؟ ، كان ينبغى أن يفهمه جدك حقيقة مركزه .

ـ ان فؤاد برىء ، لعل والده أسرع دون تدبر بحسن نية . .

ـ ولكن حدث ابنه دون شك فهل رفض الآخر ؟. ذلك الذى جعلناه موظفا محترما بنقودنا . .!

ـ لا داعى للكلام فى هذا الموضوع . . .

ـ ان هـذا يا ابنى أمر لا يتصوره العقل ، الا يدرى أن مصاهرته لا تشرفنا ؟!. .

ـ إذن لا تاسفى عليها . .

ـ لست آسفة ، ولكنى غاضبة للاهانة . .

ـ لا اهانة هنالك ، ليس الا سوء تفاهم . .

وعاد الى حجرته حزينا خجلا . وجعل يحدث نفسه : نعيمة وردة جميلة ، بيد أنى رجل لم يبق لى من الفضائل الا حب الحقيقة فينبغى ان اسائل نفسى أهى حقا كفء لوكيل نيابة ؟. يستطيع رغم وضاعة اصله

أن يشرك فى حياته من هى أجل ثقافة وأعز محتدا وأكثر مالا وجمالا أيضا ، لقد تسرع ابو الطيب وليس هذا خطأه ، ولكنه كان وقحا فى حديثه معى ، وهو وقح بلاشك ، انه رجل ذكى نزيه كفء وقح مغرور ، وما هذا بذنبه ولكن الذنب ذنب هذه الفوارق التى تخلق فينا شتى الأمراض ...

- ١٥ -

كانت مجلة « الفكر » تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز . وكانت حجرة صاحبها الأستاذ عبدالعزيز الاسيوطى تطل بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار . والحق انه كلما أقبل كمال على ادارة المجلة ذكره موضعها الأرضى المظلم ورثاثة اثاثها بمكانة « الفكر » فى بلده ، وبمكانته هو فى مجتمعه . واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وود ، ولا عجب فقد اتصلت بينهما اسباب المعرفة منـذ عام ١٩٣٠ أى منذ بدأ كمال يبعث اليه بمقالاته الفلسفية ، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور ، والواقع أن جميع كتاب المجلة كانوا من المتعاونين فى سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده !.

وكان عبد العزيز يرحب بكافة الكتاب المتطوعين حتى المختصين — مثله — فى الفلسفة الاسلامية ، ومع أنه كان أزهرى النشأة الا انه سافر الى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلا ومستمعا دون أن يحصل على درجة علمية . وكان فى غنى عن السعى للرزق بعقار يملكه يدر عليه شهريا خمسين جنيها ولكنه أنشأ مجلة « الفكر » فى عام ١٩٢٣ ، وثابر على اصدارها بالرغم من انها لم تكن تزيد دخله شيئا يضاهى بعض ما يبذله فيها من جهد . وما كاد يستقر المجلس بكمال حتى دخل الحجرة رجل فى مثل سنه ، يرتدى بدلة من التيل الرمادى ، طويل القامة وان كان دون كمال طولا ، نحيفا ، ولكنه أكثر امتلاء منه ، مستطيل الوجه ، متوسط الجبين ، ممتلىء الشفتين ، ذو أنف دقيق وذقن مدبب أضفى على سمنته طابعا خاصا . تقدم خفيفا باسم الثغر فمد يده الى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثم قدمه الى كمال قائلا :

ـ الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف ، انضم حديثا الى جماعة كتاب « الفكر » ، وقد أمد مجلتنا العلمية بدم جديد بتلخيصه الشهرى للمسرحيات العالمية وكتابة القصص القصيرة ..

ثم قدم كمال قائلا :

ـ الأستاذ كمال احمد عبد الجواد ، لعلك من قراء مقالاته ؟.

فتصافح الرجلان ورياض يقول باعجاب :

ـ انى أقرأ مقالاته منذ سنوات ، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة ..

فشكره كمال متلقيا ثناءه بحذر ؛ ثم جلسا على كرسيين متقابلين امام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذى مضى يقول :

ـ لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يرد عليك بالمثل قائلا انه قرأ قصصك القيمة ، انه لا يقرأ قصصا البتة ..

فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال :

ـ الا تحب الأدب اذن ؟. ما من فيلسوف الا وله فلسفة خاصة عن الجمال ، وهى لا تتأتى له الا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعا ..

فقال كمال فى شىء من الارتباك :

ـ لست أكره الأدب ، طالما ارتحت فى جنات شعره ونثره ، ولكن اوقات الراحة قليلة !.

ـ معنى هذا انك قرأت ما استطعت من القصص اذ ان الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصة والتمثيلية ..؟.

فعاد كمال يقول :

ـ قرأت عددا وفيرا منها على مدى العمر ، بيد أننى ..

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطى قائلا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدا أن تقنعه بأفكارك الجديدة ، وحسبك أن تعلم الآن انه فيلسوف ، وان ولعه مركز فى الفكر .

ثم التفت الى كمال متسائلا :

ـ جئت بمقال الشهر ؟

فاخرج كمال ظرفا متوسطا ووضعه فى سكون أمام الأستاذ الذى

تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثم تصفح العنوان وهو يقول :
— عن برجسون ؟.. حسن !

فقال كمال :

— فكرة تقديم عامة تبين الدور الذى لعبته فلسفته فى تاريخ الفكر الحديث ، وربما ألحقتها بمقالات أخر تفصيلية ..

وكان رياض قلدس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدج كمال بنظرة لطيفة :

— تتبعت مقالاتك منذ سنوات ، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الاغريق ، وهى مقالات متنوعة وأحيانا تكون متناقضة بالقياس الى ما تعرض من فلسفات ، فادركت انك مؤرخ ، بيد إننى حاولت عبثا أن اهتدى الى موقفك أنت مما تكتب ، وأى فلسفة تنتمى اليها ..؟

فقال عبد العزيز الأسيوطى :

— نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام ، ولعل الأستاذ كمال يتمخض فيما بعد عن فلسفة جديدة ، ولعلك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم !

فضحكوا جميعا ، وخلع كمال نظارته وراح يجلو ناظريها ، وكان سرعان ما يندمج فى الحديث خاصة اذا آنس الى محدثه ، وبدا الجو صافيا عذبا . وقال كمال :

— انى سائح فى متحف لا أملك فيه شيئا ، مؤرخ فحسب ، لا أدرى أين أقف ..

فقال رياض قلدس فى اهتمام يتزايد :

— اى فى مفترق الطرق ، وقفت فى ميدانك عهدا قبل أن اعرف وجهتى ، ولكنى أرجح أنه موقف ذو قصة ، لأنه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة ، ألم تعرف الوانا من الايمان قبل موقفك هذا ؟

نغمة هذا الحديث تعيد اليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب ، هذا الشاب وهذا الحديث ، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتى اعتاد ان يحدث نفسه كلما افتقد من يحدثه ، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أحد أن يبعث هذا النشاط الروحى فى صدره ، لا اسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوى ولا عشرات المدرسين ، هل آن للمكان الذى

خلا بذهاب حسين شداد أن يشغل ؟!. واعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلا :

- لذلك قصة طبعا ، وكالعادة كان لى ايمانى الدينى ، ثم ايمانى بالحقيقة ..

- اذكر انك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة ..

- كان حماسا صادقا ثم لم ألبث أن حركت راسى مرتابا ..

- لعلها الفلسفة العقلية ؟

- ثم لم ألبث أن حركت راسى مرتابا ، الفلسفات عصور جميلة هائلة ولكنها لا تصلح للسكنى ..

فقال عبد العزيز باسما :

- وشهد شاهد من أهلها !

فهز كمال كتفيه استهانة ، أما رياض فواصل تحقيقه قائلا :

- هنالك العلم فلعله نجا من شكك ؟

- انه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف الا بعض نتائجها القريبة ، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون فى مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال ، وغيرهم ممن تراجعوا من ادعاء الحقيقة المطلقة ، فلم ألبث أن حركت راسى مرتابا !.

فابتسم رياض دون أن ينبس فعاد الآخر يقول :

- حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى اذنى ، ودار راسى ، وما زال يدور ، فى فضاء مخيف ، ما الحقيقة ؟، ما القيم ؟ ، ما أى شيء ؟ ، انى أحيانا اشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذى أشعر به عند الوقوع فى الشر !

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية ، وقال :

- لقد انتقم الدين منك ، هجرته جريا وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليدين !

وقال رياض قلدس ، وكان يبدو فى قوله مجاملا لا أكثر :

- موقف الشك هذا لذيذ !، مشاهدة وتأمل وحرية مطلقة ، واخذ من كل شيء اخذ السائح !

فقال عبد العزيز مخاطبا كمال :

- أنت أعزب فى فكرك ، كما انت أعزب فى حياتك !

وانتبه كمال الى هذه الملاحظة العابرة باهتمام ، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح ؟ أم ان الاثنين نتيجة لشيء ثالث ؟. وقال رياض قلدس :

ـ العزوبة حال مؤقتة ، وربما كان انشك كذلك !

فقال عبد العزيز :

ـ ولكنه فيما يبدو لن يميل الى الزواج ابدا . .

فقال رياض متعجبا :

ـ ما الذى يحول بين الشاك والحب ؟، وما الذى يمنع محبا من الزواج ؟، أما الاصرار على العزوبة فليس من الشك فى شيء ، الشك لا يعرف الاصرار !

فتساءل كمال ، وهو غير جاد فى باطنه :

ـ الا يحتاج الحب الى شيء من الايمان ؟

فقال رياض قلدس ضاحكا :

ـ كلا ، ان الحب كالزلزال الذى يرج الجامع والكنيسة والماخور على السواء . . .

زلزال ؟ ، ما أصدقه من تشبيه ، زلزال يهدم كل شيء ثم يغرقه فى صمت الموت .

ـ وانت يا استاذ قلدس ، لقد أطريت الشك ، فهل أنت من أهله ؟

فقال عبد العزيز ضاحكا :

ـ انه ذلك نفسه !

وضجوا بالضحك ، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه :

ـ لبثت فيه فترة ثم مرقت منه ، لم أعد أشك فى الدين لأنى كفرت به ، ولكنى أومن بالعلم والفن ، الى الأبد ان شاء الله !

عبد العزيز متسائلا فى تهكم :

ـ ان شاء الله الذى لا تؤمن به ؟

فقال رياض قلدس باسما :

ـ الدين ملك الناس ، أما الله فلا علم لنا به ، منذا الذى يستطيع أن يقول لا أومن بالله ، أو يقول أومن بالله ؟، الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون، وذلك أنهم رأوه او سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه !

فقال كمال :

ـ ولكنك تؤمن بالعلم والفن ؟

ـ نعم . .

ـ الايمان بالعلم له وجاهته ، ولكن الفن . . ؟! ، انا أفضل أن أومن بالأرواح عن أن أومن بالقصة مثلا !

فحدجه رياض بنظرة عاتبة ، وقال بهدوء :

ـ العلم لغة العقول ، والفن لغة الشخصية الانسانية جميعا !

ـ ما أشبه هذا الكلام بالشعر !

فتقبل رياض تهكم كمال بابتسامة متسامحة ، وقال :

ـ العلم يجمع البشر فى نور أفكاره ، والفن يجمعهم فى عاطفة سامية انسانية ، وكلاهما يطور البشرية ويدفعها الى مستقبل افضل . .

يا للغرور !، يكتب قصة من صفحتين كل شهر ، ويظن انه يطور البشرية ، وأنا لست دونه سماجة ، فلأنني ألخص فصلا من كتاب تاريخ الفلسفة لهفدنج ، أطالب فى أعماقى بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوى وكيل نيابة الدرب الأحمر ، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك ؟ ، مجانين نحن أم عقلاء أم مجرد أحياء ؟ ، أف من كل شىء !

ـ وما قولك فى العلماء الذين لا يشاركونك فى حماستك للعلم ؟.

ـ لا ينبغى أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس ، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزتها ، وهو دين المستقبل . .

ـ والقصة ؟

بدا رياض لأول مرة وهو يدارى استياءه ، فاستدرك الآخر كالمعتذر :

ـ أعنى الفن عموما ؟

فقال رياض متسائلا فى حماسة :

ـ استطيع أن تعيش فى وحدة مطلقة ؟ ، لابد من النجوى ، من العزاء ، من المسرة ، من الهداية ، من النور ، من الرحلة فى أنحاء المعمورة والنفس ، هذا هو الفن . .

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز :

ـ خطر لى خاطر ، أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث فى شتى الفكر ، على أن ينشر حديثنا بعنوان « محاورة شهر كذا » . . .

فقال رياض قلدس ، وهو يرمق كمال بنظرة ودية :

ــ ان حديثنا لن ينقطع ، أو هذا ما أوده ، أنعد أنفسنا أصدقاء ؟
فقال كمال بحماسة صادقة :
ــ بكل تأكيد ، يجب أن نتقابل فى كل فرصة ....
شمل كمال احساس بالسعادة لهذه « الصداقة الجديدة » ، كان يشعر بأن جانبا ساميا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق ، فاقتنع أكثر من ذى قبل بخطورة الدور الذى تلعبه الصداقة فى حياته ، وبأنها عنصر حيوى لا غنى له عنه ، أو يظل كالظامىء المحترق فى صحراء ..

- ١٦ -

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة ، فعاد كمال من الموسكى والساعة تدور فى الثامنة مساء ، يتنفس جوا خانقا شديد الحرارة . وتمهل عند عطفة الجوهرى ثم مال اليها ، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل . ورقى فى الدرج حتى الدور الثانى ، ثم دق الجرس ، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين ، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية ، وفتحت الباب فدخل صامتا . اما المرأة فقالت ترحب به :
ــ أهلا بابن الحبيب ، أهلا بابن أخى ..
وتبعها الى صالة تتوسط حجرات ، فيها كنبتان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة ، وشذا بخور فى الأركان . كانت المرأة بدينة ، هشة من كبر ، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر ، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشى بوطأة الكيف ، وفى تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم . تربعت على الكنبة أمام النارجيلة ، وأومأت اليه ليجلس الى جانبها ، فجلس وهو يسأل باسما :
ــ كيف حال الست جليلة ؟
فهتفت محتجة :
ــ قل عمتى .. !
ــ كيف حالك يا عمتى ؟

ــ الحال معدن يابن عبد الجواد ، .. (ثم بصوت مرتفع أجش) .. بنت يا نظلة ...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكاسين مترعين ووضعتهما على الخوان ، فقالت جليلة :

ــ اشرب ، طالما قلتها لأبيك فى الأيام الحلوة الماضية ..

فتناول كمال الكأس ، وهو يقول ضاحكا :

ــ من المؤسف حقا أنى جئت بعد فوات الأوان ..

وهى تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التى تغطى ساعديها :

ــ يا عيب الشوم ، أكنت تريد أن تعيث فسادا حيث سجد ابوك ؟!

ثم مستدركة :

ــ ولكن أين أنت من أبيك ؟، كان متزوجا للمرة الثانية حين عرفته ، تزوج مبكرا على عادة أهل زمان ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقنى زمنا كان أحلى الحياة ، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها ، ثم عشرات غيرنا سامحه الله ، أما أنت فلا تزال أعزب ، ولا تزور بيتى مع ذلك الا كل ليلة جمعة ، يا عيب الشوم ، أين الرجولة أين ؟!

أبوه الذى عرفه عن لسانها غير أبيه الذى عرفه بنفسه ، بل غير أبيه الذى حدث عنه ياسين ، رجل الغريزة والحياة الصارمة ، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه ؟ ، حتى ليلة الجمعة التى يزور فيها هذا البيت لا يصفو له « الحب » فيها الا بالخمر ، فلولا السكر لبدا له الجو متجهما باعثا على الانهزام ، وأول ليلة رمت به المقادير الى هذا البيت ليلة لا تنسى ، رأى المرأة لأول مرة قدمته الى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة ، ولما جره الحديث الى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة : أأنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين ؟ ، نعم أتعرفين أبى ؟ . يا ألف أهلا وسهلا .. أتعرفين أبى ! .. أعرفه أكثر مما تعرفه أنت .. مازج عرقه عرقى .. وزففت له أختك .. كنت فى أيامى كأم كلثوم فى أيامك الكالحة .. سل عنى طوب الأرض ، تشرفنا يا ستى ، اختر من بناتى من تعجبك وليس بين الخيرين حساب ، هكذا فسق أول مرة فى هذا البيت على حساب والده ، وجعلت تنظر الى وجهه طويلا حتى انقبض قلبه ، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها ، اذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدرى المورد ؟ ، ثم طال

الحديث كل مطال ، فعـرف عنها تاريخ ابيـه السرى ، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفى صفاته ، « وأنا من شدة الحيرة متردد ابدا بين وهج الغريزة ونسمة التصوف ! » .

قال كمال يجيبها :

ـ لا تبالغى يا عمتى ، أنا مدرس والمدرس يحب الستر ، ولا تنسى انى فى العطلة ازورك كل أسبوع مرات لا مرة ، الم أكن عنـدك أول أمس ؟ ، انى أزورك كلما . .

« كلما لجت بى الحيرة ، ان الحيرة تدفعنى اليك قبل الشهوة . . »

ـ كلما ماذا يا سيد نينة ؟

ـ كلما فرغت من العمل . .

ـ قل غير هذا الـكلام . أف من زمانكم اف ، كانت فلوسـنا من الذهب وفلوسكم من الحـديد والنحاس ، وطربنـا كان من لحم ودم وطربكم راديو ، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء ، عندك كلام يا خوجة البنات ؟

واخذت من النارجيلة نفسا ثم غنت :

يا خوجة البنات علمهم   ضرب الآلات ونغمهـم

فضحك كمال ، ومال نحوها فقبـل خدها قبلة جمعت بين المودة والمداعبة ، فهتفت :

ـ شاربك كالشوك ، كان الله فى عون عطية !

ـ انها تحب الأشواك . .

ـ بهذه المناسبة كان عندى بالأمس ضابط النقطة على سن ورمح ، ولا فخر ، كافة زبائنى من سـادة القوم ، أم تظن انك تتصـدق على بزياراتك !

ـ يا ست جليلة ، انك لجليلة . .

ـ أحبك اذا سكرت ، فان السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويردك الى شىء من أبيك ، لكن خبرنى ألا تحب عطية ؟ ، . . انها تحبك !

هذه القلوب التى حجرتها فظاظة الحيـاة كيف تحب ؟ ، ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التى تجود بالحب وتستطيبه ؟؟ ، فاما أن تحبه بنت صاحب المقلى فيعرض عن حبها ، واما ان يحب عايدة فتعرض عن حبه ، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم ، ذلك الألم

العجيب الذى يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المتقدة عجائب من أسرار الحياة ، ثم لا تخلف وراءها الا حطاما . قال يعلق على قولها متهكمـا :

ـ احبتك العافية . .

ـ لم تعمل فى المقدر الا منذ طلاقها !

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـ الحمد لله فى جميع الأحوال .

وابتسم ابتسامة ذات معنى ، فادركت معناها وقالت كالمحتجة :

ـ اتسـتكثر على أن انوه بحمد الله ؟ ، آه منك يا بن عبـد الجواد ، اسمع ، لا ابن لى ولا بنت ، وقد شبعت من الدنيا ، وعند الله العفو . .

من عجب أن حـديث المرأة تتردد فيه كثيراً هذه النغمـة الموحية بالزهد ! . وجعل يختلس اليها النظر وهو يتجرع بقية كأسه . وكانت الخمر تأخذ فى نفث سحرها معه من أول كأس . ووجد نفسه يتذكر مهدا مضى أيام كان للكأس فرحة سماوية ، ما أكثر الأفراح التى ولت ، فى البدء كانت الشهوة ثورة وانتصارا ، ثم انقلبت مع الزمن فلسـفة حمراء ، ثم اخمد نشوانها الزمن والعادة ، ولم تخل فى أحايين كثيرة من عذاب المتردد بين السماء والأرض ، ذلك قبـل أن يسوى الشك بين الأرض والسماء . .

ودق الجرس . ودخلت عطية ، بيضاء لدنة ممتلئة ، لحذائها أطيط ولضحكتها رنين ، فقبلت يد المعلمة ، ثم القت نظرة باسمة على الكاسين الفارغين وهى تقول مداعبة كمال :

ـ خنتنى !

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلا ، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة ، وسارت الى الحجرة الى يمين مجلس المعلمة ، فلكزته جليلة قائلة :

ـ قم يا نور العين . .

تناول طربوشه ومضى الى الحجـرة . ولم تلبث نظـلة أن لحقت به حاملة صينية عليها زجاجة وكأسان ومزة خفيفة ، فقالت لها عطية :

ـ هاتى لنا رطلين من العجانى ، انا جوعانة !

خلع الجاكتة ومد سـاقيه فى ارتياح ، ثم جلس يراقبها وهى تخلع حذاءها وفستانها ، ثم وهى تسوى قميصها أمام المرآة وتسرح شعرها .

الجسم الذى يحبه ، الأبيض اللدن الممتلىء ، ترى كيف كان جسم عايدة ؟ ، كثيرا ماتبدو لذاكرته وكانما لم يكن لها جسم ، وحتى مايذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فانما تستقر فى روحه كالمعانى المجردة ، اما ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر البتة أن حواسه اتجهت الى شىء منها ، واليوم لو عرضت له حسناء كل ميزاتها الرشاقة والسمرة والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال ، فكيف كان هذا الحب ؟ ، وكيف ظلت ذكراه مصونة بالاجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شىء ؟! .

ـ الدنيا حر ، أف ..

ـ اذا لطستنا الخمر استوى لدينا الحر والبرد !

ـ لا تأكلنى بعينيك ، وارفع نظارتك !

مطلقة ذات بنين ، تغطى كآبتها المعتمة بالعربدة ، وتمتص الليالى النهمة انوثتها وانسانيتها دون مبالاة ، يختلط فى انفاسها الوجد الكاذب بالمقت ، وهى للاستعباد شر صورة ، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هى نجاة من الفكر !

وارتمت الى جانبه ومدت يدها البضة الى الزجاجة واخذت تملأ الكاسين . هذه الزجاجة تباع فى هذا البيت بضعف ثمنها ، كل شىء هنا غال الا المرأة ، الا الانسان ، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس ، كى يغيب عن عين البشرية المحملقة فى اشمئزاز ، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر ، منهم وزراء وكتاب !

وبحلول الكاس الثانى فى جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرة . « هذه المرأة اشتهيها منذ زمن وحتى متى لا ادرى ، الشهوة سلطان مستبد اما الحب فشىء آخر ، وكم يبدو فى لباس عجيب اذا برىء من الشهوة ، واذا أتيح لى يوما أن اجدهما فى كائن بشرى عرفت الاستقرار المنشود ، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لى عناصر يعوزها الانسجام ، فانا انشد « الزواج » فى الحياتين العامة والخاصة ، لا أدرى أيهما أصل الأخرى ، ولكنى متأكد أنى تعس رغم سلوكى فى الحياة الذى ضمن لى حظى من مسرات الفكر ولذات الجسد ، كالقطار الذى ينطلق فى قوة ولكنه لا يدرى من أين ولا الى أين » والشهوة حسناء طاغية سرعان مايصرعها القرف ، ويهتف القلب ناشدا فى يأس اليم السعادة السرمدية،

عبثا ، لذلك فالشكوى لا تنقطع والحياة خدعة كبرى ، وينبغى أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كى نتقبل هذه الخدع راضين ، فنكون كالممثل الذى يعى دوره الكاذب على المسرح ؛ ولكنه رغم ذلك يعبد فنه » .

وتجرع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى اغرقت عطية فى الضحك . وهى تحب السكر من صميم قلبها ولكنه يفعل بها الأفاعيل ، فاذا لم يوقفها عند حدها علا صوتها فتشنجت ثم بكت وتقايات . ولعبت الخمر برأسه فاهتز طربا ، ومد اليها بصره فانبسطت اساريره . هى الآن امرأة فحسب لا مشكلة ، وكأنه لم تعد ثمة مشكلة فى الوجود ، الوجود نفسه - أثقل مشكلة فى الحياة - لم يعد مشكلة ، ولكن اشرب واغرق فى القبل ..

- ما ألطفك اذا ضحكت بلا سبب !

- اذا ضحكت بلا سبب فاعلمى أن الأسباب أجل من أن تذكر ..

- ١٧ -

عاد عبد المنعم الى السكرية ملتفا فى معطفه ، يحبك من آن لآخر طاقتة ليتقى برد الشتاء القارص ، وكان الظلام شاملا رغم أن الساعة لم تجاوز السادسة مساء . وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور الأول وتسلل الشبح اللطيف الذى كان ينتظر . وخفق قلبه وجعل يحملق فى الظلام بعينين متقدتين . وتابع شبحها وهو يرقى فى السلم فى خفة وحذر ان يحدث صوتا ، فوجد نفسه موزعا بين رغبة تغريه بالاستسلام وارادة تحثه على السيطرة على أعصابه التى تلوح بالخيانة والانهيار . وذكر - الآن فقط ! - أنها واعدته الليلة من قبل ، وقد كان بوسعه أن يقدم موعد عودته أو يؤخره فيتجنب هذا اللقاء ، ولكنه نسى ذلك كله ، لشد ما ينسى !. ولم يكن ثمة وقت للتدبر والتذكر ، فليترك هذا الى حينه ، عند ما يخلو الى نفسه فى حجرته ، الى تلك اللحظة التى ستشهده . منتصرا ظافرا أو منهزما مغلوبا على أمره . وارتقى السلم فى أعقابها دون أن يعزم على أمر ، ملقيا بنفسه فى خضم الامتحان ، ولم يكن شىء لينسيه آلام صراعه الأبدى . وفوق البسطة خيل اليه ان شبحها

يضخم حتى ملأ عليه المكان والزمان . وقال وهو يخفى قلقه ويضمر الصمود مهما كلفه الأمر :

ـ مساء الخير . . .

فجاء الصوت الرقيق يقول :

ـ مساء الخير ، أشكرك لأنك سمعت نصيحتى ولبست معطفك . .

فغلبه التأثر لرقتها ، وذابت فى حلقه كلمة أوشك أن يجبهها بها ، ثم قال مداريا ارتباكه :

ـ خشيت أن تمطر السماء . .

فرفعت رأسها الى أعلى كأنما تنظر الى السماء ، وقالت :

ـ ستمطر عاجلا أو آجلا ، ليس فى السماء نجم ، وقد ميزتك بصعوبة عند ما دخلت الحارة .

فاستجمع قواه المتلاطمة ، وقال فيما يشبه التحذير :

ـ الجو بارد ، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة ! .

فقالت الصغيرة بصراحة تعلمتها على يديه :

ـ لا أشعر بالبرد فى قربك . .

فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل ، ونم حاله على أنه سيعاود الخطأ على رغمه ، وجعل يستعدى ارادته ليتغلب على الرجفة السارية فى بدنه ، فسألته :

ـ ما لك لا تتكلم ؟ .

واحس بيدها على منكبه تضغطه برقة ، فما تمالك أن طوقها بذراعه ، وقبلها قبلة طويلة ، ثم أمطرها قبلات ، حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثا :

ـ لا أطيق البعد عنك . .

فواصل عناقه متداويا فى حضنها ، وهى تهمس فى أذنه :

ـ اتمنى لو ابقى هكذا الى الأبد . .

فشد عليها الوثاق قائلا بصوت متهدج :

ـ يا للأسف ! .

فتباعد رأسها فى الظلام قليلا ، وهى تتساءل :

ـ علام تأسف يا حبيبى ؟ .

فقال بعد تردد :

ـ على الخطأ الذى نتردى فيه ..

ـ اى خطأ بالله ؟ .

تخلص منها برقة ، وراح يخلع معطفه ، فطواه ، ثم هم بأن يضعه على الدرابزين ، ولكنه عدل عن فكرته فى اللحظة الأخيرة ـ لحظة هائلة ـ فثناه على ذراعه ثم تراجع الى الوراء خطوة . كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كل شىء . وعادت يدها تتلمس السبيل الى عنقه فامسك بها ، وانتظر حتى هدأت أنفاسه ، ثم قال بهدوء :

ـ هذا خطأ كبير ...

ـ اى خطأ ؟! ، لست أفهم شيئا ..

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، انت تعبث بها اشباعا لرغبة لا ترحم ، ولن يكون لهذا العبث من غاية ، ليس الا عبثا تجلب به غضب الله ومقتـه .

ـ يجب ان تفهمى ، انستطيع أن نعلن ما نفعل ؟ .

ـ نعلنه ؟ .

ـ انظرى كيف تستنكرين !. ولكن لماذا لانعلنه ان لم يكن عيبا مزريا ؟.

وشعر بيدها تتصيده ، فارتقى الى اولى درجات السلم التاليـة ، وكان مطمئنا الى انه جاز منطقة الخطر بسلام .

ـ اعترفى باننا مخطئان ، فلا ينبغى أن نصر على الخطأ ..

ـ عجيب أن اسمع منك هذا الكلام .

ـ لا عجب ، ان ضميرى لم يعد يتحمل الخطيئة ، انها تعذبنى وتفسد على صلاتى ...

« صامتة ! . آذيتها فليسـامحنى الله ، يا للألم ، ولكنى لن اتراجع ، احمد الله على أن الخطأ لم يدفعك الى ما هو شر منه ... » .

ـ يجب ان يكون ما حصل درسا لنا فلا نعود الى مثله ، انت صغيرة ، وقد اخطأت ، فلا تجرى مرة أخرى وراء الخطأ .

وقالت فى نبرات باكية :

ـ لم اخطىء ، اتنوى هجرى ؟ . ماذا تقصد ؟ .

وكان قد تمالك قوته فقال :

ـ عودى الى بيتك ، لا تفعلى شيئا ترين وجوب التستر عليه ، لا تقابلى احدا فى الظلام ..

فقال الصوت متهدجا :

ــ أتهجرنى ؟ . أنسيت كلامك عن حبنا ؟ .

ــ كلام من لا عقل له ، أنت مخطئة ، ليكن هذا درسا لك ، احذرى الظلام فقد تكون فيه نهايتك ، أنت صغيرة ، فمن أين لك هذه الجرأة ؟!.

تردد فى الظلام انتحابها ، ولكنه لم يرقق قلبــه ، كان منتشيا بلذة نصر قاســية :

ــ عى كل كلمة ، ولا تغضبى ، واذكرى اننى لو كنت نذلا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضى عليك . استودعك الله . .

ورقى فى السلم وثبا . انتهى من العذاب ، ولن يكون طعمة لأنيــاب النوم ، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ على المنوفى : أن مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة ، أجل ليذكر هذا . وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب ، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة :

ــ أريد ان أخلو الى والدى فى حجرة المكتب ، فانتظر قليلا من فضلك .

وفى طريقه الى الحجرة رجا والده أن يتبعه ، فرفعت خديجة راسها اليه متسائلة :

ــ خير ؟ . . .

ــ سأحدث أبى أولا ، ثم يأتى دورك .

وتبعه ابراهيم شوكت صامتا . كان الرجل قد ركب طاقم أســنانه الجديد ، وعاودته طمأنينته الخاملة بعد ان واجه الحياة بلا اسنان ستة أشهر كاملة . وجلسا جنبا الى جنب والأب يقول :

ــ خير ان شاء الله ؟ .

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد :

ــ أريد يا أبى أن أتزوج ! .

فحملق الرجل فى وجهه ، ثم قطب باسما كأنه لم يفهم شيئا ، وهز راسه فى حيرة ، ثم قال :

ــ الزواج ؟ ، كل أمر رهن بوقته ، لماذا تحدثنى عن ذلك الآن ؟

ــ أريد أن أتزوج الآن . .

ــ الآن ؟ ! ، ما زلت فى الثامنة عشرة من عمرك ، الا تنتظر حتى تأخذ شــهادتك ؟

ـ لا استطيع . . .

وهنا فتح الباب ودخلت خديجة ، وهى تتساءل :

ـ ماذا يدور وراء الباب ؟، هل توجد أسرار تحل لأبيك وتحرم على؟

فقطب عبد المنعم متنرفزا ، على حين راح ابراهيم يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول :

ـ عبد المنعم يريد أن يتزوج . .

فتفحصته خديجة كأنما تخاف عليه الجنون ، وهتفت :

ـ يتزوج ! ، ماذا اسمع ؟ ، هل قررت أن تترك الجامعة ؟

فقال عبد المنعم بصوت قوى غاضب :

ـ قلت انى أريد أن أتزوج لا أن أهرب من المدرسة ، سأواصل الدراسة متزوجا ، هذا كل ما هنالك . .

فقالت خديجة وهى تردد عينيها بينه وبين أبيه :

ـ عبد المنعم ألنت جاد حقا ؟

فصاح :

ـ كل الجد . . .

فضربت المرأة كفا على كف وقالت :

ـ أصابتك عين ، ماذا حصل لعقلك يا ابنى ؟

فنهض عبد المنعم غاضبا وهو يقول :

ـ ما الذى جاء بك ؟ ، كنت أريد أن أختلى بأبى أولا ولكنك لا صبر لك ، أصغيا الى ، أريد أن أتزوج ، أمامى عامان حتى أنتهى من دراستى، وأنت يا أبى تستطيع أن تعولنى هذين العامين ، لولا تأكدى من هذا ، ما عرضت طلبى . .

فجعلت خديجة تقول :

ـ يا لطف الله ! ، أكلوا عقله !

ـ من هم الذين أكلوا عقلى ؟

ـ الله بهم أعلم ، منهم لله ، أنت أدرى بهم ، وسنعرفهم عما قليل . .

فخاطب الشاب أباه قائلا :

ـ لا تصغ اليها ، انى لا أدرى حتى الساعة من التى ستكون من نصيبى ، اختاروها بأنفسكم ، أريد زوجة لائقة ، أى زوجة !

فسألته داهشة :

- أتعنى أنه لا توجد واحدة بالذات هى السبب فى هذه البلوى ؟
- ابدا ، صدقينى ، اختارى لى بنفسك ..
- وما الداعى الى السرعة اذن ؟ ، دعنى اختار لك ، اعطنى مهلة ، انها مسألة عام أو عامين ؟
فعلا صوته وهو يقول :
- انا لا اهزل ، دعينى لابى فهو يفهمنى خيرا منك !
فسأله ابوه بهدوء :
- ما وجه السرعة ؟
فقال عبد المنعم وهو يغض بصره :
- لا استطيع البقاء دون زواج ..
فتساءلت خديجة :
- وآلاف الشبان امثالك كيف يستطيعون ؟
فقال الشاب مخاطبا اباه :
- لا اقبل أن افعل ما يفعله الآخرون !
فتفكر ابراهيم قليلا ، ثم قال حسما للموقف :
- يكفى هذا الآن ، وسنعود الى الموضوع فى فرصة أخرى ..

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها ، واخذها من يدها فغادرا الحجرة الى مجلسهما فى الصالة . وتحادث الزوجان مقلبين الأمر على جميع وجوهه . وبعد اخذ ورد طويلين مال ابراهيم الى تأييد مطلب ابنه ، وتولى بنفسه اقناع زوجه ، حتى سلم بالمبدأ ، وعند ذلك قال ابراهيم :
- عندنا نعيمة بنت اخى ، فلن نتعب فى البحث عن عروس ..
فقالت خديجة باستسلام :
- أنا التي اقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث المرحوم اكراما لعائشة ، فلا اعتراض لى على اختيار نعيمة زوجة لابنى ، ان سعادة عائشة تهمنى جدا كما تعلم ، ولكنى اخاف تفكيرها ، وأحسب الف حساب للشذوذ الذى طرأ عليها ، الم نلمح امامها مرات عن رغبتنا فى تزويج نعيمة من عبد المنعم ؟ ، ومع ذلك خيل الى انها كانت ترحب بابن جميل الحمزاوى عند ما قيل ان والده طلب له يدها ..
- هذا تاريخ قديم ، مضى عليه عام او أكثر ، والحمد لله انه لم يتم ،

فما كان يشرفنى أن يأخذ بنت أخى شـاب مثله مهما تكن وظيفتـه ، الاصل عندى كل شيء ، نعيمة عندنا على العين والرأس ..

فقالت خديجة وهى تتنهد :

ــ على العين والراس ، ترى ماذا يقول ابى عن هذا اللعب اذا علم به ؟!

فقال ابراهيم :

ــ سيرحب به دون شك ، كل شيء يبدو كالحلم ، ولكنى لن اندم ، فانى موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يغتفر ، ما دام فى الامكان تحقيقها !.

- ١٨ -

لم يطرأ على البيت القديم بين القصرين اى تغيير يذكر ، الا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبـان وابو سريع صاحب المقلى وبيومى الشربائلى ، كل اولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى ان اليـوم تزوج حفيدة السيد احمـد من ابن عمهـا ــ وخالتهـا ــ عبد المنعم . حافظ السيد احمد على تقاليده القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام ، فاقتصر على دعوة الأهل ، غاية الأمر أن اعدت العدة لوليمة عشاء . وكان الوقت فى مطلع الصيف ، وقد اجتمعوا جميعا فى حجرة الاستقبال ، السيد أحمد عبد الجواد وأمينة وخديجة وابراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد وياسين وزنوبة ورضوان وكريمة ، ماعدا نعيمة التى كانت تأخذ زينتها فى الدور الأعلى بمعاونة عائشـة . ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقى على الاجتماع العائلى ظلا من الوقار الذى لا تستسيغه المناسـبة السعيدة ، فانتقل عقب الاستقبال بقليـل الى حجرته ، حيث لبث ينتظر حضـور المأذون . وكان السيد قد صفى تجارته وباع الدكان مؤثرا الراحة لشـيخوخته ، لا لأنه بلغ الخامسـة والستين فحسب ، ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوى اضطره الى بذل نشـاط مضاعف لم يعد يحتمله ، فقرر انهاء حيـاته العملية ، قانعا بما تخلف له من تصفية دكانه وما ادخر من مال من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر . وكان حدثا هاما فى حياة الأسرة ، جعل كمال يتساءل عن

حقيقة الدور الذى كان يلعبه جميل الحمزاوى فى حياتهم عامة وحياة أبيه خاصة . ولبث السيد فى حجرته منفردا ، يتأمل أحداث اليوم فى صمت ، كائما لا يصدق حقا أن العريس هو عبد المنعم حفيده . ويوم فاتحه ابراهيم شوكت فى الأمر عجب ، واستنكر ، كيف تسمح لابنك بأن يحدثك بهذه الصراحة وأن يملى ارادته عليك ، انكم آباء خلقتم لافساد الأجيال ، ولو فى غير الظرف الذى يدرك دقته لقال لا ، ولكن كانت هناك عائشة ، فحيال تماستها تخلى عن عناده التقليدى كله ، ولم يطق - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوى من تعليقات - أن يخيب لها رجاء ، واذا كان زواج نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلا به وسهلا . هكذا دفعه الحرج الى أن يقول نعم ، وأن يسمح للصبيان أن يملوا ارادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة. ودعا عبدالمنعم الى مقابلته ، وطلب اليه أن يتعهد باتمام دراسته ، فتكلم عبدالمنعم كلاما جميلا مريحا مستشهدا فى أثناء ذلك بالقرآن والحديث ، فترك فى نفس جده آثارا متباينة من الاعجاب والسخرية . هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين ان كمال لم يفكر فى الزواج بعد ، وعلى حين رفض هو يوما أن تعلن خطبة المرحوم فهمى - مجرد اعلان خطبة - الذى مات قبل أن يجنى ثمرة شبابه الغض ، وهكذا يبدو أن العالم قد انقلب على رأسه ، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب ، وأننا غرباء بين أهلينا ، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندرى ماذا يصنعون غدا .

وفى حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل :

- لذلك أخلينا الدورالثانى من سكانه ، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال .

فقال لها ياسين بلهجة غادرة :

- عندك كافة المواهب التى تجعل منك « حماة » لا نظير لها ، ولكنك لن تستطيعى استغلال مواهبك الفذة مع هذه العروس !

فأدركت ما يرمى اليه ، ولكنها تجاهلته قائلة :

- العروس ابنتى وابنة أختى . . .

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين :

- خديجة هانم سيدة كاملة !

فشكرتها خديجة ، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام اكراما

لياسين ، على الرغم من احتقارها الباطنى لها . وكانت كريمة تتـألق فى سنها العاشرة مما جعل ياسين ينوه بأنوثتها المنتظرة !. اما عبد المنعم فراح يحادث جدته أمينة المعجبة بتدينه ، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له . وسأل كمال احمد ممازحا :

ـ وأنت تتزوج فى العام المقبل ؟

فقال احمد ضاحكا :

ـ الا اذا اتبعت سنتك يا خالى !

وكانت زنوبة تتابع حديثهما ، فقال موجهة الخطاب الى كمال :

ـ لو سمح لى سى كمال فانى أعد بأن أزوجه فى أيام !

فقال لها ياسين وهو يشير الى نفسه :

ـ انى مستعد لأن أسمح لك عن نفسى !

فقالت وهى تهز رأسها تهكما :

ـ لقد تزوجت بما فيه الكفاية ، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك . .

وانتبهت أمينة الى موضوع الحديث ، فقالت لزنوبة :

ـ اذا زوجت كمال ، فسأحاول أن أزغرد لأول مرة فى حياتى !

وتخيل كمال أمه وهى تزغرد فضحك ، ثم تخيل نفســه فى مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم . الزواج يهيج دوامة فى أعماقه كما يهيج الشـتاء الربو عند المريض ، وهو يرفضـه عند كل مناسـبة ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهله ، وهو خالى القلب ولكنه يضيق بخلوه كما كان يضيق قديما بامتلائه ، واليوم اذا أراد الزواج فليس أمامه الا الطريق التقليدى الذى يبدأ بالخاطبة ، وينتهى بالأسرة والأطفـال والاندماج فى ميكانيزم الحياة ، فلا يكاد يجد المولع بالتأمل موضعا للتأمل ، وسـوف يرى الزواج دائما أبدا فى مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى ، أما فى نهاية العمر فلن تجد الا الوحدة والكآبة . .

السـعيدة حقا فى ذلك اليوم كانت عائشـة . لأول مرة منذ تسع سنوات تحلت بثوب جميل وعقصت شعرها . وكانت ترقب ابنتهـا التى تبدت كقبضة من نور بعينين حالمتين ، فاذا غلبهـا الدمع اخفت عنها وجهها الشاحب الذابل . وقد لمحتها أمها مرة وهى تبكى ، فنظرت اليها معاتبة وهى تقول :

ـ لا يصح أن تترك نعيمة البيت وفى قلبها حزن !

فانتحبت عائشة قائلة :

- الا ترينها وحيدة فى هذا اليوم لا اب ولا أخ ؟

فقالت أمينة :

- البركة فى أمها ، ربنا يخليها لها ، وهى ذاهبة الى خالتها وعمها ، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله . .

فجففت عائشة عينيها وهى تقول :

- ذكريات الأموات الأعزاء تغمرنى من طلعة الصبح ، ووجوههم تلوح لى ، ثم اننى بعد ذهابها سأبقى وحيدة . .

فقالت أمينة فى عتاب :

- لست وحيدة . .

وكانت نعيمة تربت خد أمها وتقول :

- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما ؟

فتجيبها عائشة بحنان وهى تبتسم :

- سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين !

فقالت نعيمة بقلق :

- ستزورينني كل يوم ، كنت تتحاشين الاقتراب من السكرية ، ولكن يجب أن تتخلى عن هذه العادة منذ اليوم .

- طبعا ، هل تشكين فى ذلك ؟

واذا بكمال يقبل عليهما قائلا :

- إستعدا ، جاء المأذون . .

وعلقت عيناه بنعيمة فى اعجاب . يا للجمال ، والرقة ، والشفافية ، كيف يكون للحيوانية دور فى هذا الكائن اللطيف ! ؟

ولما عرف أن الكتاب قد كتب ، تبودلت التهانى ، واذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع فى جوه الصامت ، فاتجهت الرءوس فى دهش الى حيث وقفت أم حنفى فى نهاية الصالة . ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون الى المائدة ، انقبض صدر عائشة وتركز تفكيرها فى الفراق الوشيك ، فلم تنفتح نفسها للطعام . ثم جاءت أم حنفى فأبلغت أن الشيخ متولى عبد الصمد جالس على الأرض فى الحوش ، وانه طلب عشاءه خاصة من اللحوم ، فضحك السيد وأمر بأن تهيأ له صينية وتحمل اليه . وما لبث أن ترامى اليهم صوته صاعداً من الحوش وهو

يدعو بطول العمر لحبيبه « ابن عبد الجواد » ، ويتساءل فى الوقت نفسه عن أسماء ابنائه واحفاده ليدعو لهم ! فقال السيد باسما :

ـ يا للخسارة !.. نسى الشيخ متولى اسماءكم ، سامح الله الشيخوخة . .

فقال ابراهيم شوكت :

ـ انه فى المائة من عمره ، أليس كذلك ؟.

فأجاب أحمد عبد الجواد بالايجاب ؛ وعند ذاك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح :

ـ باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم !

فضحك السيد قائلا :

ـ سر ولايته قاصر اليوم على اللحوم !

وحين ساعة الوداع سبق كمال الى الحوش ليتجنب ذلك المنظر . ومع أنه لم يزد على انتقال يسير الى السكرية الا انه كان ذا وقع شديد كالصدع فى قلبى الأم وابنتها . والواقع أن كمال كان ينظر الى هذا الزواج بعين ملؤها الشك ، بالنظر الى جدارة نعيمة للحياة الزوجية . وفى الحوش رأى الشيخ متولى عبد الصمد جالسا على الأرض تحت المصباح الكهربائى المثبت فى جدار البيت ليضىء المكان ، مادا ساقيه ، مرتديا جلبابا أبيض باهتا وطاقية بيضاء ، خالعا نعليه مستندا الى الجدار كالنائم ليريح جوفه مما امتلأ به من طعام . ورأى بين ساقيه ماء يسيل ، فادرك من النظرة الأولى أن الشيخ يبول وهو لا يشعر ، وكانت انفاسه تتردد فتسمع كالفحيح . حدجه كمال بنظرة جمعت بين التقزز والرثاء ، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغمه ، وقال لنفسه :

ـ لعله كان طفلا مدللا عام ١٨٣٠ !

- ١٩ -

في اليوم التالى مباشرة ذهبت عائشة لزيارة السكرية . طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم الا لزيارة القرافة . فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابنى ياسين الصغيرين . وقفت قليلا عند مدخل السكرية تلقى على المكان نظرة شاملة ، حتى غطى الدمع ناظريها . على الأرض أمام مدخل البيت التى أشبعتها أقدام عثمان ومحمد جريا ولعبا ، والحوش الذى ازدان يوما بحفل عرسها البهيج ، والمنظرة التى كان يجلس فيها خليل يدخن غليونه ويلعب الطاولة والدومينو ، ذلك شذا الماضى العطر المشبع بالحنان والحب المفقودين ، وهى سعيدة ، سعادة سارت مسير الأمثال ، حتى قيل عنها الضاحكة المترنمة التى لا شغل لها الا مضاحكة المرآة ومصاحبة الزينة ، والزوج يناجى والأطفال يثبون ، تلك الأيام الماضية . وجففت عينيها حتى لا تلقى العروس باكية . جففت عينين ما تزالان زرقاوين وان تساقطت أهدابهما وذبلت جفونهما . ووجدت الشقة قد جددت مرافقها وطليت جدرانها فبدت ثغرا باسما فى جهاز العروس الذى انفق عليه بسخاء . واستقبلتها نعيمة فى فستان أبيض هفاف ، وقد أرسلت شعرها الذهبى حتى مست أهدابه باطن الساقين ، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف ساحر ، فتعانقا عناقا طويلا حارا ، حتى قال عبد المنعم ، وكان ينتظر دوره فى السلام فى روب جنزارى شمل به جلبابه الحريرى :

ـ كفاية ، أقل سلام يكفى هذا الفراق الوهمى !

ثم عانق خالته ، ومضى بها الى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول :

ـ كنا فى سيرتك ياخالتى ، فقر رأينا على أن ندعوك للاقامة معنا . .؟!

فابتسمت عائشة قائلة :

ـ أما هذا فلا ، سأزوركم كل يوم فتكون فرصة للفسحة ، ما أحوجنى الى الحركة . .

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة :

ـ نعومة قالت لى انك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات ، ان الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن ، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد ، ونحن أولادك فقد عوضك الله !

هذا الشاب طيب صريح ولكنه لا يبالى اين يقع كلامه من القلوب الجريحة .

ـ طبعا يا عبد المنعم ، ولكنى مرتاحة فى بيتى ، هذا أفضل ..

واذا بخديجة وابراهيم واحمد يدخلون ، فيصافحونها ، ثم تقول خديجة لعائشة :

ـ لو عرفت أن هذا الذى يعيدك الى زيارتنا لزوجتهما قبل البلوغ !.

فضحكت عائشة ، وقالت تذكر خديجة بالماضى البعيد :

ـ المطبخ واحد ؟ ! . الم تطالب العروس بالاستقلال عن حماتها ؟ .

فضحكت خديجة وابراهيم معا ، وقالت خديجة بلهجة لم تخل من معنى :

ـ العروس كأمها لا تعنى بالسفاسف !.

وقال ابراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة :

ـ بدأت المعارك بين أمكما وأمى بسبب مشكلة المطبخ الذى كانت امى تستقل به ، ومطالبة امكما بالاستقلال المطبخى ..

فقال العريس متعجبا :

ـ كنت تتعاركين يا نينة بسبب المطبخ !.

فقال أحمد ضاحكا :

ـ وهل من سبب للمعارك التى تدور بين الأمم الا هذا المطبخ ؟ ! .

فقال ابراهيم فى تهكم :

ـ امكما قوية كانجلترا ، أما أمى فرحمة الله عليها ..

وجاء كمال . كان يرتدى بدلة بيضاء انيقة ؛ أما وجهه فيتكون من الطاقم المألوف المركب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ ، وكان يحمل بيده لفة كبيرة بشرت بهدية ممتازة ، فقالت خديجة باسمة وهى تتفحص الهدية :

ـ حذار يا أخى ، اذا لم تتدارك نفسك بالزواج فستظل تجىء بالهدايا دون أن يرد لك الجميل ، الأسرة كلها اليوم موشكة على الزواج ، هذا أحمد ، وهناك رضوان وكريمة ، تدارك نفسك بالتى هى احسن !.

وساله احمد :

ـ بدأت العطلة المدرسية يا خالى ؟ .

فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو الى العروس الجميلة :

ـ لم تبق الا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح فى الابتدائية !

وغابت نعيمة لتعود مرة اخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى ، مختلفة الألوان والطعوم ، فمضت فترة لم تسمع خلالها الا التمطق والمصمصة . ثم راح ابراهيم يحكى ذكريات فرحه ، الحفل ، والمغنى ، والعالمة . وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون ، وتابعه كمال بشغف اذ كان يعيد عليه صورا مازال يذكر بعضها ويود لو يعرف ما فاته منها . قال ابراهيم ضاحكا :

ـ السيد احمد كان كما هو اليوم او اشد ، ولكن أمى رحمها الله قالت بحزم : ليفعل السيد ما يشاء فى بيته ، أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء ، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير جميعا ، أذكر منهم السيد محمد عفت جد رضوان ، فجلسوا جميعا فى المنظرة بعيدا عن الرباط ! .

وقالت خديجة :

ـ أحيت الليلة جليلة اشهر عالمة فى عصرها . .

وابتسم قلب كمال ، وذكر البدرونة العجوز التى ما تزال تنوه بعهد أبيه ! . .

وقال ابراهيم مسترقا النظر الى عائشة :

ـ وكان لنا عالمة خصوصية لبيتنا ، ولكن صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة ، كان يذكرنا بصوت منيرة المهدية فى عزها !.

فتورد وجه عائشة ، وقالت بهدوء :

ـ سكت صوتها منذ عهد بعيد ، حتى نسيت الغناء . .

فقال كمال :

ـ نعيمة تغنى كذلك . ألم تسمعها ؟.

فقال ابراهيم :

ـ سمعت عنها ولكنى لم أسمعها بعد ، الحق انا عرفناها شيخة لا عالمة !. بالامس قلت لها : زوجك شيخ المؤمنين ، ولكن ينبغى أن تؤجلى الصلاة والعبادة الى حين !

وضحكوا جميعا . وقال احمد مخاطبا اخاه :

ــ لاينقص عروسك الا أن تضمها الى شعبة الشيخ علىالمنوفىمعك . .

فقال العريس :

ــ ان شيخنا أول من نصحنى بالزواج . .

فقال أحمد مخاطبا كمال :

ــ لعل الاخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسى ! .

والتفت ابراهيم الى كمال قائلا :

ــ اما أنت فكنت ــ أقصد أيام دخلتي ــ صغيرا ، وكان شعرك غزيرا لا كما هو اليوم ، وكنت تتهمنا بسرقة اختيك فلم تغفر لنا ذلك ابدا . .

« كنت ميدانا خاليا لم تبدأ به المعارك بعد ، يتحدثون عن سعادة الزواج ، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون ! ، نعيمة اعز على من أن يملها مخلوق ، أى شىء لا ينكشف عن خدمة فى هذه الحياة ؟ ! » .

قالت خديجة معلقة على قول زوجها :

ــ كنا نظن ذلك حبا لنا ، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس الا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر ! .

وضحك كمال كما ضحكوا جميعا . انه يحب خديجة ، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له ، اما تعصب العريس فشد مايزعجه ، ولكنه من ناحية اخرى يحب أحمد ويعجب به ، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به فى كل مناسبة ، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به ، فانتشى قلبه وحواسه ، ووجد حنينا وأن يكن بلاهدف ، ثم تساءل كائما يتساءل لأول مرة : ماذا يمنعنى من الزواج ؟ . . حياة الفكر كما كان يزعم قديما ؟ ! ، انى اشك اليوم فى الفكر والمفكر معا ، أهو الخوف ، أم الانتقام ، أم الرغبة فى الألم ، أم رد الفعل الصادر من الحب القديم ؟ . فى حياتى مسوغ لأى من هذه الأسباب !.

وسأل ابراهيم شوكت كمال :

ــ أتدرى لماذا آسف على عزوبتك ؟ .

ــ نعم ؟ . . .

ــ انى اعتقد انك زوج مثالى اذا تزوجت ، فانت رجل بيت بطبعك ، منظم ، مستقيم ، موظف محترم ، ولا شك انه توجد فتاة فى مكان ما من الأرض تستحقك ، وانت مضيع عليها حظها ! .

حتى البغال تنطق أحيانا بالحكم ؛ فتـاة فى مكان ما من الأرض ولكن أين ؟ أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو الا كافر فاسق سكير منافق ! ، فتاة فى مكان ما من الأرض ، فلعله غير بيت جليلة بعطفة الجوهرى ، وهذه الآلام التى تتطاحن فى قلبه ما علتها ؟. والحيرة التى لا مهرب منها الا بالخمر والشهوات ! ، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد ، وشد ما طمح الى الخلود فى شتى أشكاله وألوانه ، فهل يركن يائسا فى النهاية الى هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة ؟ . وثمة أمل أن يجىء الموت بلا الم يشوه راحته الأبدية ، كم بدا الموت مخيفا لا معنى له ؛ ولكنه ـ بعد ان فقدت الحياة كل معانيها ـ يبدو اللذة الحقيقية فى الحيـاة ، ما اعجب العاكفين على العلم فى معاملهم ، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم فى المهالك فى سبيل الدستور ، أما الذين يدورون حول أنفسهم فى حيرة وعذاب فالرحمة لهم ! ، وردد بصره بين احمـد وعبد المنعم فى اعجاب مقرون بالغبطة ، ان الجيل الجديد يشق سبيله العسير الى هدف بين دون شك أو حيرة ، ترى ما سر دائى الوبيل ؟! .

قال احمد : .

ـ سأدعو العروسـين ووالدى وخالتى الى لوج فى الريحانى الخميس القـادم .

فتساءلت خديجة :

ـ الريحانى ؟ . .

فقال لها ابراهيم مفسرا :

ـ كشكش بك ! .

فضحكت خديجة وقالت :

ـ كاد ياسـين يطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضـوان ليلة الى كشكش ! .

فقال أحمد باستهانة :

ـ كان زمان وجبر ، جدى الآن لايمانع فى ذهاب جدتى الى كشكش بك ! .

فقالت خديجة :

ـ خذ العروسين وأباك ، أما أنا فكفاية على الراديو . .

وقالت عائشة :

ـ وكفاية على أنا بيتكم . .

وراحت خديجة تقص قصة ياسين وكشكش بك حتى حانت من كمال نظرة الى ساعته فتذكر موعد رياض قلدس، فنهض مستأذنا فى الانصراف.

- ٣٠ -

ـ استطيع ان تستمتع بجمال الطبيعة حقا بالرغم من آن الامتحان لم يبق عليه الا أيام ؟.

كان السائل طالبا ، والمسئول طالبا كذلك ، فى جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف دائرة فوق هضبة خضراء فى أعلاها كشك خشبى احتله طلاب آخرون ، وعلى مرمى البصر تراءت جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخللها مماشى الفسيفساء . قال الطالب المسئول :

ـ كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية ، رغم اقتراب الامتحان .

كان عبد المنعم شوكت جالسا فى محيط نصف الدائرة ، وكذلك احمد شوكت ، فقال عبد المنعم :

ـ الزواج ، بخلاف ما تظنون ، يهيىء للطالب أحسن فرصة للنجاح .

فقال حلمى عزت ، وكان يجلس لصق رضوان ياسين فى الطرف الآخر من نصف الدائرة :

ـ هذا اذا كان الزوج من الاخوان المسلمين !.

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤى ، رغم ما أثاره الحديث فى نفسه من غم . أجل أن سيرة الزواج تثير قلقه ، فلا يدرى أن كان يقدم يوما على هذه المغامرة ام لا ، مغامرة مخيفة بقدر ما هى ضرورية ، ولكن ما ابعدها عن روحه وجسده ! . وتساءل طالب :

ـ وما الاخوان المسلمون ؟ .

فأجابه حلمى عزت :

ـ جمعية دينية تهدف الى احياء الاسلام علما وعملا ، الم تسمع بشعبها التى بدأت تتكون فى الأحياء ؟ .

ـ غير الشبان المسلمين ؟ .

- نعم ...
- وما الفرق ؟ .
فأجاب وهو يشير الى عبد المنعم شوكت :
- سل الأخ ...
فقال عبد المنعم بصوته القوى :
- لسنا جمعيـة للتعليم والتهذيب فحسب ، ولـكننا نحـاول فهم الاسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم ..
- أهذا كلام يقال فى القرن العشرين ؟ .
فقال الصوت القوى :
- وفى القرن العشرين بعد المائة ..
- احترنا يا هوه بين الديموقراطية والفاشستية والشـيوعية ، هذا خازوق جديد ! .
فقال أحمد ضاحكا :
- لكنه خازوق ربانى ! .
فعلت ضجة ضحك ، الا ان عبد المنعم حدجه بنظرة غاضبة ، وكان رضوان ياسين ساءه التعبير ، فقال :
- خازوق تعبير غير موفق .
وعاد الطالب يسأل عبد المنعم :
- وهل ترجمون الناس اذا خالفوكم ؟
- إن الشـبان يتهددهم زيغ فى العقيدة ، وانحلال فى الخلق ، وليس الرجم بأشد مايستحقونه ، ولكننا لا نرجم ، وانما بالموعظة الحسنة والمثال الطيب نهدى ونرشد ، وآية ذلك أن بيتنا يضم ، أخا ممن يستحقون الرجم ، وها هو يمرح أمامكم ، ويتطاول على خالقه سبحانه ! .
فضحك أحمد ، وقال حلمى عزت مخاطبا اياه :
- اذا آنست من اخيـك خطرا ، فانى أدعوك للاقامة معى فى الدرب الأحمـر ...
- أ أنت مثله ؟ .
- كلا ، ولـكننا معشر الوفديين قوم متسـامحون ، المستشـار الأول لزعيمنا قبطى ، هكذا نحن ...
وعاد الطالب الأول يقول :

ـ كيف تدعون الى هـذا الهراء فى نفس الشهر الذى الغيت فيـه الامتيازات الأجنبية ؟ .

فقال عبد المنعم متسائلا :

ـ انبطل ديننا اكراما للأجانب ؟

واذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان فى واد آخر :

ـ الغيت الامتيازات ، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون . . .

فقال حلمى عزت :

ـ هؤلاء النقاد غير مخلصين ، انها الكراهية والحسـد ، أن الاستقلال الحقيقى الكامل لا يؤخذ الا بالحرب ، فكيف يطمعون فى أن ننال بالكلام اكثر مما نلنا ؟ .

فجاء صوت يقول فى ضجر :

ـ دعونا نتساءل عن المستقبل ! .

ـ المستقبل لايبحث فى شهر مايو والامتحان على الأبواب ، اريحونا . . لن اعود الى الكلية بعد اليوم حتى يتسع لى الوقت للمذاكرة . .

ـ مهلا ، ان الوظائف لا تنتظرنا ، ما مستقبل الحقوق او الآداب ؟ . . التسكع أو الوظائف الكتابية ، تساءلوا عن المستقبل اذا شئتم . . .

ـ أما وقد الغيت الامتيازات فستتفتح الأبواب !.

ـ الأبواب ؟ ! . السكان أكثر من الأبواب . .

ـ اسمعوا ، النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت ابوابها مغلقة ، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف ، فهل يعجز عن توظيفنا ؟.

ولاح فى اقصى الحديقة سرب ، فانعقدت الألسنة واتجهت نحوه الرءوس، كان مكونا من أربع فتيات قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة . لم تكد تميزهن الأبصـار بعد ، ولكنهن تقدمن متمهلات يسـقن الأمل فى رؤيتهن عن قريب ، اذ كان المر الذى يسرن فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب فى مسيره نحو الشمال . وصرن فى مجال البصر ، ورددت الألسن أسماءهن وأسماء كلياتهن ، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر نحو احداهن « علوية صبرى » ، وجذب الاسم شوارد نفسه ، فتاة ذات جمال تركى ممصر ، معتدلة الطول نحيلة ، بيضاء ذات شعر أسود فاحم ، وعينين سوداوين واسعتين عاليتى الجفون، مقرونة الحاجبين ، ذات سمت أرستقراطى ولفتات رفيعة ، والى ذلك كله

فهى زميلة فى القسم الاعدادى ، وقد علم ـ والباحث يظفر بمعلومات شتى ـ انها سجلت اسمها مثله فى قسم الاجتماع ، ولم تكن تهيأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة ، ولكنها أثارت اهتمامه من أول نظـرة . طالما رمق ملاحة نعيمة باعجاب ولكنها لم تهز أعمـاقه ، هذه الفتـاة لها شأن ، فليبشر قريبا بصداقة العقل ، والقلب . . ؟ !

قال حلمى عزت عقب توارى السرب عن الأنظار :

ـ عما قريب تصبح كلية الآداب وكأنها كلية بنات ! .

فقال رضوان ياسين وهو يردد بصره بين طلاب الآداب فى نصف الدائرة :

ـ لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون من زياراتكم فى كليتكم فيما بين الحصص ، فالغرض مفضوح ! .

ثم ضحك ضحكة عالية . ولكنه لم يكن سعيدا فى تلك اللحظة ، فان حديث الفتيات يثير فى نفسه اضطرابا وحزنا .

ـ لم يقبل الفتيات على كلية الآداب ؟ .

ـ لأن وظيفة التدريس هى أوسع الوظائف صدرا لهن . .

فقال حلمى عزت :

ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائية ، الروج والمانيكور والكحل والشعر والقصص ، كلها باب واحد ! .

فضحكوا جميعا حتى احمد ، وبقية طلاب الآداب ضحكوا رغم تأهبهم للاحتجاج ، ثم قال أحمد :

ـ يصدق هذا الحكم الجائر على الطب ، فطالما كان التمريض نسائيا ، أما الحق الذى لم يستقر بعد فى نفوسكم .فهو الايمان بالمساواة بين الرجل والمراة .

قال عبد المنعم باسما :

ـ لا أدرى ان كان مدحا ام ذما أن نقول للنساء انهن مثلنا ! .

ـ اذا تعلق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذم . .

فقال عبد المنعم :

ـ لقد سوى الاسلام بين الرجل والمراة فيما عدا الميراث .

فقال أحمد متهكما :

ـ حتى فى الرق ساوى بينهما !

فاحتد عبد المنعم قائلا :

ـ أنتم لا تعرفون دينكم ، هذه هى المأساة ! .

والتفت حلمي عزت الى رضوان ياسين ، وسأله باسما :

ـ ماذا تعرف عن الاسلام ؟

فسأله الآخر بنفس لهجته :

ـ وماذا تعرف أنت عنه ؟ .

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد :

ـ وأنت ماذا تعرف عنه حتى لا تهرف بما لا تعرف ؟ .

فقال أحمد بهدوء :

ـ اعرف انه دين ، وحسبي ذلك ، لا اومن بالأديان ! . .

فتساءل عبد المنعم مستنكرا :

ـ الديك برهان على بطلان الأديان ؟ .

ـ الديك انت برهان على حقيقتها ؟ .

فقال عبد المنعم ، وقد ارتفع صوته حتى جعل الشاب الذى يجلس بينه وبين أخيه يردد رأسه بينهما كالمنزعج :

ـ عندى ، وعند كل مؤمن ، ولكن دعنى أسألك أولا كيف تعيش ؟.

ـ بايمانى الخاص ، ايمانى بالعالم وبالانسانية وبالغد ، وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية الى تمهيد الأرض لبناء جديد . .

ـ هدمت كل ما الانسان انسان به . .

ـ بل قل ان بقاء عقيدة اكثر من الف سنة آية لا على قوتها ، ولكن على حطة بعض بنى الانسان ، ذلك ضد معنى الحياة المتجددة ، ما يصلح لى وأنا طفل يجب أن اغيره وأنا رجل ، طالما كان الانسان عبدا للطبيعة والانسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان بالمذاهب التقدمية ، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة !

فقال عبد المنعم ، وكان فى تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له :

ـ الالحاد سهل ، حل سهل هروبى ، هروبى من الواجبات التى يلتزمها المؤمن حيال ربه ونفسه والناس ، وليس من برهان على الالحاد يمكن أن يعد أقوى من البرهان على الايمان ، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا . .

وتدخل رضوان قائلا :

- لا تستسلما لعنف المناقشة ، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد ..

واذا بحلمى عزت يندفع قائلا ، وكان أحيانا تعتريه نوبات ثائرة غامضة :

- ايمان .. انسانية .. الغد ! ، كلام فارغ ، النظام القائم على العلم وحده ينبغى أن يكون كل شيء ، يجب أن نؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشرى بكافة انواعه ، ومهما بدا عملنا قاسيا ، وذلك للوصول بالبشرية الى مثال قوى نظيف !

- أهذه مبادىء الوفد الجديدة بعد المعاهدة ؟

فضحك حلمى عزت ضحكة عادت به الى حالته الطبيعية ، وقال عنه رضوان :

- انه حقا وفدى ، ولكن تطوف به أحيانا مذاهب طارئة غريبة فيدعو الى القتل بالجملة ، وربما دل ذلك على أنه لم ينم أمس نوما مريحا !

وكان لشدة الخصام رد فعل فساد الصمت ، فسر بذلك رضوان ، وسرح ببصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحداة المدومة فى السماء ، أو يرنو الى أسراب النخيل . الكل يعلن رأيه حتى ما يتهجم به على الخالق ، ولكنه لا يسعه الا أن يكتم ما يضطرم فى اعماق نفسه ، وسيظل سرا مرعبا يتهدده ، فهو كالمطارد ، أو كالغريب ، من الذى قسم البشر الى طبيعى وشاذ ؟ ، وكيف تكون الخصم والحكم فى آن ؟ ، ولم نهزأ كثيرا بالتعساء ؟ . قال رضوان مخاطبا عبد المنعم :

- لا تزعل ، ان للدين ربا يحميه ، أما انت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبا !

حقا ... ؟ !

فقال أحمد مداعبا أخاه ليمسح عنه آثار الحدة :

- أهون على أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك !

ثم مضى أحمد يحدث نفسه : غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته الى السكرية صدرا حانيا ، أمن المستحيل أن أعود يوما فأجد علوية صبرى فى الدور الأول بالسكرية ؟

وندت عنه ضحكة ، ولكن أحدا لم يخمن السبب الحقيقى لضحكته ..

- ٢١ -

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى فى حركة غير مألوفة ، ففى الحديقة وقف اناس كثيرون ، وفى الفراندا جلس آخرون ، وكثر الداخل والخارج ، فلكز حلمى عزت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت ، وقال له بارتياح :

ـ لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم . .

وعند ما اخذا يشقان سبيلهما الى الداخل ، هتف بعض الشبان « يحيا التضامن » فتورد وجه رضوان تأثرا . كان متحمسا ثائرا مثلهم ، بيد أنه ساءل نفسه فى قلق . ترى الا يشك احد فى الجانب غير السياسى من زياراته ؟. وقد أفضى مرة بمخاوفه الى حلمى عزت ، فقال له : « ان الريبة لا تلحق الا بالخوّاف ! ، سر مرفوع الراس ثابت الأقدام ، يجدر بالذين يعدون أنفسهم للحياة العامة ألا يكترثوا لآراء الناس أكثر مما يجب ! » . وكان بهو الاستقبال مكتظا بالجالسين ، منهم طلبة وعمال وبعض أعضاء الهيئة الوفدية ، وفى صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى ، متجهما على غير عادته ، جادا صارما ، تكتنفه هالة الرجل السياسى الخطير . وتقدما اليه فنهض لاستقبالهما فى رزانة ، وصافحهما ثم اشار لهما بالجلوس . وقال أحد الجالسين ، وكان قد توقف عن الحديث اثناء استقبال الشابين :

ـ شد ما فوجىء الرأى العام وهو يطلع على أسماء الوزراء الجدد ، فلا يجد بينهم النقراشى !

فقال عبد الرحيم باشا عيسى :

ـ توقعنا عند الاستقالة امرا ، خاصة وان الاختلاف كان قد ذاع حتى تحدثت به المقاهى ؟ ولكن النقراشى ليس كغيره من أعضاء الوفد ، لقد فصل الوفد من قبل كثيرين فلم تقم لهم قائمة ، أما النقراشى فله شأن آخر ، ولا تنسوا أن النقراشى معناه أحمد ماهر أيضا ، هما الوفد ، الوفد المجاهد المناضل المحارب ، سلوا المشانق والسجون والقنابل ، وليس الخلاف هذه المرة بالذى يشين الخارج ، هى نزاهة الحكم ، قضية

القضايا ، واذا وقع المحذور وانشق الوفد ، فالوفد هو الذى سيحرج لا النقراشى ولا ماهر !

ـ لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرا ..

ووقع هذا القول من اذنى رضوان موقعا غريبا ، فلم يكن مما يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب فى بيئة وفدية صميمة . واذا بآخر يقول :

ـ مكرم عبيد هو أس هذا الشر كله يا سعادة الباشا ..

فقال عبد الرحيم باشا :

ـ ليس الآخرون اصفارا !

ـ لكنه هو الذى لا يطيق منافسيه ، انه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك ، واذا خلا له الجو من ماهر والنقراشى فلن يقف فى سبيله شىء ..

ـ لو امكنه ازالة النحاس نفسه لأزاله .

فقال شيخ من الجلوس :

ـ ازجوكم ، لا تسرفوا فى القول ، قد تعود المياه الى مجاريها ..

ـ بعد أن تألفت الوزارة دون النقراشى ؟

ـ كل شىء ممكن ..

ـ كان من الممكن هذا على عهد سعد ، أما النحاس فرجل عنيد ، وهو اذا ركب راسه ...

وهنا دخل البهو رجل مهرولا ، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل :

ـ متى حدث ؟ ، كيف الحال فى الاسكندرية ؟

ـ عال .. عال ، استقبل النقراشى فى محطة سيدى جابر استقبالا شعبيا منقطع النظير ، وهتفت له الجماهير المثقفة من الأعماق ، الجميع غاضبون ، الكل ثائر لنزاهة الحكم ، هتفوا : يحيا النقراشى النزيه .. يحيا النقراشى ابن سعد .. وهتف كثيرون يحيا النقراشى زعيم الأمة ..

وكان الرجل يتكلم بصوت مرتفع ، فردد هتافه كثيرون حتى اضطر عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيا الى التزام الهدوء . وعاد الرجل يقول :

ـ الرأى العام ساخط على الوزارة ، غاضب لاخراج النقراشى منها ، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوض ، وارتضى أن يؤيد الشيطان ضد الملاك الطاهر . .

وهنا قال عبد الرحيم باشا :

ـ نحن الآن فى اغسطس ، وفى اكتوبر تفتتح الجامعة ، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة ، يجب ان نستعد منذ الآن للمظاهرات ، فاما أن يثوب النحاس الى رشده ، واما فليذهب الى الهاوية . .

فقال حلمى عزت :

ـ استطيع أن أؤكد ان مظاهرات الجامعيين ستتدفق على بيت النقراشى . . .

فقال عبد الرحيم باشا :

ـ كل شىء يحتاج الى التنظيم ، اجتمعوا بانصارنا من الطلبة واعدوا العدة ، وفضلا عن هذا فان الأخبار التى عندى تؤكد أن كثرة لا تصدق من النواب والشيوخ سينضمون الينا . .

ـ النقراشى هو خالق لجان الوفد ، لا تنسوا ذلك ، ان تلغرافات الولاء لتسابق الى مكتبه صباح مساء . . .

وتساءل رضوان ماذا يحدث فى الدنيا ؟ ، ترى اينقسم الوفد مرة اخرى ؟ ، وهل يتحمل مسئولية ذلك حقا مكرم عبيد ؟ ، وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذى نهض برسالته ثمانية عشر عاما ؟ . وطال الأخذ والرد ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصة بالدعاية وتدبير المظاهرات ، ثم أخذوا فى الانصراف حتى لم يبق فى البهو الا الباشا ورضوان وحلمى عزت . وعند ذاك دعاهما للجلوس فى الفراندا ، فمضيا وراءه ، وجلس ثلاثتهم حول منضدة ، وسرعان ما حملت اليهم أقداح الليمون . وما لبث أن تراءى عند الباب رجل فى الأربعين ، عرفه رضوان فى بعض زياراته السابقة ، يدعى على مهران ، يعمل وكيلا للباشا ، وكان منظره يوحى بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون . وكان يصطحب معه شابا فى العشرين من عمره ، جميل المحيا ، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنه من أهل الفن . وقد اقبل على مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا ، وصافح الشابين ، ثم قدم الشاب قائلا :

- الاستاذ عطية جودت ، مغنى ناشىء لكنه موهوب ، وقد سبق أن حدثتك عنه يا معالى الباشا !

فلبس الباشا نظارته التىكان وضعها على المنضدة ، وتفحص الشاب بعناية ، ثم قال باسما :

- اهلا وسهلا يا سى عطية ، سمعت عنك كثيرا ، فلعلنا نسمعك هذه المرة ..

فدعا له الشاب باسما ، ثم جلس ، على حين مال على مهران على الباشا وهو يقول :

- كيف حال عمى ؟

هكذا كان يخاطب الباشا اذا زالت دواعى الكلفة ، واجابه الرجل باسما :

- احسن منك الف مرة !

فقال على مهران جادا على خلاف عادته :

- يتهامسون فىبار الانجلو عنوزارة قومية قريبة برياسة النقراشى.؟

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم :

- لسنا من المستوزرين !

وتساءل رضوان باهتمام وقلق :

- على اى اساس ؟ ، طبعا لا استطيع أن اتصور أن يقوم النقراشى بانقلاب سياسى كمحمد محمود أو اسماعيل صدقى ؟

فقال على مهران :

- انقلاب ! ، كلا . المسالة تنحصر الآن فى اقناع اكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام الينا ، ولا تنس أن الملك معنا ، فعلى ماهر يعمل بحكمة واناة !

وعاد رضوان يتساءل فى كآبة :

- أنكون فى النهاية من رجال السراى ؟

فقال عبد الرحيم باشا :

- العبارة واحدة ولكن المعنى تغير ، فاروق غير فؤاد ، والظرف غير الظرف ، الملك شاب وطنى متحمس ، وهو مجنى عليه أمام هجمات النحاس الجائرة !

ففرك على مهران يديه فى حبور وهو يقول :

- ترى متى نهنىء الباشا بالوزارة ؟ ، وهل تختارنى وكيلا لوزارتك كما اخترتنى وكيلا لأعمالك ؟

فقال الباشا ضاحكا :

- بل اعينك مديرا عاما للسجون ، فان مكانك الطبيعى هو السجن .

- السجن ؟ ، لـكنهم يقولون ان السجن للجدعان ؟ !

- ولغيرهم ، فليطمئن بالك !

ثم ركبه الضجر فجاة فهتف :

- حسبنا سياسة ، غيروا الجو من فضلكم ..

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلا

- ماذا تسمعنا ؟

فأجاب عنه على مهران :

- الباشا سميع وابن حظ ، واذا رقت فى نظره تفتحت لك أبواب الاذاعة ..

فقال عطية جودت برقة :

- لحنت أخيرا اغنية « شبكونى وشبكوه » وهى من تاليف الأستاذ مهران !

فرمق الباشا وكيله ، وسأله :

- منذ متى تؤلف أغانى ؟ .

- المجاور فى الأزهر سبع سنوات ، غرقت فيها فى مفاعيل وفعلاتن؟ .

- وما للأزهر واغانيك الخليعة ؟ ، شبكونى وشبكوه ! ، من هو يا حضرة المجاور ؟ .

- المعنى يا معالى الباشا فى ذقن الباشا ! .

- يا بن الهرمة ! .

ونادى على مهران السفرجى ، فسأله الباشا :

- لماذا تناديه ؟ .

- ليهيىء لنا مجلس الطرب ! .

فقال الرجل وهو ينهض :

- انتظروا حتى أصلى العشاء ! .

فتساءل مهران باسما فى خبث :

- الم ينقض سلامنا وضوءك ! .

- ٢٢ -

غادر احمد عبد الجواد بيته . ناقلا خطاه على مهل، متوكئا على عصاه. لم يعد اليوم كالأمس ، فمنذ ان صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته الا مرة واحدة فى اليوم ، كى يعفى نفسه ما استطاع من الجهد الذى يتحمله قلبه عند ارتقاء السلم . ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر الا أنه رأى أن يرتدى ملابسه الصوفية ، اذ أن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذى كان يمرح فيه الجسم البدين القوى الذى كان. والعصا التى صاحبته منذ الصغر رمزا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكأة فى مشيته المتمهلة ، التى لا يطيقها قلبه الا بجهد ومشقة . ولكن بقى له رونقه واناقته ، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة ، ويتطيب بالعطر الفواح متمتعا بجمال الشيخوخة ووقارها . وعند ما اقترب من الدكان مالت نحوها عيناه بحركة لا ارادية . رفعت اللافتة التى حملت اسمه واسم أبيه أعواما وأعواما ، وتغير مظهر الدكان ومخبرها ، فانقلب دكان طرابيش للبيع والكى ، وتقدمها الوابور والقوالب النحاسية . وتخايلت لعينيه لافتة وهمية ، لم ترها عين سواه ، عالنته بأن زمانه قد ولى ، زمان الجد والكفاح والمسرات ، وها هو فى ركن المعاش ينزوى ، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار . وتقبض القلب الذى طالما - وما زال - يهيم بحب الدنيا وأفراحها ، حتى أن الايمان نفسه لم يكن فى نظره الا مسرة من مسراتها ودافعا الى أحضانها ، فلم يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التى تدير الظهر للدنيا وتتطلع الى الآخرة وحدها. لم تعد الدكان دكانه ، ولكن كيف تمحى ذكراها من ذهنه وهى التى كانت مركز النشاط ، ومحط الأنظار ، وملتقى الأصحاب والأحباب ، ومبعث العزة والجاه ؟. « ولك ان تعزى نفسك فتقول : زوجنا البنات ، وربينا الصبيان ، ورأينا الأحفاد ، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت ، وذقنا حلو الدنيا سنين - سنين حقا ؟ - وآن لنا أن نشكر، والشكر لله واجب، دائما وأبدا ، ولكن آه من الحنين ، وسامح الله الزمن ، الزمن الذى مجرد حياته - حياته التى لا تتوقف لحظة - خيانة وأى خيانة للانسان . لو أن

الاحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدثنى عن الماضى ، لتخبرنى أحقا كان هذا الجسم يهد الجبال ؟ ، وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان ؟ ، وهذا الثغر لا يمسك عن الضحك ؟ ، وهذا الشعور لا يعرف الألم ؟ ، وهذه الصورة معلقة فى كل قلب ؟ ، ومرة اخرى سامح الله الزمن ! » .

وعندما انتهى به المسير الوئيد الى جامع الحسين ، خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة . ومضى الى المنبر حيث وجد فى انتظاره محمد عفت وابراهيم الفار فصلوا المغرب جميعا ، ثم غادروا المسجد متجهين نحو الطمبكشية لزيارة على عبد الرحيم . كان ثلاثتهم قد اعتزلوا العمل ليتفرغوا لمقاومة الأمراض ، غير أنهم كانوا أحسن حالا من على عبدالرحيم الذى لم يعد بوسعه أن يفارق الفراش ، وقال السيد احمد متنهداً :

ـ يخيل الى انى عما قريب لن أستطيع الذهاب الى الجامع الا راكبا . .

ـ الحال من بعضه . .

فعاد الرجل يقول فى قلق :

ـ شد ما أخاف أن اضطر الى ملازمة الفراش كالسيد على ، انى ادعو الله أن يكرمنى بالموت قبل أن يدركنى العجز . .

ـ ربنا يكفيك ويكفينا كل سوء . .

فبدا كالخائف وهو يقول :

ـ غنيم حميدو لبث مشلولا فى الفراش زهاء العام ، وصادق الماوردى عانى هذا العذاب شهورا ، فاللهم أكرمنا بالنهاية السريعة اذا حم القضاء .

فضحك محمد عفت قائلا :

ـ اذا غلبتك الافكار السوداء انقلبت امرأة ، وحد الله يا أخى ! . .

ولما بلغوا بيت على عبد الرحيم أدخلوا الى حجرته ، فبادرهم يقول فى جزع :

ـ تأخرتم عن ميعادكم ، سامحكم الله . .

بان ضجر الرقاد فى عينيه ، فلم يعد يعرف الابتسام الا ساعة اجتماعه بهم ، وجعل يقول :

ـ لا عمل لى طول اليوم الا الاستماع الى الراديو ، ماذا كنت أصنع لو تأخر استعماله فى مصر عن اليوم ! ، كل ما يذيعه يطيب لى ، حتى المحاضرات التى لا اكاد افهمها ، ومع ذلك فلم نكبر الى الحد الذى يستوعب هذا العذاب ، أجدادنا كانوا يتزوجون فى مثل أعمارنا !.

فغلبت روح الفكاهة احمد عبد الجواد ، فقال :

ــ فكرة !. ما رأيكم فى أن نتزوج من جديد ، لعل ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض ؟! .

فابتسم على عبد الرحيم ــ كان يتجنب الضحك أن تدركه نوبة سعال فتؤذى قلبه ــ وقال :

ــ معكم ! . اختاروا لى عروسا ، ولكن صارحوها بأن العريس لا يستطيع الحركة ، وعليها الباقى . .

وهنا خاطبه الفار ، وكأنما تذكر أمرا فجأة :

ــ احمد عبد الجواد سيسبقك الى رؤية وليد حفيدته ، ربنا يمد فى عمره ! .

ــ مبارك مقدما يا بن عبد الجواد ! .

ولكن السيد أحمد تجهم قائلا :

ــ نعيمة حبلى حقا ولكنى غير مطمئن ، ما زلت أذكر ما قيل عن قلبها يوم مولدها ، طالما حاولت أن أنسى ذلك عبثا . .

ــ يا لك من رجل جاحد ، منذ متى تؤمن بنبوءات الأطباء ؟ .

فضحك السيد أحمد قائلا :

ــ منذ باتت اللقمة التى أتناولها على غير مشورتهم تؤرقنى حتى مطلع الفجر . . .

فتساءل على عبد الرحيم ؟

ــ ورحمة ربنا ؟! .

ــ الحمد لله رب العالمين .

ثم مستدركا :

ــ لست بالغافل عن رحمة الله ، ولكن الخوف يبعث على الخوف ، والحق فان نعيمة لا تهمنى بقدر ما تهمنى عائشة يا على ، عائشة هى مركز القلق فى حياتى ، التعيسة المسكينة ، سأتركها اذا تركتها وحيدة فى هذه الدنيا . . .

فقال ابراهيم الفار :

ــ ربنا موجود ، وهو الراعى الأكبر . .

وساد الصمت مليا ، حتى قطعه صوت على عبد الرحيم قائلا :

ــ وسيأتى دورى بعدك فى رؤية وليد حفيدتى . .

فضحك السيد أحمد قائلا :

ـ سامح الله البنات ، فإنهن يكبرن أهلهن قبل الأوان .

فهتف محمد عفت :

ـ يا عجوز ، اعترف بالكبر وكفاك مكابرة . .

ـ لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبى فيسوق العوج ، أصبح قلبى كالطفل المدلل . .

فقال ابراهيم الفار وهو يهز راسه أسفا :

ـ يا له من عام ذلك العام الماضى ، كان علينا شديدا ، فما ترك واحدا منا سليما كأننا كنا على ميعاد !

ـ على رأى عبد الوهاب : لنعيش سوا لنموت سوا . .

فضحكوا معا ، واذا بعلى عبد الرحيم يغير لهجته ويتساءل جادا :

ـ اهذا يصح ؟ ، أعنى ما فعله النقراشى ؟ .

فتجهم وجه أحمد عبد الجواد وقال :

ـ كم أملنا أن تعود المياه الى مجاريها ، استغفر الله العظيم . .

ـ أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء !.

ـ فى هذا الزمن كل جميل يضيع هباء . .

وعاد أحمد عبد الجواد يقول :

ـ لم أحزن لشىء كما حزنت لخروج النقراشى ، ماكان ينبغى أن يذهب به الخصام الى هذا الحد . .

ـ ترى ما النهاية التى تنتظره ؟ .

ـ النهـاية المحتومة ، أين الباسـل والشمسى ؟. لقد قضى الرجـل المجاهد على نفسه واخذ فى رجليه احمد ماهر . .

وهنا قال محمد متنرفزا :

ـ دعونا من هذه السيرة ! . أنا أكاد أطلق السياسة !.

وخطر للفار خاطر ، فتساءل باسما :

ـ لو اضطررنا ـ لا سمح الله ـ الى ملازمة الفراش كالسـيد على ، فكيف نتقابل ونتحادث ؟ .

فتمتم محمد عفت :

ـ قال الله ولا قالك . .

فضحك أحمد عبد الجواد وقال :

— لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو ، كما يخاطب بابا « سخام » الأطفال ! ...

وضحكوا جميعا . واخرج محمد عفت ساعته ونظر فيها ، ولكن على عبد الرحيم جزع وقال :

— ستبقون معى حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا يقول ، ملعون أبوه وأبو أيامه ..

— ٢٣ —

كانت الغورية تغلق أبوابها ، فقلت السابلة واشتدت البرودة . وكان الزمن أواسط ديسمبر ، ولكن الشتاء جاء متعجلا ذلك العام . ولم يكن كمال قد وجد صعوبة فى جذب رياض قلدس الى حى الحسين ، أجل كان الشاب غريبا عن الحى ، ولكنه وجد من نفسه شوقا للتقلب فى انحائه ، والجلوس فى مقاهيه . وكان قد مضى على تعارفهما فى مجلة الفكر أكثر من عام ونصف عام ، لم يمر أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين ، بخلاف العطلة التى كانت تجمع بينهما كل مساء على وجه التقريب فى مجلة الفكر ، أو بيت بين القصرين ، أو بيت رياض بمنشية البكرى ، أو مقاهى عماد الدين ، أو قهوة الحسين الكبرى التى لجأ اليها كمال بعد أن اتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخية فمحتها من الوجود الى الأبد . كانا سعيدين بصداقتهما ، وقد قال كمال لنفسه مرة « جعلت أفتقد حسين شداد أعواما ، وظل مكانه شاغرا ، حتى ملأه رياض قلدس » ففى محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذاك الانبثاق الذى يبلغ نشوته فى عناق الفكر المتبادل ، هذا على الرغم من انهما لم يكونا شيئا واحدا ، وان كانا متكاملين فيما بدا . وظلت صداقتهما شعورا متبادلا فى صمت ، لم ينوها به ، فلم يقل أحدهما للآخر « انت الصديق » ولا قال له « لا اتصور الحياة بدونك » ولكن كان ذلك كذلك . وعلى برودة الجو لم تفتر رغبتهما فى السير ، فقررا أن يسيرا على الأقدام حتى قهوة عماد الدين . ولم يكن رياض قلدس سعيدا ذلك المساء ، كان يقول بانفعال شديد :

ـ انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب ، فليست اقالة النحاس الا هزيمة للشعب فى نضاله التاريخى مع السراى ..

فقال كمال فى أسف :

ـ ثبت الآن أن فاروق كأبيه ..

ـ فاروق ليس المسئول وحده ، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون ، فهذه يد على ماهر ومحمد محمود ، ومن المبكى أن ينضم الى أعداء الشعب اثنان من أبنائه ، ماهر والنقراشى ، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب ..

ثم استطرد بعد صمت قليل :

ـ ليس الانجليز اليوم فى الميدان ، ولكن الشعب والملك وجها لوجه ، الاستقلال ليس كل شىء ، هنالك حق الشعب المقدس فى أن يتمتع بسيادته وحقوقه ، ليحيا حياة الانسان لا حياة العبيد ..

لم يكن كمال غارقا فى السياسة كرياض ، اجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبثت حية فى عواطفه ، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه ، وأن كان عقله لا يدرى أين المقر . عقله يقول حينا « حقوق الانسان » وحينا آخر يقول « بل البقاء للأصلح وما الجماهير الا قطيع » وربما قال « والشيوعية اليست تجربة جديرة بالاختبار ؟ » . أما قلبه فلم يتخلص من عواطفه الشعبية التى صاحبته منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمى ، أما رياض فكانت السياسة جوهرا أصيلا فى نشاطه الذهنى . وعاد رياض يقول :

ـ ايمكن أن ننسى الاهانة التى تلقاها مكرم فى ميدان عابدين ؟. وهذه الاقالة المجرمة ، سب وقذف وبصقة فى وجه الأمة ؟ . والحقد الأعمى يجعل البعض يهللون ، واحسرتاه ..

فقال له كمال مداعبا :

ـ انت غاضب لمكرم ! .

فقال رياض دون تردد :

ـ ان الاقباط جميعا وفديون ، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة ، ليس حزبا دينيا تركيا كالحزب الوطنى ، ولكنه حزب القومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم ، أعداء

الشعب يعلمون ذلك ، ولذلك كان الأقباط هدفا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقى ، وسيعانون ذلك منذ اليوم . .

ورحب كمال بهذه الصراحة التى تشهد لصداقتهما بالكمال ، غير أنه راق له أن يتساءل فى دعابة :

ـ ها أنت تتحدث عن الأقباط !. أنت الذى لايؤمن الا بالعلم والفن !.

فلاذ رياض بالصمت . وكانا قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد فى شىء من العنف . ثم مرا فى طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال الى تناول بعض منها ، وما لبث أن أخذ كل منهما طبقا صغيرا وانتحيا جانبا يأكلان ، وعند ذلك قال رياض :

ـ انى حر وقبطى فى آن ، بل انى لا دينى وقبطى معا ، أشعر فى أحايين كثيرة بأن المسيحية وطنى لا دينى ، وربما اذا عرضت هذا الشعور على عقلى اضطربت . ولكن مهلا ، أليس من الجبن أن أنسى قومى ؟ . شىء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنازع ، الا وهو الفناء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول ، ان النحاس مسلم دين ، ولكنه قومى بكل معنى الكلمة أيضا ، فلا نشعر حياله الا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطى ، بوسعى ان أعيش سعيدا دون أن أكدر صفوى بهذه الأفكار ، ولكن الحياة الحقة مسئولية فى الوقت نفسه .

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف . كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التى تذكره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى فى نفسه . « ان موقف رياض له وجاهته التى لا تجحد ، وأنا نفسى ـ بين عقلى وقلبى ـ شخص يعانى انقسام الشخصية ، فكذلك هو ، كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها ؟ . وجدارة الرسالات السامية تقاس عادة بما تحققه من سعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثل فى الأخذ بيد المضطهدين » . قال :

ـ لا تؤاخذنى ، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية ، فمنذ البدء لقنتنى أمى أن أحب الجميع ، ثم شببت فى جو الثورة المطهر من شوائب التعصب ، فلم أعرف هذه المشكلة .

فقال رياض وهما يستأنفان المسير :

ـ المرجو الا تكون ثمة مشكلة على الاطلاق ، يؤسفنى أن أصارحك بأننا نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة . لست متعصبا ، ولكن

من يستهين بحق انسان فى أقصى الأرض ـ لا فى بيته ـ فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعا ...

ـ جميل هذا القول ، لا عجب أن رسالات الانسانية الحقة كثيرا ما تنبعث من أوساط الأقلية ، أو من رجال مشغولى الضمائر بالأقليات البشرية ، ولكن ثمة متعصبون دائما ...

ـ دائما وفى كل مكان ، الانسان حديث والحيوان قديم ، وهم عندكم يعتبروننا كفارا ملاعين ، وهم عندنا يعتبرونكم كفارا مغتصبين ، ويقولون عن انفسهم انهم سلالة ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية ...

فضحك كمال ضحكة عالية ، وقال :

ـ هذا قولنا وذاك قولكم ، ترى الاصل فى هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة ابدا الى الخصام ؟ ! ، لا المسلمون على وفاق ، ولا المسيحيون على وفاق ، وستجد نزاعا مستمرا بين الشيعى والسنى ، وبين الحجازى والعراقى ، كالذى بين الوفدى والدستورى ، وطالب الآداب وطالب العلوم ، والنادى الأهلى والترسانة ، لكن رغم ذلك كله فشد ما نحزن اذا طالعنا فى الصحف خبر زلزال باليابان ! ، اسمع ، لماذا لا تعالج ذلك فى قصصك ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ مشكلة الأقباط والمسلمين ...

فصمت رياض قلدس مليا ، ثم قال :

ـ إخاف سوء الفهم ...

ثم مستطردا بعد فترة صمت أخرى :

ـ ثم لا تنس أننا رغم كل شىء فى عصرنا الذهبى ، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح فى الماضى أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم ...

ـ وكيف نستاصل هذه المشكلة من جذورها ؟

ـ من حسن الحظ انها ذابت فى مشكلة الشعب كله ، مشكلة الاقباط اليوم هى مشكلة الشعب ، اذا اضطهد اضطهدنا ، واذا تحرر تحررنا ..

« السعادة والسلام .. ذلك الحلم المنشود ، قلبك يحيا بالحب وحده ، فمتى يعرف عقلى سبيله ؟ ، متى أقول بلهجة ابن أختى عبد المنعم

« نعم . نعم » ؟ ، ان صداقتى لرياض علمتنى كيف أقرأ قصصه ، ولكن كيف أومن بالفن ، فى الوقت الذى وجدت الفلسفة نفسها قصورا غير صالحة للسكنى ؟ » .

وسأله رياض فجأة ، وهو يسترق اليه النظر :

ــ فيم تفكر الآن ؟ . . أصدقنى !

وفطن الى ما وراء سؤاله ، فأجابه بصراحة :

ــ كنت أفكر فى قصصك .

ــ ألم تتألم لصراحتى ؟

ــ أنا ! ، سامحك الله . .

فضحك كالمعتذر ، ثم سأل :

ــ أقرأت قصتى الأخيرة ؟

ــ نعم ، وهى لطيفة ، ولكن يخيل الى أن الفن نشاط غير جدى ، مع ملاحظة انى لا ادرى ايهما اخطر فى حياة الانسانية : الجد أم اللهو ؟! ، انت مثقف ثقافة علمية عالية ، ولعلك أدرى « غير العلماء » بالعلم ، ولكن نشاطك كله يضيع فى كتابة القصص ، وانى لأتساءل أحيانا : ماذا افدت من العلم ؟

فقال رياض قلدس فى حماسة :

ــ أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة ، والاخلاص لها ، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة ، والنزاهة فى الحكم ، والتسامح الشامل مع المخلوقات . . .

كلمات ضخمة ، ولكن ما علاقتها بلهاة القصص ؟ . ونظر رياض قلدس اليه ، فقرأ الشك فى وجهه ، فضحك عاليا ثم قال :

ــ أنت تسىء الظن بالفن ، ولكن عزائى أن شيئا فى الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك ، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا ، أنت مثلا ــ رغم موقفك الشكى ــ تحب وتتعامل وتشارك مشاركة ما فى حياة بلدك السياسية ، ووراء كل ناحية من هذه النواحى مبدأ شعورى أو لا شعورى لا يقل عن الايمان قوة ، الفن هو المعبر عن عالم الانسان ، والى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه فى معركة الآراء العالمية ، فانقلب الفن على يديه عدة من عدد الكفاح فى ميدان الجهاد العالمى ، لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى . .

دفاع عن الفن أم عن قيمة الفنان ؟. لو أن لبائع اللب قدرة على الجدل لدلل على أنه يلعب دورا خطيرا فى حياة البشر ، ولا يبعد ان يكون لكل شىء قيمة ذاتية ، ولا يبعد كذلك الا يكون لشىء قيمة البتة ، كم مليونا من البشر يلفظون أنفاسهم فى هذه اللحظة ؟ ، فى الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة ، أو صوت عاشق يبث الليل والكون متاعب قلبه ، أضحك أم أبكى ؟. قال :

ــ لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية ، دعنى أخبرك بأنها تنعكس على صورة مصغرة فى أسرتنا ، لى ابن اخت من الاخوان ، وآخر من الشيوعيين !

ــ ينبغى أن يكون لها صورة فى كل بيت ، عاجلا أو آجلا ، لم نعد نعيش فى قمقم ، وأنت ألم تفكر فى هذه الأمور ؟

ــ قرأت عن الشيوعية ضمن دراستى للفلسفة المادية ، كما قرأت كتبا عن الفاشستية والنازية ..

ــ تقرأ وتفهم ، مؤرخ بلا تاريخ ، أرجو أن تعد يوم خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد ..

فاستاء كمال لهذه الملاحظة ، لأنها نقد لاذع من ناحية ، ولأنها لا تخلو من حق من ناحية أخرى ، ثم قال متهربا من التعقيب عليها :

ــ كل من الشيوعى والاخوانى فى أسرتنا على غير علم مكين بما يؤمن به !

ــ الايمان ارادة لا علم ، ان أتفه مسيحى اليوم يعرف عن المسيحية أضعاف ما عرف الشهداء ، كذلك عندكم فى الاسلام ..

ــ وهل تؤمن أنت بمذهب من هذه المذاهب ؟

فقال رياض بعد تفكر :

ــ لاشك فى احتقارى للفاشستية والنازية وكافة النظم الدكتاتورية ، أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالما خاليا من مآسى الخلافات العنصرية والدينية والمنازعات الطبقية ، بيد ان اهتمامى الأول مركز فى فنى ..

فقال كمال وكان فى صوته دعابة :

ــ ولكن الاسلام قد خلق هذا العالم الذى تتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام ...

ــ لكنه دين ، الشيوعية علم أما الدين فأسطورة ..

ثم مستدركا وهو يبتسم :

ــ ونحن نتعامل مع المسلمين لا الاسلام ..

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شـدة البرودة ، فتوقف رياض فجأة وهو يتساءل :

ــ ما رأيك فى عشاء من المكرونة والنبيذ الجيد ؟

ــ لا اشرب فى الأماكن المأهولة ، فلنذهب الى قهوة عكاشة اذا شئت ...

فضحك رياض قلدس قائلا :

ــ كيف تطيق هذا الوقار كله ؟ ، نظارة وشارب وتقاليد ! ، حررت عقلك من كل قيد ، اما جسمك فكله قيود ، أنت خلقت ــ بجسمك على الأقل ــ لتكون مدرسا ..

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة اليمة ، فقد اشترك فى حفل ميلاد احد زملائه ، وشربوا جميعا حتى سكروا ، وهناك حمل احدهم عليه معرضا براسه وانفه حتى أضحك الجميع . واذا ذكر انفه او راسه فقد ذكر عايدة ، وتلك الايام ، عايدة خالقة انفه وراسه ، ومن عجب ان يغيض الحب فيمسى لا شيء ، ثم تبقى هذه الرواسب المؤلمة..

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول :

ــ هلم نشرب نبيذا ونتحدث عن فن القصة ، ثم نذهب بعد ذلك الى بيت الست جليلة بعطفة الجوهرى ، واذا كنت تقول لها يا عمتى ، فسأقول لها يا خالتى ..

— ٢٤ —

كانت السكرية فى شأن ، او بمعنى اصح هكذا كانت شقة عبد المنعم شوكت . ففي حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة امينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة المولدة ، اما فى حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده ابراهيم واخوه احمد وياسين وكمال ، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلا :

ــ أعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة فى غير هذا الوقت الذى تستعد فيه للامتحان ..

كانوا فى أواخر ابريل ، وكان عبد المنعم متعبا بقدر ما كان مبتهجا ، بقدر ما كان قلقا . وكان صوت الطلق يترامى من وراء البــاب المغلق حادا يحمل كل معانى الألم ، فقال عبد المنعم :

ـ ان الحمـــل اتعبها جدا ، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل ، وكان وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة . .

فتجشأ ياسين فى ارتياح ، ثم قال :

ـ هذه أمور عادية ، وكلهن سواء . .

وقال كمال باسما :

ـ ما زلت اذكر ولادة نعيمة ،كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت ، وكنت متألما ، وكنت واقفا فى هذا المكان مع المرحوم خليل . .

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل افهم من هذا أن عسر الولادة وراثى ؟

فقال ياسين وهو يشير باصبعه الى فوق :

ـ عنده اليسر . . .

فقال عبد المنعم :

ـ جئنا بحكيمـــة معروفة فى الحى كله ، كانت امى تفضل احضـــار الداية التى ولدتنـــا ، ولكنى أصررت على الحكيمـــة ، فهى انظف وامهر بلا ريب .

فقال ياسين :

ـ طبعا ، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته .

فقال ابراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

ـ جاءها الطلق فى الصباح الباكر ، والساعة تدور الآن فى الخامســـة مساء ، مسكينة ، انها رقيقة كالخيال ، ربنا يأخذ بيدها . .

ثم وهو يردد عينيه الحالمتين فى الجالسين عامة ، وابنيــه عبد المنعم واحمد خاصة :

ـ آه لو تذكر الآلام التى تتحملها الأم !

فقال احمد ضاحكا :

ـ كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا ؟

فقال الرجل موبخا :

ـ اذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها . .

وانقطع الطلق ، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فاتجهت الرءوس اليها ، ومرت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضيا الى الباب ونقره ، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز ، فطالعها بعينين متسائلتين وهم بادخال راسه ؟ ولكنها صدته براحتيها وهى تقول :

ــ لم يأذن الله بالفرج بعد . .

ــ طال الوقت ، الا يكون طلقا كاذبا ؟

ــ الحكيمة أدرى بذلك منا ، اطمئن وادع لنا بالفرج .

واغلقت الباب ، فعاد الشاب الى مجلسه بجوار ابيه الذى علق على قلقه بقوله :

ــ اعذروه فانه محدث ولادة !

واراد كمال أن يتسلى ، فاخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتصفحها ، فقال احمد :

ــ اعلنت فى الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية .. (ثم وهو يبتسم فى سخرية) . . ويا لها من نتائج مضحكة . .

فتساءل والده دون أكتراث :

ــ لما مجموع الناجحين من الوفديين ؟

ــ ثلاثة عشر على ما أذكر .

ثم قال أحمد موجها خطابه الى خاله ياسين :

ــ لعلك مسرور يا خالى اكراما لسرور رضوان ؟

فقال ياسين وهو يهز منكبيه باستهانة :

ــ لا هو وزير ولا هو نائب ، فماذا يهمنى من الأمر كله ؟

وقال ابراهيم شوكت ضاحكا :

ــ كان الوفديون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة قد انتهى ، ولكن شهاب الدين أضرط من أخيه !

فقال أحمد فى امتعاض :

ــ الظاهر أن الاستثناء هو القاعدة فى مصر !

ــ حتى النحاس ومكرم قد سقطا فى الانتخابات ، أليس هذا هزلا ؟

وهنا قال ابراهيم شوكت فى شىء من الحدة :

ــ لكن لا ينكر أحد أنهما أساءا الأدب حيال الملك ، ان للملوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس الأمور . .

فقال أحمد :

- ان بلادنا فى حاجة الى جرعات قوية من قلة الأدب حيال الملوك ، حتى تفيق من اغمائها الطويل ..

فقال كمال :

- ولكن الكلاب يعيدونها الى الحكم المطلق ، تحت ستار برلمان مزيف ، وفى نهاية التجربة سنجد فاروق فى قوة فؤاد واستبداده او أشد ، كل هذا يرتكب بأيدى بعض أبناء الوطن ..

فضحك ياسين ، وقال وكأنه يفسر ويوضح :

- كمال ولو أنه كان على صباه من محبى الانجليز كشاهين وعدلى وثروت وحيدر ، الا أنه انقلب وفديا بعد ذلك ..

فقال كمال جادا ، وهو ينظر الى أحمد خاصة :

- انتخابات مزورة ، كل شخص فى البلد يعلم بانها مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا وتحكم بها البلاد ، ويعنى هذا ان يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم ، وان وزراءه لصوص سرقوا بالتالى مناصبهم ، وأن سلطانه وحكومته مزيفة مزورة ، وان السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادى اذا كفر بالمبادىء والخلق وآمن بالزيف والانتهازية ؟

فقال احمد متحمسا :

- دعهم يحكمون ، فى كل شر جانب خير ، ومن الافضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يخدر بحكم يحبه ويثق به دون ان يحقق له - هذا الحكم - آماله الحقيقية ، طالما فكرت فى هذا حتى انقلبت ارحب بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود واسماعيل صدقى ..

ولاحظ كمال ان عبد المنعم لا يشترك فى الحديث كعادته ، فاراد أن يجره اليه فقال :

- لماذا لا تحدثنا عن رايك ؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها ، وقال :

- دعنى اليوم أستمع ...

فضحك ياسين قائلا :

- فرفش حتى لا يجدك المولود واجما ، فيفكر فى العودة من حيث أتى ...

وندت عن ياسين حركة ادرك كمال منهـا انه يهم بانتحـال عـذر للذهاب . اجل جاء وقت القهوة ، ونظام « السـهر » عنده لا يمكن أن يغيره شيء ، وفكر كمال فى الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده ، وجعل يراقبه متوثبا ، واذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة قاسية تحمل فى طياتها انغام الأعماق البشرية ، وتتابعت الصرخات فى عنف ، وتطلعت الأعين نحو باب الحجرة ، وسـاد بينهم صمت ، حتى همس ابراهيم فى رجاء :

ـ لعله الطلق الأخير ان شاء الله . .

حقا ؟ ، بيد أنه تواصل حتى وجموا ، وامتقع لون عبد المنعم . ثم عاد الصمت مرة اخرى ولكن الى حين ، ورجع الطلق ولكنه كان خواء ، تقذف به حنجرة بحت وصدر تصدع فكأنه النزع . ودلت حال عبد المنعم على انه فى حاجة الى تشجيع ، فقال له ياسين :

ـ كل ما تسمع أحوال مالوفة فى الولادة العسيرة . .

فقال عبد المنعم بصوت متهدج :

ـ العسيرة !. العسيرة !. ولكن لماذا كانت عسيرة ؟.

وفتح البـاب فخرجت زنوبة ثم أغلقته ، فتطلعوا اليها ، فاقتربت حتى وقفت امام ياسين وقالت :

ـ كل شيء على ما يرام ، غير أن الحكيمة زيادة فى الحيطـة ترجو أن تحضروا الدكتور سيد محمد . .

فوقف عبد المنعم قائلا :

ـ لا شك أن الحال استوجبت احضاره ، خبرينى عما بها !

فقالت زنوبة بصوت هادىء مؤكد :

ـ كل شيء على ما يرام ، واذا أردت أن تزيدنا اطمئنـانا فاسرع فى احضار الطبيب . .

ولم يضع عبد المنعم وقته فمضى الى حجرته ليستكمل ملابسـه ، ومضى فى أثره احمد ، ثم خرجا معا لياتيا بالدكتور ، وعند ذاك سالها ياسين :

ـ ماذا هناك ؟

فقالت زنوبة ، وقد نم وجهها لأول مرة عن قلق :

ـ تعبانة المسكينة كان الله فى عونها .

ـ والحكيمة ألم تقل شيئا ؟

فقالت زنوبة بتسليم :

ـ قالت انها تريد الدكتور ..

وعادت زنوبة الى الحجرة تاركة وراءها ظلا ثقيلا من القلق . تساءل ياسين :

ـ أهذا الطبيب بعيد ؟

فأجابه ابراهيم شوكت :

ـ فى العمارة التى فوق قهوتك بالعتبة .

ودوت صرخة فانعقدت الألسن ، هل عاد الطلق الأليم ؟ ، ومتى يحضر الطبيب ؟ ، ودوت الصرخة مرة أخرى ، فازداد التوتر ، واذا بياسين يهتف مرتاعا :

ـ هذا صوت عائشة !

فارهفوا السمع ، وعرفوا صوت عائشة ، فقام ابراهيم الى الحجرة ونقر الباب ، ففتحت زنوبة بوجه باهت . سألها بلهفة :

ـ مالكم ؟ ، مال عائشة هانم ؟ ، أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة ؟

فقالت زنوبة وهى تزدرد ريقها :

ـ كلا .. ، الحال شديدة يا سى ابراهيم

ـ ماذا حدث ؟

ـ فجأة ، انها ... ، انظر ...

فى أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون . كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر ، خالتها وجدتها والحكيمة حولها فى الفراش ، أمها واقفة وسط الحجرة تحملق فى ابنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعى ، وكانت نعيمة مغمضة العينين ، صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن ، أما الوجه فأبيض باهت كالموت . هتفت الحكيمة « الدكتور ! » ، وجعلت أمينة تهتف « يا رب » ، وخديجة تنادى بصوت مذعور « نعيمة .. ردى على » ، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعنيها فى شىء . تساءل كمال « ماذا هنالك ؟ » وسأل أخاه فى ذهول « ماذا هنالك؟ » ولكنه لم يجبه ،

اى ولادة عسيرة ؟ ! ، ودار بصره بعائشة وابراهيم وياسين فتقهقر قلبه فى صدره ، ليس هنالك الا معنى واحد ..

ودخلوا الحجرة جميعا . لم تعد حجرة ولادة والا ما دخلوا ، وكانت عائشة فى حال بالغة الشدة ولكن احدا لم يوجه اليها كلمة . وفتحت نعيمة عينيها فبدتا مظلمتين ، واتت حركة كانما تريد أن تجلس فأجلستها جدتها وحوتها فى حضنها ، شهقت الفتاة ، وندت عنها آهة عميقة ، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث :

ـ ماما .. انا ذاهبة .. أنا ذاهبة ..

ثم سقط راسها على صدر جدتها . وضجت الحجرة بالصوات ، ولطمت خديجة خديها ، وتشهدت أمينة فى وجه الفتاة ، أما عائشة فرمت بناظريها من النافذة المطلة على السكرية ، وثبتت عينيها على ماذا ؟ ، ثم تردد صوتها كالحشرجة :

ـ ما هذا يا ربى ؟ ، ما هذا الذى تفعله ؟ ، لماذا ؟ ، لماذا ؟ ، أريد أن أفهم ..

واقترب منها ابراهيم شوكت ومد لها يده ، فأبعدتها بحركة عصبية وهى تقول :

ـ لا يلمسنى منكم أحد ، دعونى ، دعونى ..

ثم رددت بصرها بينهم قائلة :

ـ اخرجوا من فضلكم ، لا تكلمونى ، هل عندكم كلام يجدى ؟ ، لن ينفعنى الكلام ، ماتت نعيمة كما ترون ، كانت كل ما تبقى لى فلم يبق لى شىء فى الدنيا ، اذهبوا من فضلكم ..

***

كان الظلام حالكا عندما مضى ياسين وكمال فى طريقهما الى بين القصرين ، وكان ياسين يقول :

ـ ما أثقل أن نبلغ والدك الخبر !

فأجاب كمال وهو يجفف عينيه :

ـ نعم ..

ـ لا تبك ، أعصابي لم تعد تتحمل . .

فقال كمال متنهدا :

ـ كانت عزيزة جدا على ، أنا حزين جدا يا أخي ، وعائشة المسكينة !

ـ هذه هي الكارثة ! ، عائشة ! ، سننسى جميعا الا عائشة .

« سننسى جميعا ! ؟ ، لا أدرى ، أن وجهها لن يغيب عنى مدى العمر ، ولو أن لى مع النسيان تجربة فذة ، هو نعمة كبرى ، ولكن متى يجود بلسمه ؟ » . وعاد ياسين يقول :

ـ كنت متشائما عند زواجها ، الا تدرى ؟ ، لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحيـاة بعد العشرين ! ، والدك يذكر هذا في الغالب . .

ـ لا أدري شيئا ، أكانت عائشة تدرى ؟

ـ كلا ، أنه تاريخ قديم ، وقضاء الله لا بد منه . .

ـ ما أتعسك يا عائشة .

ـ أجل ما أتعسها المسكينة . .

— ٣٥ —

كان احمد ابراهيم شوكت جالسا في قاعة المطالعة بمكتبـة الجامعة ، مكبا على متابعة كتاب بين يديه . لم يكن بقى على الامتحان الا أسبوع ، وكان الجهد قد نال منه كل منال . وشـعر بأن شخصا قد دخل القاعة وجلس خلفه ، فالتفت الى الوراء مستطلعا فرأى علوية صبرى ! . نعم هى ، ولعلها جلست تنتظر كتابا استعارته . وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين ، ثم أعاد رأسه الى وضعه الأول منتشي القلب والحواس . مامن شك في أنها باتت تعرف شكله ، كما تعرف أنه مغرم بها ، فمثل هذه الأمور لا تخفى ، الى أنها كلما التفتت هنا أو هناك ـ سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان ـ وجدته مسترقا اليها النظر . وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ ، ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر . وكان ـ منذ أن علم بأنها ستتخصص في الاجتماع مثله ـ يؤمل أن يتم التعـارف بينهما في غضون العام الدراسى المقبـل ، الأمر

الذى لم يتح له هذا العام فى زحمة طلبة القسم الاعدادى . على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء ، فحدثته نفسه بأن يمضي الى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها ، ثم يحييها فى طريقه ! . والقى نظرة على ما حوله فرأى عددا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ، فقام دون تردد وسار فىالممر بين المقاعد ، وعند ما مر بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة ، فبدا فى ملامحها وقع المفاجاة ، ولكنها ردت تحيته براسها ونظرت فيماامامها . وتساءل ترى هل اخطا ؟ . كلا ، انها زميلة منذ عام طويل ، ومن واجبه أن يحييها اذا التقيا هكذا وجها لوجه فىمكان يكاد يكون خاليا . وواصل مسيره الى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف ، ثم اختار مجلدا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة . كان سروره برد التحية عظيما فزايله التعب واهتز صدره نشاطا . يالها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه اعجابا وانجذابا حتى صارت شغله الشاغل . انكافة أحوالها تنم عن أنها من « أسرة » كما يقولون ، وأخشى مايخشاه أن يكون لها منكبرياءالطبقة نصيب يخفيه أدبها الجم . وانه ليستطيع أن يعترف لها — صادقا — بأنه من أسرة كذلك اذا دعا الأمر ، أليس آلشوكت « أسرة » ؟ . بلى .. وذات ملك ، فسيكون له يوما ريع ومرتب معا !. وافتر ثغره عنابتسامة ساخرة ، ريع .. مرتب .. أسرة !. اذن فاين مبادؤه ؟. وشعر بشيء من الخجل . ان القلب فى أهوائه لا يعرف المبادىء ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها ، وعليهم أن يخلقوا أنصافهمالجميلة خلقا جديدا ، كمن يدخلبلدا غريبا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد . ثم ان الطبقة والملكية حقيقتان واقعيتان لم يخلقهما هو ولا أبوه ولا جده ، فليس هو بالمسئول عنهما ، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التى تفرق بين البشر . من الممكن ربما أن يغير نظام الطبقات ، ولكن كيف يستطيع أن يغير الماضي وهو انه من أسرة موفورة الدخل ؟. وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الأرستقراطى ، وكارل ماركس نفسه تزوج منجينيفونوستفالن حفيدة الدوق دى برونشويك ، وكانوا يسمونها « الأميرة الساحرة » و « ملكة الرقص » ، وها هيأميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانتملكة الرقص. وأعاد المجلد الى موضعه ثم رجع ، وجعل يملأ ناظريه مما بدا من قامتها ،

جانب من أعلى الظهر ، وصفحة العنق الرقيق ، والقذال المزدان بالشعر المقوص ، ماأجمل المنظر . ومر بها خفيفا الى مقعده وجلس . ولم تمض دقائق حتى سمع وقع أقدامها الخفيفة ، فنظر الى الوراء آسفا وهو يظنها منصرفة ولكنه رآها قادمة ، فلما حاذته وقفت فى شىء من الارتباك ، وهو لا يصدق عينيه ، وقالت :

ـ لا مؤاخذة ، هل أجد عندك محاضرات التاريخ ؟ .

فنهض كالجندى ، وبادر يقول :

ـ بكل تأكيد . .

فقالت كالمتعذرة :

ـ لم استطع متابعة الأستاذ الانجليزى كما يجب ، ففاتنى تقييد كثير من النقط الهامة ، وأنا لا ارجع الى المراجع الا فى المواد التى سأتخصص فيها فيما بعد ، ولا يتسع الوقت للمراجعة فى سائر المواد . .

ـ مفهوم . . مفهوم . .

ـ وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة ، وانك أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم ؟ . .

ـ نعم ، ستكون تحت أمرك غدا . .

ـ متشكرة جدا (ثم وهى تبتسم) لا تظن بى الكسل ، ولكن انجليزيتى متوسطة ! . .

ـ لا بأس ، أنا بدورى دون المتوسط فى الفرنسية ، ولعله تتاح لنا الفرص للتعاون ، ولكن معذرة تفضلى بالجلوس ، قد يهمك الاطلاع على هذا الكتاب ، مدخل الاجتماع لهانكنز . .

ولكنها قالت :

ـ متشكرة ، لقد رجعت اليه مرات ، قلت انك دون المتوسط فى الفرنسية ، فلعلك فى حاجة الى مذكرات السيكولوچى ؟ .

فأجاب دون تردد :

ـ أكون شاكرا لو تفضلت . .

ـ غدا نتبادل المذكرات ؟ .

ـ بكل سرور ، ولكن معذرة ، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالانجليزية . . .

فتساءلت وهى تدارى مولد ابتسامة :

— أتعرف أنني اجتزت قسم الاجتماع ؟

ابتسم كأنما ليداري حياءه ، ولم يكن ثمة حياء ولكنه شعر بأنه « وقع » ، ولكنه قال ببساطة :

— نعم ! .

— لمناسبة اية مصادفة ؟ .

فقال بجراة :

— بل سالت فعلمت . .

وضغطت شفتيها القرمزيتين ، ثم قالت وكأنها لم تسمع جوابه :

— غدا نتبادل المذكرات .

— صباحا . .

— الى اللقاء وشكرا . .

فبادرها :

— انى سعيد بالتعرف اليك ، الى اللقاء .

لبث واقفا حتى واراها الباب ثم جلس ، ولحظ إن البعض كان ينظر مستطلعا نحوه . ولكنه كان ثملا بالسعادة . ترى اكان حديثها استجابة لما بدا من اعجابه بها ، أم لحاجتها الملحة الى مذكراته ؟ . لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف . كان يجدها دائما بصحبة الأتراب . هذه أول فرصة ، وقد فاز بما تمنى طويلا فيما يشبه المعجزة . ان كلمة من ثغر نحبه خليقة بأن تجعل من كل شيء كلا شيء . .

— ٢٦ —

بدا ياسين قلقا رغم ارادته . وكان قد تظاهر طويلا بأنه لايهمه شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة نفسها ، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضا . ان الدرجة السادسة — اذا رقي اليها — ستزيد مرتبه جنيهين لا غير ! . ويا ما ضيع ياسين ! . ويقولون انها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع ، ولكن متى كان يكترث ياسين للرياسات ؟ . بيد أنه كان قلقا ، خاصة بعد أن استدعى مدير الادارة محمد أفندي حسن — زوج زينب أم رضوان — لمقابلة وكيل الوزارة ،

وذاع بين موظفى المحفوظات أن الوكيل استدعاه ليسمع رأيه فى موظفيه للمرة الأخيرة قبل توقيع الكشف الخاص بالترقيات . محمد حسين ؟ ! . خليفته اللدود ، الذى لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيد ! . أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة ؟ . وانتهز فرصة خلو حجرة المدير فهرع الى التليفون ، وطلب كلية الحقوق ، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة ، مستدعيا رضوان ياسين . .

ــ الو ، رضوان ؟ . انا والدك .

ــ اهلا وسهلا ، كل شىء عال .

كان صوته ينم عن ثقة ، الابن واسطة للأب . .

ــ الحركة رهن التوقيع الآن ؟ .

ــ اطمئن ، الوزير نفسه هو الذى وصى بك ، كلمة نواب وشيوخ وعدهم بكل خير .

ــ الا يحتاج المسألة لتوصية اخيرة ؟ .

ــ ابدا ، الباشا هنانى هذا الصباح كما اخبرتك ، اطمئن جدا .

ــ اشكرك يا ابنى ، سلام عليكم .

ــ وعليكم السلام يا بابا ، مبارك مقدما . .

ووضع السماعة وغادر الحجرة ، فالتقى بابراهيم افندى فتح الله ــ زميله ومنافسه فى الدرجة ــ قادما يحمل بعض الملفات ، فتبادلا التحية فى تحفظ . وعند ذاك قال ياسين :

ــ ليكن ما بيننا مباراة رياضية يا ابراهيم افندى ، ولنقبل النتيجة أيا كانت بشهامة . .

فقال الرجل فى امتعاض :

ــ على شرط أن تكون مباراة شريفة !

ــ ماذا تعنى ؟ .

ــ أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة ! .

ــ غريب رأيك ! . وهل يوجد رزق بدون وساطة فى هذه الدنيا ؟ . اسع كما تشاء واسعى كما أشاء ، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب ! . . .

ــ أنا أقدم منك .

ــ كلانا موظف قديم ، بسنة لا تقدم ولا تؤخر ! .

ـ فى سنة تولد نفوس وتزهق نفوس . .

ـ تولد تزهق ، كل واحد وقسمته . .

ـ والكفاءة ؟ . .

فقال ياسين منفعلا :

ـ الكفاءة ؟ . هل نقيم جسورا أو ننشىء محطات كهربائية ؟. كفاءة ! ماذا يتطلب عملنا الكتابى من كفاءة ؟. كلانا بالابتدائية ، وفضلا عن ذلك فأنا رجل مثقف ! .

فضحك ابراهيم افندى ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ مثقف ؟. أهلا يا سى مثقف ! . أتظن نفسك مثقفا بالشعر الذى تحفظه ؟. أو بالانشاء الذى تكتب به خطابات الادارة كأنك تؤدى امتحان الابتدائية من جديد ؟ . أنا تارك أمرى لله . .

وافترق الرجلان على أسوأ حال ، وعاد ياسين الى مكتبه . كانت الحجرة كبيرة ، صفت بها المكاتب متقابلة على الجانبين ، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات . وكان البعض مكبا على الأوراق والآخرون يتحادثون ويدخنون ، على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات . قال جار ياسين له :

ـ ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام ، وسالحقها بمعهد التربية فارتاح من ناحيتها ، لامصروفات ولا تعب قلب فى البحث عن وظيفة بعد التخرج .

فقال ياسين :

ـ خير ما تفعل . .

فسأله الرجل مجادلا :

ـ وماذا أعددت لكريمة ؟. كم بلغت من العمر على فكرة ؟.

فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله ، وقال :

ـ فى الحادية عشرة ، وسوف تأخذ الابتدائية فى الصيف القادم ان شاء الله (وهو يعد على أصابعه) : نحن فى نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال . . .

ـ ما دامت تنجح فى ابتدائى فستنجح فى ثانوى ، البنات أضمن اليوم من الصبيان . . .

ثانوى ؟. هذا ما تريده زنوبة ، كلا انه لا يطيق أن يرى ابنته تسير فى الطريق ونهداها يهتزان ، ثم المصروفات ؟ . . .

ــ نحن لا نلحق بناتنا بالثانوى ، ولماذا ؟. انها لن تتوظف !.

فسأل ثالث :

ــ اهذا كلام يقال فى عام ١٩٣٨ ؟ .

ــ يقال فى أسرتنا ولو فى عام ٢٠٣٨ ! .

فضحك رابع وهو يقول :

ــ قل انك لا تستطيع ان تنفق عليها وعلى نفسك معا ! . قهوة العتبة وخمارة محمد على ، وحب البنات البكارى هد منى الحيل ، هذه هى الحكاية . . .

فضحك ياسين ، ثم قال :

ــ ربنا ساترها ، ولكن كما قلت لك نحن لا نعلم البنت أكثر من الابتدائية . . .

وتعالت سعلة من الركن القصى فيما يلى مدخل الحجرة ، فالتفت ياسين الى صاحبها ، ثم وقف وكأنه تذكر أمرا هاما ، فمضى الى مكتبه حتى شعر الرجل به فرفع نحوه راسه ، فمال ياسين فوقه قائلا :

ــ وعدتنى بالوصفة . .

فمد الرجل اذنه متسائلا :

ــ نعم ؟ . . .

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة ، واستحيى أن يرفع من صوته واذا بصوت يجىء من وسط الحجرة عاليا وهو يقول :

ــ أراهن على انه يسألك عن الوصفة ، وصفتك التى ستذهب بنا جميعا الى القبر . . .

وتراجع ياسين متبرما الى مكتبه ، فقال له الرجل دون مبالاة باحراجه ، وبصوت سمعته الحجرة كلها :

ــ أنا اقول لك عنها ، هات قشر مانجو ، اغله غليا شديدا ، وداوم على ذلك حتى يصير سائلا لزجا كالعسل ، وخذ منه ملعقة على غيار الريق . .

وضحكوا جميعا ، غير ان ابراهيم فتح الله قال متهكما :

ــ فايق ورايق ، انتظر حتى تأخذ الدرجة السادسة وهى تشد حيلك ! . . .

فتساءل ياسين ضاحكا :

- وهل تنفع الدرجة فى هذه المسألة ؟ . .

فقال جار ياسين ضاحكا ايضا :

- لو صحت هذه النظرية ، لاستحق عم حسنين فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف ! . .

وضرب ابراهيم فتح الله كفا بكف ، وقال مسائلا زملاءه جميعا :

- يا اخوان ، هذا الرجل (مشيرا الى ياسين) طيب وظريف وابن حلال ، ولكن هل يشتغل بمليم ؟ . . أنا راض بذمتكم ! . .

فقال ياسين هازئا :

- دقيقة عمل منى تساوى شغل يوم منك ! . .

- الحكاية أن المدير يترفق بك ، وانك تتوكل على ابنك فى هذا العهد الأغبر ! . . .

فقال ياسين ملحا فى اغاظته :

- وفى كل عهد وحياتك ، ابنى فى هذا العهد ، فاذا جاء الوفد عندى ابن أختى وأبى ، قل من عندك أنت ؟ . .

فقال الرجل وهو يرفع راسه الى السقف :

- عندى ربنا ! . .

- وهو سبحانه عندى ايضا ، أليس برب الجميع ؟ . .

- ولكنه لن يرضى عن زباين محمد على ! . .

- وهل يرضى عن مدمنى الإفيون والمنزول ؟ . .

- ليس ابشع فى الوجود من السكير . . !

- الخمر شراب الوزراء والسفراء ، الا تراهم فى الصحف وهم يشربون الأنخاب ؟ . ولكن هل رايت سياسيا يقدم قطعة افيون فى حفل سياسى فى صحة عقد معاهدة مثلا ؟ ! . . .

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك :

- هس يا جماعة ، والا قضيتم بقية مدة خدمتكم فى السجن ! .

فبادره ياسين مشيرا الى غريمه :

- كان يقرفنى فى السجن وحياتك ، ويقول لى أنا اقدم منك ! .

واذا بمحمد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة ، فساد الصمت وتطلعت نحوه الرءوس .

واتجه الرجل نحو حجرته لا يلوى على شىء ، فتبادلوا النظرات

متسائلين . لا يبعد أن يكون أحد المتخاصمين الآن رئيس قلم ، ولكن من صاحب الحظ السعيد ؟ . وفتح باب المدير ، وظهر رأســه الأصلع وهو ينادى بصوت جاف « ياسين أفندى » ، فنهض ياسين بجسمه الضخم ، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق . وتفحصه المدير بنظرة غريبة ثم قال :

ـ رقيت الى الدرجة السادسة !

فقال ياسين وقد انشرح صدره :

ـ شكرا يا افندم ..

فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف :

ـ من الانصاف ان أصارحك بأنه يوجد من هو أحق بهـا منك ، .. ولكنها الوساطة !

فغضب ياسين ، وكان كثيرا ما يغضب حيال هذا الرجل ، وقال :

ـ الوساطة ! ، مالها ؟، هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة ؟، هل ترقى مخلوق فى هــذه الادارة ، فى هذه الوزارة ، بما فيهم حضرتك ، دون وساطة ؟

فكظم الرجل غيظه ، ثم قال :

ـ لا يأتينى من ناحيتك الا وجع الدماغ ، تترقى بدون وجه حق ، ثم تثــور لأقل ملاحظة عادلة ، ما علينا ، مباراك ، مبارك يا سـيدى ، فقط أرجو أن تشد حيلك ، أنت الآن رئيس قلم !

فتشجع ياسين بتراجع المدير ، وقال دون أن يخفف من حدته :

ـ أنا موظف منــذ أكثر من عشرين عاما ، وعمرى اثنـــان واربعون عاما ، فهل تستكثر على الدرجة السادسة ؟ ، ان الغلمان يعينون فيها بمجرد تخرجهم فى الجامعة !

ـ المهم أن تشــد حيلك ، أرجو أن أعتمد عليك كبقية زملائك ، لقد كنت وانت ضابط مدرســة النحاسين مثال الموظف المجد ، ولولا تلك الحادثة القديمة ..

ـ شىء قديم فلا داعى لذكره الآن ، وكل واحد له أخطاؤه ..

ـ أنت الآن فى سن الرجولة الناضجة ، فاذا لم يستقم سلوكك تعذر عليك أن تقوم بواجبك ، كل ليــلة سهر فبأى مخ تعمل فى الصباح ؟ ، أريد أن تنهض بالادارة ، هذا كل ما هنالك ..

فاستاء ياسين للتعريض بسيرته ، وقال :

- لا اقبـل أن يمس انســان سلوكى الخاص بكلمة ، انا حر خارج الوزارة ! ،

- وداخلها ؟

- ساعمل ما يعمله رؤساء الأقلام ، أنا اشتغلت فى ماضى ما يكفينى طوال العمر . .

عاد ياسين الى مكتبه متكلفا الابتسام رغم جيشان صدره بالغضب . وذاع النبأ فتلقى التهانى .

وكان ابراهيم فتح الله يميل على اذن جاره هامسا فى حقد :

- ابنه ! ، هذه هى الحكاية ، عبدالرحيم باشا عيسى . . فُهمت ؟!. . سفخص !

- ٢٧ -

كان السيد احمـد عبد الجواد جالسا على كرسى كبير فى المشربية ؛ ينظر الى الطريق حينا ، وحينا فى جريدة الاهرام المبسوطة على حجره ، وكانت ثقوب المشربية تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقطا من الضياء . وقد ترك باب حجرته مفتوحا ليتمكن من سماع الراديو القائم فى الصالة ، غير أنه بدا ناحلا ضامرا ، كما لاحت فى عينيه نظرة ثقيـلة تنم عن استسلام حزين . وكان كانما يكتشف الطريق — من مجلسـه بالمشربية — لاول مرة فى حياته ، فلم يسبق له أن رآه من هذه الزاوية فى أيام حياته الماضية ، اذ أنه لم يكن يمكث فى البيت الا ساعات النوم على وجه التقريب ، اما اليوم فلم تعد له من تسلية — بعد الراديو — الا هذه الجلسـة فى المشربية ، ينظر من ثقوبها شمالا وجنوبا . وانه لطريق حى ، مسل ، لطيف ، وله الى هذا طابعه الذى يميزه عن طريق النحاسين الذى الف رؤيته من دكانه — السابق — زهاء نصف قرن من الزمان . وهذه دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبوسريع صاحب المقلى ، تقوم فى الطريق كالقسمات فى الوجه حتى عرف بها وعرفت به ، أى عشرة وأى جوار . ترى ما أعمار هؤلاء الناس ؟ . حسنين الحلاق مدمج الخلق ، من نوع قل أن يبدو عليه أثر

الزمن ، لم يكد يتغير منه شيء الا شعره ، ولكنه جاوز الخمسين بلاريب ؛ من لطف الله بهؤلاء النـاس أنه يحفظ عليهم صحتهم ! . ودرويش ؟ ، أصلع ، هكذا كان دائما ، ولكنه فى الستين ، ما أقوى جسمه ! ، كذلك كنت أنا فى الستين ، ولكننى أمسيت فى السابعة والستين فيـاله من عمر !. وأعدت تفصيل ثيابى لتناسب ما تبقى من جسدى ، واذا نظرت الى هذه الصورة المعلقة فى حجرتى أنكرت نفسى . الفولى أصغر من درويش ، ذلك الأعمش المسكين ، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدى الى سبيله . أبو سريع رجل عجوز ، عجوز ؟ ! ، ولكنه ما زال يعمل ، لم يفارق واحد منهم دكانه ، الا أن فراق الدكان لشديد ! ، ثم لا يبقى لك الا هذا المجلس ، والقبوع فى البيت ليل نهار ، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم ! ، ولكن على أن أنتظر يوم الجمعة ، ثم لا بد من العصـا ، ولا بد من كمال ليصحبنى ، الحمد لله رب العـالمين . بيومى أصغرهم وأسعدهم حظا ، من أم مريم بدأ أما أنا فعندها انتهيت ، وهو اليوم مالك أحدث عمارة فى الحى ، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان ، وانشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء ، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة ، سبحان العـاطى وجلت حكمته ! . كل شيء يتجدد ، الطريق مهد بالأسفلت ، واضيء بالمصابيح ، أتذكر ليالى عودتك آخر الليل فى الظلام الدامس ؟ ، لكن أين منى هاتيك الليالى ؟ ، وفى كل دكان كهرباء وراديو ، كل شيء جديد ، الا أنا ، عجوز فى السابعة والستين ، لا يستطيع مغادرة داره الا يوما واحدا فى الأسبوع وهو يلهث . القلب ! ، كله من القلب ، القلب الذى طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى ، يقضى اليوم بالقعود ولا راد لقضائه . قال الطبيب « خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامى الغذائى » ، حسن ، ولكن هل يعيد ذلك الى قوتى .. أعنى بعض قوتى ؟ ، فأجاب الطبيب « حسبنا أن نمنع المضاعفات ، ولكن الجهد أو الحركة شيء خطير .. (ثم ضاحكا) .. لماذا تريد أن تسترد قوتك » ؟، أجل لمـاذا ؟ ، انه لشيء محزن مضحك معـا ، ومع ذلك قال « أريد أن أذهب وأجيء » ، فقـال الطبيب « لكل حال مسراتها ، جلسة هادئة ، اقرأ الصحف واسمع الراديو وانعم بأسرتك ، ويوم الجمعة زر الحسين راكبا ، حسبك هذا ! » ، الأمر لصاحب الأمر ، متولى عبد الصمد لا يزال يتخبط فى الطرقات ! ، ويقول وانعم بأسرتك ! ، لم تعد أمينة

تمكث فى البيت ، انقلبت الآية ، أنا فى المشربية وهى تجول فى القاهرة من مسجد الى مسجد ، كمال يجالسنى خطفا كالضيف ، عائشة ؟ ، آه يا عائشة ، أمن الأحياء انت أم من الأموات ؟ ، ثم يريدون من قلبى أن يبرأ ويستريح !

ــ سيدى . .

والتفت الى الوراء صوب الصوت ، فرأى أم حنفى حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه .

ــ الدواء يا سيدى . .

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود ، هذه المرأة التى صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا . وتناول الكوب وملأ الفنجان حتى نصفه ، وفض سداد القارورة ونقط منها اربع نقط فى الفنجان ، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء ، ثم تجرعه :

ــ بالشفا يا سيدى .

ــ متشكر ، اين عائشة ؟

ــ فى حجرتها ، الله يصبر قلبها .

ــ ناديها يا أم حنفى .

فى حجرتها ، أو على السطح ، ثم ماذا ؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخرا من حزن البيت الصامت . ولم يكن السيد اضطر الى ملازمة البيت الا منذ شهرين ، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام واربعة أشهر ، فاستأذن الرجل فى سماع الراديو لحاجته الملحة الى التسلية ، فقالت له عائشة « طبعا يا بابا ، ربنا يكفيك شر قعدة البيت ! » . وسمع حفيف ثوب فالتفت فرآها قادمة فى ثوب أسود ، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو ، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة ، عنوان التعاسة يا ابنتى . قال برقة :

ــ هاتى الكرسى واجلسى معى قليلا . .

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة :

ــ مرتاحة هكذا يا بابا .

علمته الأيام الأخيرة الا يحاول أن يعدل بها عن رأى .

ــ ماذا كنت تفعلين ؟

فقالت دون أن ينم وجهها عن أى معنى :

ـ لا شىء أفعله يا بابا .

ـ لماذا لا تخرجين مع بنتك لتزورى الأضرحة المباركة . أليس هذا أفضل من بقائك وحدك ؟

ـ ولماذا أزور الأضرحة ؟

وكأنما فوجىء بقولها ، بيد انه قال بهدوء :

ـ تتوسلين الى الله أن يصبر قلبك .

ـ الله هنا معنا فى البيت . .

ـ طبعا ، أقصد أن تتركى هذه العزلة يا عائشة ، زورى أختك ، زورى الجيران ، روحى عن نفسك . .

ـ لا أستطيع أن أرى السكرية ، ولا معارف لى ، لم يعد لى معارف ، لا أطيق زيارة أحد . .

قال الرجل وهو يولى عنها رأسه :

ـ أحب أن تتصبرى ، وأن تهتمى بصحتك . .

ـ صحتى ! . .

قالتها فيما يشبه العجب . فقال بتوكيد :

ـ نعم ، ما فائدة الحزن يا عائشة ؟ . .

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذى تعودت أن تلتزمه حيـاله :

ـ وما فائدة الحياة يا بابا ؟ . .

ـ لا تقولى هذا ، ان أجرك عند الله عظيم ! . .

فحنت رأسها لتخفى عينيها الدامعتين ، وقالت :

ـ أود أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر ، ليس هنا يا بابا !.

ثم انسحبت برقة ، وقبل أن تغادر الحجرة توقفت قليلا كأنما تذكرت أمرا ، فسألته :

ـ كيف صحتك اليوم ؟.

فابتسم قائلا :

ـ الحمد لله ، المهم صحتك أنت يا عائشة . .

وغادرت الحجرة . من أين تأتيه الراحة فى هذا البيت ؟. وراح يردد بصره فى الطريق حتى ثبت على أمينة وهى راجعة من جولتها اليومية .

كانت ترتدى معطفا ، وعلى وجهها بيشة ، وتنقل خطاها فى بطء . شد ما ركبها الكبر !. كان يحسن الظن بصحتها متذكرا أمها المعمرة ، ولكن ها هى تبدو أكبر من سنها - اثنين وستين عاما - بعشرة أعوام على الأقل . ومر وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهى تتساءل :

- كيف حال سيدى ؟..

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة :

- كيف حالك أنت !. ما شاء الله !. من طلعة الصبح يا ولية ؟ ! .

فابتسمت قائلة :

- زرت سيدتك ، وزرت سيدك ، ودعوت لك وللجميع ..

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام ، وشعر بانه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج :

- أيصح أن تتركينى وحدى كل هذا الوقت ؟ ! .

- أنت أذنت لى يا سيدى ، لم أغب طويلا ، ولكنها الضرورة يا سيدى ، ما أحوجنا الى الدعاء ، توسلت الى سيدى أن يرد اليك صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء ، كما دعوت لعائشة وللجميع ..

وجاءت بكرسى وجلست ، ثم سألته :

- هل تناولت الدواء يا سيدى ؟.. أنا نبهت على أم حنفى ..

- ليتك نبهتها على شىء أحسن ! .

- بالشفا يا سيدى ، سمعت فى المسجد درسا جميلا من الشيخ عبد الرحمن ، تحدث ياسيدى عن الكفارة عن الذنب وكيف تمسح السيئات ، كلام جميل جدا يا سيدى ، ليتنى أستطيع ان احفظ كأيام زمان ..

- وجهك شاحب من المشى ، كلها كم يوم وتصبحين من زباين الدكتور ! .

- ربنا الحافظ ، أنا لا أخرج الا لزيارة آل البيت ، فكيف يقع لى سوء ؟ ! .

ثم متداركة :

- آه يا سيدى ، كدت أنسى ، يتحدثون فى كل مكان عن الحرب ، يقولون ان هتلر هجم .. ؟!

تساءل الرجل باهتمام :

- متأكدة ؟ .

ـ سمعتها بدل المرة مائة مرة ، هتلر هجم .. هتلر هجم ..
فقال الرجل ليفهمها أنها لم تسبقه بالأخبار :
ـ كان هذا متوقعا من لحظة لأخرى .
ـ بعيد عنا ان شاء الله يا سيدى ؟ .
ـ قالوا هتلر فقط ؟ . وموسولينى ؟ . الم تسمعى هذا الاسم ؟ .
ـ اسم هتلر فقط ..
« بعيد عنا ؟ . من يدرى ؟ » .
ـ ربنا يلطف بنا ، اذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ او المقطم فاشتروه .
فقالت المرأة :
ـ كأيام غليوم وزبلن ، اتذكر يا سيدى ؟ . سبحان من له الدوام ..

— ٢٨ —

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد . فعندما فتح باب الشقة ملأ فراغه ياسين فى بدلة بيضاء من تيل المحلة ، تتقدمه الوردة الحمراء والمنشة العاجيــة ، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه ، وتبعه ابنه رضوان فى بدلته الحريرية آية فى الأناقة والجمال ، ثم زنوبة فى ثوب سنجابى تعلوها الحشمة التى صارت جزءاً لا يتجزأ منها ، واخيرا كريمة فى فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين ، وقد تبلورت انوثتها المبكرة ــ لم تكن تزيد على الثالثة عشرة ــ فبدت جاذبيتها صارخة . وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وابراهيم وعبد المنعم وأحمد ، وسرعان ما قال ياسين :

ـ أسمعتم عن شىء كهذا من قبل ؟ . ابنى سكرتير الوزير الذى أنا فى وزارته مجرد رئيس قلم فى المحفوظات ، تنهد له الأرض اذا ســار ، وانا لا يكاد يشعر بى انسان ! .

كان مدلول كلامه الاحتجاج ، ولكن لم يخف على احد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه . وفى الحق قد حصل رضوان على الليسانس فى مايو من هذا العــام ، وما لبث أن تعين فى يونيه سكرتيرا للوزير ، فى الدرجة السادسة ، على حين يتعين خريجو الجامعات فى الدرجة الثامنة

إلكتابية . وقد حصل عبد المنعم على الليسانس فى نفس التاريخ ، ولكنه لم يكن يدرى ما المصير . قالت خديجة باسمة ، وكانت تشعر بشىء من الغيرة :

- رضوان صديق الحكام ، ولكن العين لا تعلو على الحاجب ..

فسأل ياسين فى سرور لم يفلح فى مداراته :

- ألم تروا صورته مع الوزير فى اهرام أمس ؟ . بتنا لا ندرى كيف نكلمه ! ..

فأشار ابراهيم شوكت الى عبد المنعم واحمد قائلا :

- هذان الولدان خائبان ، ضيعا عمرهما فى مناقشات حادة لا معنى لها ، وكان خير من عرفا من رجالات البلد الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية ، وسخام البرك عدلى كريم صاحب مجلة الضوء أو الهباب لا أدرى ...

وكان احمد ساخطا وان بدا طبيعيا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده ، أما عبد المنعم فقد غطى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذى كان خليقا أن يشتعل فى صدره فى ظروف أخرى . وكان يسترق النظر الى وجه رضوان متسائلا عما وراءه ، غير أن قلبه استبشر خيرا بالزيارة ، فلعلها لم تكن تقع لولا انها تحمل البشرى . وعاد ياسين يقول معلقا على كلام ابراهيم :

- لو سألتنى عن رأيى لقلت لك نعم الولدان !. الم يقولوا فى الأمثال : السلطان من ابتعد عن باب السلطان ؟ .

كلا ، لم يفلح ياسين فى مداراة سروره ، كما لم يفلح فى اقناع أحد بايمانه بما قال ، غير أن خديجة قالت مشيرة الى رضوان :

- ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم ..

وأخيرا التفت رضوان الى عبد المنعم قائلا :

- أرجو أن اهنئك عما قريب ..

فتطلع اليه عبدالمنعم متسائلا وقد تورد وجهه ، فعاد رضوان يقول :

- وعدنى الوزير بأن يعينك فى ادارة التحقيقات ..

كانت أسرة خديجة تترقب على لهف هذا التقرير ، فركزت ابصارهم فى رضوان طالبة المزيد من التأكيد ، فمضى الشاب يقول :

- أول الشهر القادم على اكثر تقدير .

وقال ياسين معقبا على قول ابنه :

ـ انها وظيفة فضائية ، لقد عين عندنا فى ادارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس فى الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات !

وكانت خديجة هى التى طلبت الى ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم ، فقالت فى امتنان :

ـ الشكر لله ولك يا أخى (ثم وهى تلتفت الى رضوان) وطبعا جميل رضوان فوق رءوسنا . .

وآمن ابراهيم على قولها قائلا :

ـ طبعا ، انه أخوه ، ونعم الأخ .

وقالت زنوبة باسمة ، لكى تخرج من هامش الجلسة :

ـ رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان ، ما فى ذلك كلام ،

وتساءل عبد المنعم الذى كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان . . .

ـ أعطاك كلمة جدية ؟ .

فقال ياسين باهتمام :

ـ كلمة وزير !. انى متتبع المسألة !

وقال رضوان :

ـ وأنا من ناحيتى سأذلل لك الصعاب فى ادارة المستخدمين ، ولى فيهم أصدقاء كثيرون ، ولو أن موظفى المستخدمين لا صديق لهم !.

فقال ابراهيم شوكت وهو يتنهد :

ـ الحمد لله . لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين ! .

فقال ياسين :

ـ عشت ملكا يا أبا خليل . .

ولكن خديجة قالت متهكمة :

ـ ربنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت ! .

وتدخلت زنوبة مجاملة كعادتها ، فقالت :

ـ قعدة البيت لعنة ، الا من كان صاحب ملك فهو سلطان ! .

فقال أحمد وفى عينيه بسمة خبيثة :

ـ خالى ياسين صاحب ملك ، ولكنه صاحب وظيفة أيضا !

فضحك ياسين ضحكة عالية ، وقال :

ـ صاحب وظيفة بس من فضلك ، أما الملك ! . كان يا ما كان ، كيف يحتفظ بملكه من كان له أسرة كأسرتى ؟ ! .

فهتفت زنوبة فى ارتياع :

ـ أسرتك ! .

والتفت رضوان ـ قاطعا الحديث الذى لا يحبه ـ الى احمد قائلا :

ـ ان شاء الله تجدنا فى خدمتك فى العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! .

فقال احمد :

ـ أشكرك جدا ، لكننى لن أتوظف ! .

ـ كيف ؟ . . .

ـ الوظيفة خليقة بقتل أمثالى ، مستقبلى فى الميدان الحر ! .

وهمت خديجة بالاحتجاج ، ولكنها آثرت تأجيل العراك الى حينه ، أما رضوان فقال باسما :

ـ اذا غيرت رأيك فستجدنى فى خدمتك ! .

فرفع احمد يده الى راسه شاكرا . وجاءت الخادم باكواب الليمون المثلجة . وفى فترة الصمت التى جعلوا فيها يحتسون ، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرة منذ افاقتها من مسألة عبد المنعم ، فقالت لها برقة :

ـ كيف حالك يا كريمة ؟ .

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة :

ـ بخير يا عمتى . متشكرة . .

وكادت خديجة تأخذ فى اطراء جمالها ، ولكن شيئا ـ كالحذر ـ اوقفها . الواقع انها لم تكن أول مرة تجيء بها زنوبة معها مذ حجزت فى البيت بعد أخذها الابتدائية . وقالت خديجة لنفسها ان هذه الأمور تشم فى الهواء شما ! . وان كريمة اذا كانت ابنة زنوبة فهى فى الوقت نفسه ابنة ياسين ، ومن هنا تجيء دقة المسألة ! . ولم يكن عبد المنعم يوفى كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه ، ولكنه كان يعرفها حق المعرفة ، على أنه لم يكن قد برىء كل البرء من أثر وفاة زوجه ، أما أحمد فلم يكن فى فؤاده متسع ! . وقال ياسين :

ـ كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية .

فقالت زنوبة مقطبة :

ـ وانا آسفة أكثر ...

فقال ابراهيم شوكت :

ـ انى أشفق على البنات من جهد الدراسة ، ثم ان البنت فى النهاية لبيتها ، فلن يمضى عام أو آخر حتى تزف كريمة الى صاحب القسمة السعيد ..

يا مقطوع اللسان ، هكذا قالت خديجة لنفسها ، يفتح المواضيع الخطيرة وهو فى غفلة عن نتائجها ، يا له من موقف ! . كريمة ابنة ياسين واخت رضوان صاحب الفضل ، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب الا الوهم !. ولكن لماذا تكثر زنوبة من زيارتنا جارة فى يدها كريمة ؟. ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير ، أما ربيبة التخت .. !

وقالت زنوبة :

ـ هذا الكلام كان يقال فى الزمن الماضى ، اما اليوم فالبنات كلهن يذهبن الى المدارس ..

فقالت خديجة :

ـ فى حارتنا بنتان فى المدارس العالية ، ولكن شكلهما والعياذ بالله ! .

فسأل ياسين احمد :

ـ أليس فى بنات كليتك جمال ؟ .

وخفق قلب أحمد ، وتمثلت لعينيه الصورة المشششة فى قلبه ، ثم اجاب :

ـ حب العلم ليس قاصرا على الدميمات ..

فقالت كريمة باسمة ، وهى تنظر صوب أبيها :

ـ المسألة تتوقف على الآباء .

فضحك ياسين قائلا :

ـ عفارم يا بنتى !. هكذا تتحدث البنت الطيبة عن أبيها ، وهكذا كانت تخاطب عمتك جدك !.

فقالت خديجة متهكمة :

ـ المسألة تتوقف على الآباء حقا !.

فبادرتها زنوبة قائلة :

ـ البنت معذورة ، آه لو سمعت حديثه بين أولاده !.

فقالت خديجة :

ـ أنا عارفه وفاهمة !.

فقال ياسين :

ـ أنا رجل له آراؤه فى التربية ، أنا الأب الصديق ، لاأحب أن يرتعد أبنائى خوفا فى محضرى ، أنا حتى اليوم ينتابنى الارتباك أمام أبى !.

فقال ابراهيم شوكت :

ـ الله يقويه ويصبره على قعدة البيت !. السيد احمد جيل وحده ، وليس مثله أحد فى الرجال !.

فقالت خديجة منتقدة :

ـ قل له !.

فقال ياسين كالمعتذر :

ـ أبى جيل وحده ، وا اسفا اصبح هو وأصحابه قعيدى بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسعهم علىٰ رحابتها !.

وكان رضوان يقول لأحمد فى حديث جانبى مستقل :

ـ بدخول ايطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة .

ـ ربما تحولت هذه الغارات الاسمية الى غارات فعلية . .

ـ ولكن هل لدى الانجليز قوة كافية لصد الزحف الايطالى المتوقع ؟.

لا شك أن هتلر سيترك مهمة الاستيلاء على قناة السويس لموسولينى . .

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل تقف أمريكا متفرجة ؟.

فقال احمد :

ـ مفتاح الموقف الحقيقى فى يد روسيا !.

ـ لكنها حليفة هتلر ؟.

ـ الشيوعية عدوة النازية ، ثم ان الشر الذى يتهدد العالم بانتصار الألمان اضعاف ما يتهدده بانتصار الديموقراطيات . .

فقالت خديجة :

ـ أظلموا لنا الدنيـا الله يظلم عيشتهم ، وما هـذه الأشياء التى لم نعرفها من قبل ؟ . . صفارات انذار ! . . مدافع مضادة . . كشافات ، مصائب تشيب الانسان قبل الأوان !

فقال ابراهيم فى سخرية هادئة :

ـ على اى حال الشيب فى بيتنا ليس قبل الأوان . .

ـ هذا عندك أنت وحدك !

كان ابراهيم فى الخامسة والستين ، ولكنه يبدو بالقياس الى السيد احمد ـ الذى لم يكن يكبره الا بثلاث سنوات ـ كأنما يصغره بعشرات السنين .

وعند انتهاء الزيارة ، قال رضوان لعبد المنعم :

ـ زرنى فى الوزارة .

ولما أغلق الباب وراء الذاهبين ، قال احمد لعبد المنعم :

ـ خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان ، ادرس كيف تزور سكرتير وزير !

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته ..

- ٢٩ -

لم يجد احمد مشقة تذكر فى الاهتداء الى فيللا مستر فورستر ـ أستاذ علم الاجتماع ـ بالمعادى . وقد ادرك حال دخوله أنه جاء متأخرا بعض الوقت ، وان كثيرا من الطلبة الذين دعوا مثله الى الحفل الذى اقامه الأستاذ لمناسبة سفره الى انجلترا قد سبقوه اليه . واستقبله الأستاذ وحرمه ، وقد قدمه اليه باعتباره طالبا من خير طلبة القسم ، ثم مضى الشاب الى حيث جلس الطلبة فى الفراندا . كان المجلس يتكون من طلبة قسم الاجتماع كافة ، وكان احمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية ، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق . ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت ، ولكنه كان مطمئنا الى مجيئهن ، أو الى مجىء « صديقته » التى كانت من سكان المعادى . والقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة فى أرض فضاء معشوشبة ، تكتنفها من الجانبين اشجار الصفصاف والنخيل ، وقد صفت فوقها اباريق الشاى وأوعية اللبن وأطباق الحلوى . ثم سمع طالبا يتساءل :

ـ نلتزم الآداب الانجليزية أم ننقض على المائدة كالنسور ؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف :

ـ آه لو لم توجد لادى فورستر !

كان الوقت أصيلا ، ولكن الجو كان لطيفا رغم شخصية يونيه الثقيلة،

ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيللا ، جئن معا كأنهن على ميعاد ، وكن أربعا هن جملة الطالبــات بالقسم ، وبدت علوية صبرى وهى تخطر فى فستان ناصع البياض مهفهف ، جعل من كائنها اللطيف لونا واحدا بديعا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم ، وعند ذاك شعر احمد بقــدم هازئة تحتك بقدمه كانما تنبهه ان كان فى حاجة الى من ينبهه ، وكان سره قد ذاع من زمن . وتابعهن حتى استقر بهن المجلس فى ركن اخلى لهن بالفراندا ، ثم جاء مستر فورستر وزوجه ، وقالت الزوجة موجهة الخطاب الى الطلبة ، وهى تشير الى الفتيات :

ــ هل تحتاجون الى تعارف ؟

فارتفع الضحك ، وقال الأستاذ وكان ذا حيوية فائقة رغم مشارفته الخمسين :

ــ الأجدر أن تعرفيهم بى أنا . .

وضجوا بالضحك مرة أخرى ، حتى عاد مستر فورستر يقول :

ــ فى مثل هذا الوقت من كل عام كنا نغادر مصر الى انجلترا لقضاء العطلة ، هذه المرة لا ندرى أن كنا سنرى مصر كرة إخرى أم لا !

فقاطعته زوجه قائلة :

ــ ولا حتى أن كنا سنرى انجلترا !

وأدركوا انها تلمح الى خطر الغواصات ، فقال لها اكثر من صوت :

ــ حظ سعيد يا سيدتى . .

وعاد الرجل يقول :

ــ سأحمل معى ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة فى كلية الآداب، وعن مقاطعة المعــادى الهادئة الجميلة ، وعنكم أنتم الذين سأعتز حتى بهــذركم !

فقال احمد مجاملا :

ــ اما ذكراك فستبقى فى نفوسنا دواما ، وتنمو بنمو عقولنا . .

ــ شكرا . . (ثم مخاطبا زوجه وهو يبتسم) . . احمد شاب جامعى كما ينبغى ، وان تكن له آراء مما تسبب المتاعب عادة فى بلده !

فقال زميل موضحا :

ــ يعنى أنه شيوعى !

فرفعت السيدة حاجبيها باسمة ، أما مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى :

ـ لم اقل أنا ذلك ، ولكنه زميله الذى قال !

ثم نهض الأستاذ وهو يقول :

ـ آن وقت الشاى ، يجب الا يسرقنا الوقت ، وسوف نجد بعد ذلك متسعا للسمر واللهو . .

وكان عمال جروبى قد اعدوا المائدة ووقفوا متاهبين للخدمة . وتوسطت لادى فورستر جانب المائدة الذى جلس اليه الفتيات ، على حين توسط الأستاذ الجانب الآخر ، وهو يقول معلقا على نظام الجلوس :

ـ كنا نود أن تكون الجلسة أكثر اختلاطا ، ولكنا راعينا الآداب الشرقية ، أليس كذلك ؟

فأجابه طالب بلا تردد :

ـ للأسف هذا ما لاحظناه يا سيدى !

وصب الخدم الشاى واللبن وبدات المادبة . لاحظ أحمد اختلاسا ان علوية صبرى كانت ابرع من زميلاتها ممارسة لآداب المائدة واقلهن ارتباكا ، بدت آلفة للحياة الاجتماعية ، كانها فى بيتها ، وشعر بان ملاحظة تناولها للحلوى الذ من الحلوى نفسها . هذه صديقته العزيزة التى تبادله الصداقة والمودة دون أن تشجعه على عبور حدودهما ، وقال لنفسه : ان لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على ! . وعلا صوت لادى فورستر وهى تقول :

ـ ارجو الا تؤثر قيود الحرب فى حرية تناولكم للحلوى . .

فعلق طالب على قولها قائلا :

ـ من المصادفات السعيدة أن الرقابة لم تفرض على الشاى بعد !

ومال مستر فورستر على اذن أحمد ـ وكان يجلس الى يساره ـ وساله :

ـ كيف تمضى العطلة ؟ ، اعنى ماذا تقرأ ؟

ـ كثيرا فى الاقتصاد وقليلا فى السياسة ، واكتب بعض المقالات فى المجلات .

ـ انصحك بان تقدم فى الماجستير بعد الليسانس .

فقال أحمد بعد الانتهاء مما فى فيه :

ــ ربما فيما بعد ، سأبدأ بالعمل فى الصحافة ، هذه خطتى من قديم .

ــ حسن !

الصديقة العزيزة تحادث لادى فورستر بطلاقة ، ما أسرع ما أتقنت الانجليزية ، والورد والأزهار تنضح بالحمرة والألوان كما ينضح القلب بالحب ، فى عالم الحرية يزدهر الحب كالأزهار ، الحب لا يكون عاطفة صحيحة طبيعية الا فى بلد شيوعى . وقال مستر فورستر :

ــ من المؤسف اننى لم أستكمل دراستى للغة العربية ، كنت أود أن أقرأ مجنون ليلى دون مساعدة أحد منكم !

ــ المؤسف انك ستنقطع عن دراستها ..

ــ الا اذا سمحت الظروف فيما بعد ..

« ربما وجدت نفسك مضطرا الى تعلم الالمانية ، الا يكون مضحكا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له ؟ ، فى اخلاق الانجليز الشخصية فتنة ، أما فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له ، عما قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل فى مكان واحد لأول مرة ، واذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على ! » . وسأل أستاذه :

ــ وماذا أنت فاعل عقب وصولك الى لندن ؟

ــ دعيت للعمل فى الاذاعة .

ــ اذن لن ينقطع عنا صوتك .

« مجاملة تغتفر فى هذا المجلس الذى تزينه صديقتى ، اننا لا نسمع هنا الا الاذاعة الألمانية ، شعبنا يحب الألمان ولو على سبيل الكراهية للانجليز ، والاستعمار ، الاستعمار أعلى مراحل الراسمالية ، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفا جديرا بالتأمل ، نبرره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حبنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه ، والمأمول أن تقضى الحرب على النازية والاستعمار معا ، هنالك أخلص للحب وحده » .

ثم عادوا الى مجلسهم بالفراندا التى أضيئت مصابيحها ، ولم تلبث لادى فورستر أن قالت :

ــ اليكم البيانو فليتفضل أحدكم باسماعنا لحنا .

فرجاها طالب قائلا :

ــ تفضلى أنت باسماعنا .

فنهضت فى رشاقة الشباب الذى جاوزته بأعوام ، ثم جلست الى

البيانو وفتحت النوطة وراحت تعزف لحنا . لم يكن أحد منهم ذا المام بالموسيقى الغربية أو تذوق لها ، ولكنهم أنصتوا فى اهتمام بدافع الأدب والمجاملة . وحاول أحمد أن يستمد من حبه قوة سحرية يفتح بها مغاليق اللحن ، ولكنه نسى اللحن فى استراق النظر الى وجه فتاته ، والتقت عيناهما مرة ، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين ، وفى نشوة الفرحة قال لنفسه : « أجل ، اذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على » . وعلى اثر فراغ لادى فورستر من عزفها ، عزف طالب لحنا شرقيا ، ثم خلصوا للسمر وقتا غير قصير . وحوالى الساعة الثامنة مساء ودعوا أستاذهم وأخذوا فى الانصراف . ولبد أحمد عند منعرج طريق فى ليل بالغ فى جماله وحنانه ، تحت مظلة من الأشجار الباسقة ، حتى رآها قادمة وحيدة فى طريقها الى مسكنها ، فبرز لها من المنعطف قاطعا عليها الطريق ، فتوقفت فى دهش وقالت :

ـ ألم تذهب معهم ؟ .

فنفخ فيما يشبه التنهد ليخفف صدره من جيشانه ، وقال بهدوء :

ـ تخلفت عن القافلة لاقابلك !

ـ ترى ماذا يظنون بتخلفك ؟

فقال باستهانة :

ـ هذا شأنهم !

وسارت فى بطء فسار الى جانبها ، ثم تمخض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول :

ـ أريد أن أسألك قبل عودتى : هل تسمحين لى بالتقدم لخطبتك ؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة ، ولكن لم يند عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله ، وكان الطريق خاليا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء الأزرق ، فعاد يسائلها :

ـ أتسمحين لى ؟

فقالت بصوت خافت لم يخل من عتاب :

ـ هذه طريقتك فى الكلام ، ويالها من طريقة ، الواقع انك أذهلتنى !

فضحك ضحكة خفيفة ، وقال :

ـ أعتذر عن ذلك ، وان كنت أظن ان تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولى مفاجأة تذهل !

— تعنى صداقتنا وتعاوننا الثقافى ؟

فلم يرتح لقولها ، ولكنه قال :

— اعنى عاطفتى غير الخفية التى اتخذت شكل الصداقة والتعاون الثقافى كما قلت !

فتساءلت فى صوت باسم غير خال من اضطراب :

— عاطفتك الخفية ؟ !

فقال بعناد واخلاص :

— اعنى حبى ! ، الحب لايخفى ، اننا عادة لا نتكلم لنعلنه ، وانما لنسعد بسماع اعلاننا له . .

فقالت مماطلة حتى تسترد هدوءها :

— الأمر كله مفاجأة لى . .

— يؤسفنى أن أسمع هذا . .

— لماذا تأسف ؟ ، الواقع انى لا أدرى ماذا أقول . .

ضاحكا :

— قولى « أسمح لك » ودعى الباقى لى . .

— ولكن ، ولكن . . . ، أنا لا أعرف شيئا ، معذرة ، كنا أصدقاء حقا ولكنك لم تحدثنى عن . . . ، أعنى لم تسمح الظروف بأن تحدثنى عن شخصك ؟

— ألم تعرفينى ؟

— عرفتك طبعا ، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغى أن تعرف . .

أتعنى هذه الأمور التقليدية ؟ ، يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحب ! . وشعر بامتعاض ، بيد أنه ازداد عنادا فقال :

— سيجىء كل شىء فى حينه . .

فتساءلت ، وكانت قد ملكت زمام نفسها :

— أليس الآن حينه ؟

فابتسم ابتسامة فاترة ، وقال :

— لك حق ، تعنين المستقبل ؟

— طبعا !

وأحنقته « طبعا » . أمل أن يسمع أغنية فسمع محاضرة معادة ! .

ولكن يجب الا تخونه ثقته فى نفسه مهما يكن الأمر . العزيزة الباردة لا تدرى كم يسعده اسعادها !

ـ سأجد بعد تخرجى عملا . .

ثم بعد لحظات من الصمت :

ـ وسيكون لى يوما دخل لا بأس به !

فتمتمت فى حياء :

ـ كلام عام . .

فقال وهو يدارى أله بالهدوء :

ـ سيكون المرتب فى الحدود المعروفة ، اما الدخل فحوالى عشرة جنيهات . .

وساد صمت . لعلها تزن الأمور وتفكر . هذا هو التفسير المادى للحب !. كان يحلم بالجنون العذب ولكن اين منه هذا ؟. هذا البلد عجيب يندفع فى السياسة وراء العاطفة ، ويتبع فى الحب دقة المحاسبين . واخيرا جاء الصوت الرقيق قائلا :

ـ لندع الدخل جانبا ، فلا يجمل أن ترتب حياتك على اساس تقدير اختفاء الأعزة من حياتك . .

ـ اردت ان اقول لك ان والدى من ذوى الأملاك . .

فقالت بجهد برر فترة التردد التى سبقته :

ـ فلنكن واقعيين . .

ـ قلت انى سأجد عملا ، وستجدين من ناحيتك عملا أيضا . .

فضحكت ضحكة غريبة :

ـ كلا لن اشتغل ، لم اذهب الى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات . .

ـ ليس العمل عيبا . .

ـ طبعا ، ولكن والدى ، الواقع اننا جميعا متفقون على هذا ، لن اشتغل .

وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث ، فقال :

ـ ليكن ، اشتغل انا . . .

فقالت بصوت كأنما تعمدت أن يكون رقيقا فوق العادة :

ـ استاذ احمد ، فلنؤجل الحديث ، أعطنى مهلة للتفكير .

فضحك ضحكة فاترة ، وقال :

ـ قلبنا الأمر على كافة وجوهه ، ولكنك فى حاجة الى مهلة لتدبرى الرفض ؟

فقالت بصوت حيي :

ـ ينبغي أن أحدث والدي .

ـ هذا بدهي ، ولكن كان من الممكن أن ننتهي الى رأى قبل ذلك ؟

ـ مهلة ولو قصيرة . .

ـ نحن في يونيه ، وستسافرين الى المصيف ، ولن نلتقى الا فى اكتوبر القادم فى الكلية ؟

فقالت باصرار :

ـ لابد من مهلة للتفكير والتشاور .

ـ انك لا تريدين أن تتكلمي .

واذا بها تتوقف عن المسير فجأة ، وتقول فى أدب وعزم معا :

ـ أستاذ أحمد ، انك تأبى الا أن تحملني على الكلام ، ارجو أن تتقبل كلامي بصدر سمح ، لقد فكرت فى موضوع الزواج من قبل كثيرا ، لا بالقياس اليك ولكن بصفة عامة ، وانتهيت منه ـ ووافقني على ذلك والداى ـ بأن حياتي لن تستقيم ، وانني لن احافظ على مستواى ، الا اذا تهيأ لي ما لا يقل عن خمسين جنيها شهريا . .

وتجرع خيبة مريرة لم يتوقع ـ على أسوأ الفروض ـ أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة . وتساءل :

ـ وهل يملك موظف ـ أعني في سن الزواج ـ هذا المرتب الضخم ؟

ولكنها لم تنبس ، فعاد يقول :

ـ انك تريدين زوجا ثريا !

ـ آسفة جدا ، ولكنك أجبرتني على مصارحتك برأيي . .

فقال بصوت غليظ :

ـ هذا أفضل على اى حال .

فعادت تغمغم :

ـ آسفة . .

وثار غضبه ، ولكنه بذل جهدا صادقا كيلا يخرج عن حدود الأدب ، ثم وجد رغبة لا تقاوم فى أن يصارحها برأيه فتساءل :

ـ أتسمحين لي بأن أصارحك برأيي ؟

فبادرته قائلة :

ـ كلا ، انى أعرف الكثير عن آرائك ، وارجو أن نبقى صديقين كما كنا !

ورثى رغم غضبه لحالها ، هذه هى الحقيقة العارية قبل أن يلطفها الحب ، التى تهرب مع خادمها امرأة طبيعية وان عدت ـ بعين التقاليد ـ شاذة . فى المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضا والمريض صحيحا ، انه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه ، انها على أى حال تحدس رأيه وفى هذا عزاء . ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده ، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول :

ـ قلت انك لم تدخلى الجامعة لتتوظفى ، قول جميل فى ذاته ، ولكن الى أى مدى انتفعت بالجامعة ؟

وارتفع ذقنها كالمتسائلة ، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية :

ـ معذرة عن سخافتى ، لعل المسألة انك لم تحبى بعد ، مع السلامة .

ودار على عقبيه ، ثم ولى مسرعا .

— ٣٠ —

قال اسماعيل لطيف :

ـ لعلى اخطات بحمل زوجى الى القاهرة كى تلد فيها ، كل ليلة تنطلق صفارة الانذار ، أما طنطا فلم تكد تعرف شيئا من أهوال هذه الحرب .

فقال كمال :

ـ انها غارات رمزية ، لو أرادوا بنا شرا ما منعتهم قوة .

فضحك رياض قلدس ، وقال مخاطبا اسماعيل لطيف ، وكانت هذه ثانى مقابلة بينهما فى مدى تعارف عام :

ـ انت تخاطب رجلا لا يشعر بمسئولية الزوج ! .

فسأله اسماعيل متهكما :

ـ وهل تشعر بها انت ؟ .

ـ حقا أنا أعزب مثله ، غير انى لست عدوا للزواج . .

كانوا يسيرون فى شارع فؤاد الأول ، فى مطلع الليل ، فى ظلام لم تخففه الا الأضواء الضئيلة التى تتسرب من أبواب المحال العامة . وكان الشارع رغم ذلك مكتظا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم . وكان الخريف يبعث أنفاسا رطيبة ، ولكن أكثر الناس مضوا فى الملابس الصيفية . ونظر رياض قلدس الى جماعة من الجنود الهنود وقال :

- من المحزن أن يبتعد الانسان عن وطنه هذه المسافة المديدة ، ليقتل فى سبيل غيره ! .

فقال اسماعيل لطيف :

- ترى كيف يتأتى لهؤلاء التعساء ان يضحكوا ؟ .

فقال كمال ممتعضا :

- كما نضحك نحن فى هذه الدنيا الغريبة ، الخمر والمخدرات واليأس.

فضحك رياض قلدس قائلا :

- انك تعانى ازمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الأركان ، عبث وقبض الريح ، نضال أليم مع اسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، انى ارثى لك.

فقال اسماعيل لطيف ببساطة :

- تزوج ، انى مررت بهذا الملل قبيل زواجى . .

فقال رياض قلدس :

- قل له ! .

فقال كمال ، وكأنما كان يخاطب نفسه :

- الزواج هو التسليم الأخير فى هذه المعركة الفاشلة . .

« اخطأ اسماعيل لطيف فى المقارنة ، انه حيوان مهذب ، ولكن مهلا لعله الغرور ، فيم الغرور وانت ترقد فوق تل من الخيبة والفشل ، اسماعيل لا يدرى شيئا عن دنيا الفكر ، ولكن السعادة المستمدة من العمل والزوجة والأولاد ، أليست سعادة جديرة بأن تسخر من احتقارك لها ؟ » . قال رياض :

- اذا قررت يوما أن أؤلف رواية ، فستكون احد أبطالها !.

فاتجه كمال نحوه فى اهتمام صبيانى ، وسأله :

- ماذا ستصنع منى ؟ .

- لا أدرى ، ولكن ينبغى أن توطن نفسك على الا تزعل ، فان كثيرين ممن قرأوا أنفسهم فى أقاصيصى قد زعلوا . .

- لماذا ؟ . .

- لعله لأن لكل انسان فكرة عن شخصه من خلقه هو ، فاذا جرده الروائى منها أبى وغضب !. .

فتساءل كمال فى قلق :

- ألديك فكرة عنى غير ما تعلن ؟.

فبادره فى توكيد قائلا :
- كلا ، ولكن الروائى قد يبدأ من شخص ثم ينساه كلية وهو بصدد خلق نموذج بشرى جديد ، لا صلة بينه وبين الأصل الا الايحاء ، وانك توحى الى بشخصية الرجل الشرقى الحائر بين الشرق والغرب ، الذى دار حول نفسه كثيرا حتى اصابه الدوار ..
« يتكلم عن الشرق والغرب ، ولكن من أين له أن يعرف عايدة ؟. قد تكون التعاسة متعددة الجوانب » .
وقال اسماعيل لطيف فى بساطة مرة أخرى :
- طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب ، الكتب فى نظرى أساس بلواك : لماذا لا تجرب الحياة الطبيبعية ؟ .
وبلغوا فى مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا اليه ، وقد اعترضتهم جماعة كبيرة من الانجليز فتفادوا منها ، وقال اسماعيل لطيف :
- الى جهنم ، من أين لهم هذا الأمل ؟!. ترى هل يصدقون أنفسهم؟.
فقال كمال :
- يخيل الى أن نتيجة الحرب قد تقررت ، غايتها الربيع القادم ..
فقال رياض قلدس ممتعضا :
- النازية حركة رجعية غير انسانية ، وسوف يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية ...
فقال اسماعيل :
- ليكن ما يكون ، المهم أن نرى الانجليز فى نفس الموضع الذى فرضوه على العالم الضعيف !.
وقال كمال :
- ليس الألمان بخير من الانجليز ..
فقال رياض قلدس :
- ولكننا انتهينا مع الانجليز الى بر ، والاستعمار البريطانى يوغل اليوم فى الشيخوخة ، ولعله قد تلطف ببعض المبادىء الانسانية ، ولكننا سنتعامل غدا مع استعمار فتى مغرور شره غنى حرب ، فما العمل ؟.
فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة ، وقال :
- نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه حكومة واحدة عادلة !
- سنحتاج حتما الى أكثر من كأسين ..

ووجدوا انفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من قبل ، لعلها من الحانات «الشيطانى» التى تخلقها ظروف الحرب بين يوم وليلة ، وحانت من كمال نظرة الى داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقى تقوم على ادارة الحانة ، ثم جمدت قدماه فلم يتحرك من موقفه ، او بالأحرى لم يستطع أن يتحرك حتى اضطر صاحباه أن يتوقفا عن السير وينظرا الى حيث ينظر. مريم !. لم تكن الا مريم دون غيرها ، مريم الزوجة الثانية لياسين، مريم جارة العمر ، فى هذه الحانة بعد اختفاء طويل ، مريم التى ظن بها انها لحقت بأمها ! .

ــ اتريد ان نجلس ها هنا ؟. هلم فليس بالداخل الا اربعة جنود .

وتردد مليا ، ولكن شجاعته لم تواته فقال ولما يفق من ذهوله :

ــ كلا . . .

والقى نظرة على المرأة التى ذكرته بأمها فى ايامها الاخيرة ، ثم انطلقوا فى طريقهم . متى رآها آخر مرة ؟ . منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاما على الأقل ، انها معلم من معالم الماضى الذى لا ينسى ، ماضيه . . تاريخه . . ماهيته. . كل أولئك شيء واحد ، وقد استقبلته فى قصر الشوق فى آخر زيارة لهذا البيت قبل طلاقها ، وما زال يذكر كيف شكت اليه اعوجاج اخيه وارتداده الى حياة العربدة والمجون ، شكوى لم يكن يقدر عواقبها وقد انتهت بها الى الدور الذى تلعبه فى هذه الحانة الشيطانى ، ومن قبل ذلك كانت كريمة السيد محمد رضوان ، وكانت صديقته وملهمة احلامه فى الصبا الأول ، فى ذلك الزمان الذى شهد البيت القديم عامرا بالأفراح والسلام ، كانت مريم وردة وكانت عائشة وردة ولكن الزمن عدو لدود للورود ، وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها فى بيت من هذه البيوت كما عثر بالست جليلة ، ولو وقع هذا لكان وجد نفسه فى مازق اى مازق ، هكذا بدأت مريم بالانجليز وانتهت بالانجليز .

ــ أتعرف هذه المرأة ؟.

ــ نعم . . .

ــ كيف ؟.

ــ امرأة من هاتيك النسوة ، ولعلها نسيتنى . .

ــ أوه ، الحانات ملأى بهن ، مومسات قديمات ، وخادمات متمردات ، ومن كل لون . .

ـ نعم . . .

ـ ولم لم تدخل فلعلها كانت ترحب بنا اكراما لك . . ؟

ـ لم تعد فى طور الشباب ولدينا أماكن أفضل .

تقدم به العمر وهو لا يدرى ، منتصف الحلقة الرابعة ، وكأنما قد استهلك نصيبه من السعادة ، واذا قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيهما أشد ، ولكن ماذا يهم العمر وقد ضاق بالحياة ؟ ، حقا ان الموت لذة الحياة . . ولكن ما هذا الصوت ؟.

ـ غارة !. .

ـ أين نذهب ؟.

ـ الى مخبأ قهوة ركس .

لم يجدوا فى المخبأ مكانا خاليا للجلوس فوقفوا . وكان ثمة أفندية وخواجات وسيدات وأطفال . وكان الكلام يدور بشتى اللغات واللهجات . وأصوات رجال المقاومة المدنية فى الخارج تهتف « اطفىء النور » . وبدا وجه رياض شاحبا ، وكان يمقت دوى المدافع ، فقال له كمال مداعبا :

ـ قد لا تتمكن من العبث بشخصى فى روايتك . .

فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يومىء الى الناس :

ـ البشرية ممثلة بنسبة عادلة فى هذا المخبأ . .

فقال كمال متهكما :

ـ لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على الخوف !.

وهتف اسماعيل متنرفزا :

ـ زمان زوجى نازلة على السلم تتلمس طريقها فى الظلام ، انى أفكر جديا فى العودة الى طنطا غدا . .

ـ ان عشنا !.

ـ مساكين حقا أهل لندن !.

ـ لكنهم أصل البلاء كله . .

وكان وجه رياض قلدس يزداد شحوبا ، ولكنه دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال :

ـ سمعتك تتساءل مرة أين محطة الموت لأغادر مركبة الحياة المملة ، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة الآن ؟.

فابتسم كمال ، وكان يرهف السمع فى قلق متزايد متوقعا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصك الآذان صكا ، وأجاب :

ـ كلا .. (ثم كالمتسائل) .. لعله الخوف من الألم ؟.

ـ أم ثمة أمل غامض فى الحياة ما زال يضطرب فى أعماقك ؟.

لماذا لم ينتحر ؟. ولم يبدو ظاهر حياته كأنما يمتلىء حماسا وايمانا ؟. طالما نازعته النفس الى النقيضتين : وكر الشهوات والتصوف ، لكنه لم يكن ليطيق حياة خالصة للدعة والشهوات ، ومن ناحية أخرى كان ثمة شيء فى أعماقه ينفر من فكرة السلبية والهروب ، ولعله ـ هذا الشيء ـ الذى حال بينه وبين الانتحار ، وفى ذات الوقت فان استمساكه بحبل الحياة المضطرب فى يديه مناقض لصميم شكه القاتل ، والخلاصة فى كلمتين : حيرة وعذاب !.

وفجأة انطلقت المدافع كالمطر ، لاتتيح للصدر متنفسا ، وزاغت الأبصار، وضلت الألسن ، ولكن الضرب لم يستمر أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنى . وتوقع الناس عودة بغيضة الى الدوى المرعب ، واستبد الفزع بالنفوس ، غير أن الصمت ساد وعمق . وتساءل اسماعيل لطيف :

ـ انى أتخيل حال زوجى الآن ، ترى متى تنتهى الغارة ؟.

فتساءل رياض قلدس :

ـ متى تنتهى الحرب ؟.

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فند عن المخبأ تنهد عميق . وقال كمال :

ـ ليست الا مداعبة ايطالية !.

وغادروا المخبأ فى الظلام كالخفافيش ، ولفظت الأبواب أشباحا وراء أشباح ، ثم تساقط الضوء الباهت متتابعا من النوافذ ، وملأت الضجة الأركان ...

ـ يبدو أن الحياة ـ فى هذه اللحظة السريعة المعتمة ـ ذكرت كل غافل بمدى قيمتها الذى لا يقاس به شيء فى الوجود ...

- ٣١ -

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوض مجلسه ، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل . ففى نصف النهار الأول يغيب كمال فى المدرسة ، وتمضى امينة الى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة ، وتنزل ام حنفى الى حجرة الفرن ، ويتمدد السيد على الكنبة فى حجرته او يجلس على كرسى فى المشربية ، وتهيم عائشة على وجهها مابين السطح وحجرتها ، ويظل الراديو فى الصالة يهتف وحده . وعند الأصيل تجتمع امينة وام حنفى فى الصالة ، وتلبث عائشة فى حجرتها ، او تمكث معهما بعض الوقت ثم تذهب ، أما السيد فلا يغادر حجرته ، وكمال ان عاد من الخارج مبكرا فلكى يقبع فى الدور الأعلى فى مكتبه . وكان اعتكاف السيد أول الأمر محزنا ، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين ، وكان حزن عائشة مفجعا ثم صار عادة عندها وعند الآخرين ، ومازالت امينة أول من يستيقظ ، فتوقظ بدورها أم حنفى ، ثم لتتوضأ وتصلى . وتنهض أم حنفى — وكانت نسبيا خير الجميع صحة — فتقصد حجرة الفرن ، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقداح القهوة تباعا وتحرق السجائر الواحدة تلو الاخرى حتى اذا دعيت للفطور تناولت لقمات. وقد اضمحلت أيما اضمحلال ، انقلبت هيكلا عظميا كسى جلدا باهتا ، واخذ شعرها فى السقوط حتى اضطرت الى اللجوء الى الطبيب قبل أن يدركها الصلع ، وتكالبت عليها العلل حتى اشار عليها الطبيب بالتخلص من أسنانها ، فلم يبق من شخصها القديم الا الاسم . ولم تكن أقلعت عن عادة النظر فى المرآة ، لا لتأخذ زينة ، ولكن بحكم العادة من ناحية ، وللامعان فى الحزن من ناحية أخرى . وربما بدت احيانا وكأنها اذعنت للمقادير فى استسلام لطيف ، فتطيل من جلستها مع امها ، وتشارك فى الحديث الدائر ، وربما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة ، أو تزور والدها لتسأل عن صحته ، أو تتمشى فى حديقة السطح وترمى بالحب الى الدجاج ، هنالك تقول امها برجاء :

ـ كم أسعدت قلبى يا عائشة ، ليتنى أراك دائما على هذه الحال ..
على حين تجفف ام حنفى عينيها قائلة :
ـ فلنذهب الى حجرة الفرن لنصنع شيئا جميلا !
ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمها على صوت بكاء آت من حجرتها ، فهرعت اليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم ، فوجدتها جالسة فى الظلام تنتحب ، ولما شعرت بدنو أمها تعلقت بها هاتفة :
ـ لو تركت لى ما كان فى بطنهـا ! ، ظلا منهـا ! ، يداى فارغتان ، والدنيا لا شىء فيها ..
فاحتضنتها أمها وهى تقول :
ـ انى أعلم النـاس بحزنك ، حزن يجـل عن العـزاء ، ليتنى كنت فداهم ، ولكن لله جل وعلا حكمته ، وما جدوى الحزن يا مسكينة ..؟!
ـ كلما نمت حلمت بهم ، أو حلمت بالحياة الأولى ..
ـ وحدى الله ، ذقت ما تعـانين طويلا ، انسيت فهمى ؟ ، ولـكن المؤمن المصاب مطالب بالصبر ، أين ايمانك ؟
فهتفت فى امتعاض :
ـ ايمانى !
ـ نعم ، اذكرى ايمانك ، وتوسلى الى ربك تنزل عليك الرحمـة من حيث لا تدرين ..
ـ الرحمة ! ، أين الرحمة أين ؟
ـ رحمته وسعت كل شىء ، طاوعينى وتعـالى معى الى الحسين ، ضعى يدك على الضريح واتلى الفـاتحة تتحول نارك الى برد وسـلام كنار سيدنا ابراهيم ..
ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطرابا ، فحينا تتردد على الأطباء فى مثابرة وانتظام حتى يظن بها العودة الى الاستمساك بأهداب الحياة ، وحينا تهمل نفسها وتزدرى كافة النصائح لدرجة الانتحار . أما زيارة القرافة فهى التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة واحدة ، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتى استحال حوش المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين . ويوم جاءها ابراهيم شـوكت لاتمام اجـراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأمها :

ـ هنئيني على ميراثي من نعيمة ..

وكان كمال يمر بها كلما آنس منها استقرارا ، فيجالسها مليا ملاطفا متوددا . كان يتأملها طويلا صامتا ، ويتخيل محزونا الصورة الجميلة الذاهبة التي أبدع الله صنعها ، ثم يتفحص ما آلت اليه . لم تكن هزيلة فحسب ، ولا مريضة فحسب ، ولكن محزنة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، ولم يغب عنه ما بينهما من أوجه الشبه في الحظ ، فهي قد فقدت ذريتها وهو قد فقد آماله ، وانتهت الى لا شيء كما انتهى الى لا شيء ، بل كان أبناؤها لحما ودما اما آماله فكانت كذبا وأوهاما ! .

وقال لهم يوما :

ـ أليس من الأفضل أن تذهبوا الى المخبأ اذا أطلقت صفارة الانذار ؟

فقالت عائشة :

ـ لن أغادر حجرتي ..

وقالت الأم :

ـ انها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ ..

أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول :

ـ لو بي قدرة على الذهاب الى المخبأ لذهبت الى الجامع أو الى بيت محمد عفت ..

ويوما جاءت عائشة من السطح مهرولة وهي تلهث وقالت لأمها :

ـ حدث شيء عجيب !

فنظرت اليها أمها في استطلاع مشرب بالرجاء ، فعادت تقول وهي ما تزال تلهث :

ـ كنت في السطح أراقب غروب الشمس ، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل ، وفجاة فتحت في السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتي « يا رب ! »

اتسعت عينا الأم في تساؤل ، أهي الرحمة المنشودة أم هاوية جديدة من الأحزان ؟. وتمتمت :

ـ لعلها رحمة ربنا يا ابنتي ..

فقالت ووجهها يتهلل بشرا :

ـ نعم ، صحت يا رب ، وكان النور يملأ الدنيا ..

وراحوا جميعا يفكرون في الأمر ويراقبون الحال في قلق بالغ . أما

عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقبة النور أن يومض مرة أخرى ، حتى قال كمال لنفسه « ترى أهى النهاية التى يهون الى جانبها الموت ؟ » . ولكن من حسن الحظ ـ حظ الجميع ـ انها تناست الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره . ثم لم تزل توغل فى دنيا خاصة خلقتها لنفسها ، وعاشت فيها وحدها ، وحدها سواء أكانت منفردة فى حجرتها أو جالسة بينهم ، الا ساعات متباعدة تثوب فيها اليهم كالعائد من سفر ، ثم لا تلبث أن تواصل الرحيل . والتصقت بها عادة جديدة هى محادثة نفسها ، خلصة حين انفرادها ، وشد ما أثارت بذلك القلق ، غير أنها كانت تخاطب أمواتا وهى مدركة لحال موتهم ، ولم تتخيل أوهاما أو أشباحا ، وفى ذلك كان عزاء المحيطين بها . . .

— ٣٢ —

ما أقسى البرد هذا الشتاء ! ، يذكر بشتاء قديم ظل الناس يؤرخون به جيلا ، شتاء أى عام يا ترى ؟ ، رباه أين الذاكرة التى تعى ذلك اين ؟ ، غير ان القلب العجوز يحن اليه فى مجهوله ، فهو جزء من الماضى الذى تهيج ذكراه الدموع فى مكامنها ، الماضى الذى يعيش فى خواطره فى هالة من الذكريات السعيدة ، الماضى الذى كان يستيقظ فيه مبكرا فيستحم تحجت الدش غير مبال برد الشتاء ثم يملأ بطنه وينطلق الى دنيا الناس ، دنيا الحركة والحرية التى لا يعرف اليوم عنها شيئا اللهم الا ما يجود به الرواة وكأنهم يحدثون عن عالم فى أقصى الأرض . كانت له الحرية والقدرة على أن يجلس على الكنبة فى الحجرة أو على الكرسى فى المشربية وكان مع ذلك يضيق بسجن البيت ، وكان يذهب حين الحاجة الى الحمام أو يغير ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت ، وكان له يوم فى الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكئا على عصاه او راكبا عربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله ان ينقذه من محبس البيت . أما اليوم فلم يعد يسعه أن يغادر الفراش ، ولم تمد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه الخشبية ، حتى الحمام يجيء اليه ولا يذهب هو اليه ، قذارة لم تكن فى الحسبان ، حتى استقر الامتعاض على شفتيه ،

واستكنت المرارة فى لعابه ، على هذه الخشبة يرقد نهارا وينام ليلا ويتناول طعامه ويقضي حاجته ، وهو من كان يضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيب بين يديه ، وفى هذا البيت الذى استكان عمره لارادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى الا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالاطفال . وذهب الأحباب فى فترات متقاربة من الزمن كأنهم كانوا على ميعاد ، ذهبوا وتركوه وحيدا . عليك رحمة الله يا محمد عفت ، كان آخر العهد به سهرة من ليالى رمضان فى السلاملك المطل على الحديقة ، ثم ودعه ومضى وضحكته العالية توصله الى الباب ، وما كاد يأوى الى حجرته حتى طرق الباب طارق وهرع اليه رضوان وهو يقول « مات جدى يا جدى » ، يا سبحان الله . . متى ؟ . . وكيف ؟ . . ألم يضاحكنا منذ دقائق ؟ ، ولكنه سقط على وجهه وهو فى طريقه الى مخدعه ، هكذا انطوى حبيب العمر . وعلى عبد الرحيم الذى احتضر ثلاثة أيام كاملة ، فى سعال حاد متقطع حتى فزعنا الى الله ان يحسن خاتمته ويريحه من الألم ، واختفى من دنياى أليف الروح على عبد الرحيم . وقد ودع هذين الحبيبين أما ابراهيم الفار فلم يودعه ، كان اشتداد المرض قد أقعده فى فراشه ومنعه عن عيادته ، فنماه اليه خادمه ، وحتى الجنازة لم يشيعها فشيعها عنه ياسين وكمال ، فالى رحمة الله يا الطف الناس طرا . ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحمزاوى وعشرات من المعارف والأصحاب ، تركوه وحيدا كأنه لم يعرف من الناس احدا ، لا زائر له ولا عائد ، وجنازته لن يشيعها صديق . حتى الصلاة حيل بينه وبينها ، وهل يتمتع بالطهر الا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر الا مرة كل أشهر ؟ ، فحرم من الصلاة وهو أشد ما يكون حاجة الى مناجاة الرحمن فى هذه الوحدة الموحشة . هكذا تمضى الأيام ، الراديو يتكلم وهو يسمع ، وأمينة تذهب وتجىء ، وشد ما ركبها الوهن ، غير أنها لم تعتد الشكوى ، انها ممرضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غدا الى من يمرضها ، وهى كل ما بقى له ، أما ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعة ثم يذهبان ، ود لو لم يفارقاه ، ولكنها أمنية لا يستطيع ان يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها ، أمينة وحدها التى لا تمله ، واذا ذهبت لزيارة الحسين فلكى تدعو له ، والعالم بعد ذلك فراغ . وان يوم زيارة خديجة له ليوم يستحق الانتظار ، تجىء وفى

صحبتها ابراهيم شوكت وعبد المنعم واحمد ، فتمتلىء الحجرة بالأحياء وتتبدد وحشتها ، وقليـلا ما يتكلم هو أما هم فيتكلمون كثيرا ، ومرة خاطبهم ابراهيم قائلا « اريحوا السيد من ثرثرتكم » فقال له معاتبا : « دعهم يتكلمون . . اريد ان أسمعهم ! » ، ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها ، وكان يعلم بأنها تود لو تسهر على راحته بنفسها ، وكان يطالع فى عينيها حنـانا ما وراءه حنـان . ويوما سأل ياسين فى شوق واستطلاع باسما :

ـ اين تمضى سهراتك ؟

فقال فى حياء :

ـ اليوم الانجليز فى كل مكان كأيام زمان .

ايام زمان ! ، أيام القوة والبأس ، والضحك الذى تهتز له الجدران ، وسهرات الغورية والجمالية ، والناس الذين لم يبق منهم الا أسـماء ، زبيدة وجليلة وهنية . ترى الا تذكر أمك يا ياسين ؟ ، وها هى زنوبة وكريمة يجلسان الى جانب والدهما ، ودواما سنطلب الرحمة والغفران .

ـ من بقى من معارفنا القدامى فى وزارتك يا ياسين ؟

ـ أحيلوا جميعا الى المعاش ، ولم اعد ادرى عنهم شيئا !

ولا هم يدرون عنا شيئا ، أصـدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعـارف ! ، ولكن ما اجمل كريمة ! ، فاقت أمها فى زمانهـا ، ومع ذلك لم تعد الرابعة عشرة ، ونعيمة الم تكن آية فى الجمال ! .

ـ ياسين ان استطعت أن تقنع عائشة بزيارتكم فافعل ، انتشلوها من وحدتها فانى أخاف عليها منها . .

فقالت زنوبة :

ـ طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنها . . . ، كان الله فى عونها !.

ولاحت فى عينى الرجل نظرة قاتمة . ثم اذا به يسأل ياسين :

ـ الا تصادف فى طريقك الشيخ متولى عبد الصمد ؟

فقال ياسين باسما :

ـ أحيانا ، انه لا يكاد يعرف أحدا ، ولكنه ما زال يسير على قدمين قويتين !

يا للرجل ! ، ألم تنازعه نفسه مرة الى زيارتى ؟ ، أم نسينى كما نسى أبنائى من قبل ؟ ! .

ولما ذهب الأصدقاء اتخذ الرجل من كمال صديقا ، ولعله فاجاه بصداقته . لم يعد الأب الذى عهده ، وغدا صديقا يناجيه ويتشوف الى مناجاته . وكان يقول عنه آسفا : « أعزب فى الرابعة والثلاثين من عمره ، يعيش أكثر حياته فى حجرة مكتبه ، كان الله فى عونه » ، ولم يكن يعد نفسه مسئولا عما صار اليه امره ، فقد أبى من اول الأمر الا أن يصنع نفسه بنفسه ، وانتهى به الحال الى أن يكون مدرسا اعزب « قعيدا متطوعا » فى حجرته . وكان يتجنب ان يثقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس الخصوصية ، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدخره من النقود حتى الرمق الأخير كيلا يكون يوما عالة عليه . ويوما سأله :

ـ هل تعجبك هذه الأيام ؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة ، وتردد فى الجواب ، فاستطرد الرجل قائلا :

ـ الأيام الحقيقية كانت أيامنا ! ، كانت يسرا ورغدا ، وصحة وعافية ، شهدنا سعد زغلول ، وسمعنا سى عبده ، ماذا فى أيامكم ؟ !

فاجاب كمال ماخوذا بتداعى معانى الحديث فحسب :

ـ لكل زمان محاسنه ومعايبه ..

فهز الرجل راسه المسند الى مخدة مكسورة وراء ظهره وقال :

ـ كلام يقال ليس الا ...

ثم بعد فترة صمت ودون تمهيد :

ـ عجزى عن الصلاة يحز فى نفسى حزا ، فالعبادة عزاء الوحدة ، ومع ذلك تمر بى اوقات غريبة انسى فيها كافة وجوه الحرمان التى اعانيها من ماكل ومشرب وحرية وعافية ، تصفو نفسى صفاء عجيبا حتى يخيل الى انى متصل بالسماوات ، وأن ثمة سعادة مجهولة تزرى بالحياة وما فيها ..

فتمتم كمال :

ـ ربنا يمد فى عمرك ويرد اليك العافية ..

فهز رأسه مرة أخرى فى استسلام ، وقال :

ـ هذه ساعة طيبة ، لا ألم فى الصدر ، ولا ضيق فى التنفس ، وورم ساقى آخذ فى الزوال ، وموعدنا اليوم فى الراديو مع مايطلبه المستمعون !

واذا بصوت أمينة يقول :

ــ سيدى بخير ؟
ــ الحمد لله .
ــ هل آتى بالعشاء ؟
ــ العشاء ؟ ! ، أما زلت تسمينه العشاء ؟ ! ، هاتى سلطانية اللبن !

— ٣٣ —

بلغ كمال بيت أخته بالسكرية حوالى العصر فوجد الأسرة مجتمعة فى الصالة بكامل هيئتها ، فصافحهم وهو يقول مخاطبا احمد :

ــ مبارك الليسانس . . .

فأجابته خديجة بلهجة خالية من كل معانى الابتهاج :

ــ مبارك عليك ، ولكن تعال اسمع آخر خبر ، ابنك لايريد أن يتوظف .

وقال ابراهيم شوكت :

ــ ابن خاله رضوان مستعد لتوظيفه اذا وافق ولكنه يصر على الرفض ، كلمه يا أستاذ كمال لعله يقتنع برأيك انت . .

خلع كمال طربوشه ، ونزع ــ من شدة الحر ــ الجاكتة البيضاء فألبسها مسند كرسى ، ومع أنه كان يتوقع معركة الا انه قال باسما :

ــ حسبت أن اليوم سيكون خالصا للتهنئة ، ولكن هذا البيت لايسلو النزاع أبدا !

فقالت خديجة فى لهجة أسيفة :

ــ قسمتى ، الناس كلهم حال ونحن وحدنا حال . .

وخاطب أحمد خاله قائلا :

ــ الأمر بسيط ، ليس أمامى الآن الا وظيفة كتابية ، فقد أخبرنى رضوان انه يمكن تعيينى الآن فى وظيفة خالية بادارة المحفوظات عند خالى ياسين ، واقترح على أن أنتظر ثلاثة أشهر حتى بدء العام الدراسى الجديد لعلى أعين مدرس لغة فرنسية فى احدى المدارس ، ولكننى لا أريد الوظيفة أيا كان نوعها ! .

فهتفت خديجة :

ــ قل له ماذا تريد ؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم :

ـ سأعمل فى الصحافة .

فنفخ ابراهيم شوكت قائلا :

ـ جورنالجى ! ، كنا نسمع هذا الكلام،فنظنه ضحكا وعبثا ، يأبى أن يكون مدرسا مثلك ويسعى الى أن يكون جورنالجيا . .

فقال كمال فى لهجة ساخرة :

ـ كفاه الله شر مهنة التدريس !

فقالت خديجة فى انزعاج :

ـ وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيا ؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفا الجو :

ـ لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد .

فقالت له أمه بحدة :

ـ ولكنك موظف يا سى عبد المنعم . . !

ـ فى كادر ممتاز ، ولكنى لا ارضى له وظيفة كتابية ، وها هو خالى كمال يستعيذ من مهنته . .

والتفت كمال الى احمد متسائلا :

ـ فى أى نوع من الصحافة تريد أن تعمل ؟

ـ الأستاذ عدلى كريم موافق على قبولى فى مجلته تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولا ثم بالتحرير فيما بعد . .

ـ ولكن « الانسان الجديد » مجلة ثقافية محدودة الموارد والمجال ؟

ـ هى خطوة أولى للتمرين حتى يتيسر لى عمل أهم ، وعلى أى حال ففى وسعى أن أنتظر دون أن أجوع . .

فنظر كمال الى خديجة قائلا :

ـ دعى الأمور تجرى كما يشاء الله ، انه راشد مثقف وأدرى بما يفعل . .

ولكن خديجة لم تسلم بالهزيمة بسهولة ، وعادت تحاول اقناع ابنها بقبول الوظيفة حتى علا صوتهما واحتد فتدخل كمال ليخلص بينهما . ثم تكدر جو المجلس وساد صمت ثقيل حتى قال كمال ضاحكا :

ـ جئت طامعا فى شرب الشربات فكانت هذه العكننة نصيبى . .

وفى أثناء ذلك ارتدى أحمد ملابسه ليغادر البيت ، فاستأذن كمال

وخرجا معا . وسارا فى شارع الأزهر ، وقد صارح أحمــد خاله بأنه ماض الى مجلة الانســـان الجديد ليتسلم عمله كما وعده الأستاذ عدلى كريم ، فقال له كمال :

ـ افعل ما تشاء ولكن تجنب ايذاء والديك ..

فقال احمد ضاحكا :

ـ انى احبهما وأجلهما ولكن ...

ـ ولكن ... ؟

ـ من الخطأ الكبير ان يكون للانسان والدان ! .

كمال ضاحكا :

ـ كيف هان عليك ان تقول ذلك ؟ .

ـ لا اعنى حرفيتــه ، ولكن ما يرمز اليه الوالدان من تقاليد الماضى ، فالأبوة على وجه العموم فرملة ، وما حاجتنا فى مصر الى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالأغلال ؟! .

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير :

ـ ان مثلى لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دام لى بيت ولأبى دخل ، ولا انكر انى مطمئن بذلك ولكنى فى الوقت نفسه خجل منه ! .

ـ متى ينتظر ان تؤجر على عملك ؟ .

ـ لم يحدد الأستاذ وقتا ..

وعند العتبة الخضراء افترقا ، فمضى أحمد الى مجلة الانسان الجديد . وقد استقبله الأســتاذ عدلى كريم مشجعا ، وذهب معه الى حجــرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلا :

ـ زميلكم الجديد الأستاذ أحمد ابراهيم شوكت ..

ثم قدم اليه زملاءه قائلا :

ـ آنســة سوسن حماد ، الأســتاذ ابراهيم رزق ، الأستاذ يوسف الجميــل ...

وصافحوه مرحبين ، ثم قال ابراهيم رزق مجاملا :

ـ اسمك معروف فى مجلتنا ..

وقال الأستاذ عدلى كريم باسما :

ـ انه الابن البكر للانسان الجديد .. (ثم وهو يشير الى مكتب يوسف

الجميل) ... ستعمل على هذا المكتب فان عمل صاحبه فى الخارج الا فيما ندر ...

وغادر عدلى كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل احمد الى الجلوس على كرسى قريب من مكتبه ، وانتظر حتى جلس ثم قال :

ـ ستوجهك الآنسة سوسن الى العمل الذى سيناط بك ، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة .. وضغط على زر الجرس على حين راح احمد يتصفح الوجوه والمكان . كان ابراهيم رزق كهلا مهدما يبدو أكبر من سنه بعشرة أعوام ، أما يوسف الجميل فكان فى العقد الأخير من الشباب ، وكان مظهره ينم عن الحذق والذكاء . ورمى ببصره الى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره ؟. ولم يكن رآها منذ اول مقابلة عام ١٩٣٦ . والتقت عيناهما فسألها باسما مدفوعا برغبة فى الخروج من صمته :

ـ قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات ..

فلاح التذكر فى عينيها اللامعتين فاستدرك قائلا :

ـ كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها ؟ .

فقالت باسمة :

ـ أكاد أذكرك، وعلى كل فقد نشرنا لك منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة .

فقال يوسف الجميل معلقا :

ـ مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة ..

وقال ابراهيم رزق :

ـ أن الوعى اليوم غيره بالأمس ، كلما نظرت فى الطريق قرأت على الجدران عبارة « الخبز والحرية » ، هذا شعار الشعب الجديد .

فقالت سوسن حماد باهتمام :

ـ ما أجمله من شعار ، خاصة فى هذا الوقت الذى أطبق فيه الظلام على العالم ! .

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعا ـ وفى حماس وسرور ـ للجو المحيط به وقال :

ـ الظلام يطبق على العالم حقا ، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل فى النجاة .

فقالت سوسن حماد :

ـ انى أنظر الى الموقف من زاوية أخرى ، الا ترى أن هتلر لو هاجم

بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو فى الأقل أن ينتقل مركز القوة الى روسـيا ؟ . . .

ـ واذا حدث العكس ؟ . أعنى ان يجتاح هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القـوة ؟! . . .

فقال يوسف الجميل :

ـ كان نابليون كهتلر غازى أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته .

ووجد احمد نشاطا وحماسا لم يشعر بمثلهما من قبل . هذا الهواء النقي، وهؤلاء الزملاء الأحرار ، وهذه الزميلة المستنيرة الحسناء . ولداع او لآخر ذكر علوية صبرى ، وعام العذاب الذى صارع فيه الحب الخائب حتى صرعه . حين كان يصبح ويمسى وهو يلعن الحب من صميم قلبه حتى تطاير فى الهواء تاركا فى أعماق النفس آثارا من الامتعاض والتمرد لا تزول . انها الآن فى بيتها فى المعادى تنتظر زوجا ذا خمسين جنيها شهريا على الأقل ، أما هذه الفتاة التى تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى ؟.

واذا بسوسن تلوح برزمة أوراق فى وجهه وهى تقول برقة :

ـ تسمح ؟ . . .

فنهض ، ثم مضى الى مكتبها باسما ليبدأ عمله الجديد . .

— ٣٤ —

لم يكن يوسف الجميل يمر بالمجلة الا يوما فى الأسبوع أو يومين اذ كان جل نشاطه موجها للاعلانات والاشتراكات ،كذلك ابراهيم رزق لم يكن يمكث فى السكرتارية اكثر من ساعة ثم يدور على بقية المجلات التى يعمل بها ، فكان أكثر الوقت يمضى وهما منفردان ، أحمـد وسوسن . ومرة جاء رئيس عمال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه الا أن يسمعها وهى تدعوه « أبى » ! . وعلم بعد ذلك أن ثمة صلة قربى تربط الأستاذ عدلى كريم نفسه برئيس عمال المطبعة . كان ذلك مفاجئا ومثيرا . وراعه أكثر من سوسن مثابرتها على العمل ،كانت محور التحرير ومركز نشاطه ، بيد أنها كانت تعمل اكثر مما يستوجبه تحرير المجلة ، فما تزال تقرأ أوتكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء ، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها ،

حتى كان يخيل اليه بعض الأحيان ـ رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمها الأنثوى اللطيف ـ أنه حيال رجل قوى الارادة حسن التنظيم . ثم تأثر بنشاطها فثابر على عمله بهمة لا تعرف الكلل او الملل . وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات العالم الثقافية ، الى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن . وقد قال لها يوما :

ـ ان الرقابة تقف لنا بالمرصاد . .

فقالت بصوت يدل على الحنق والازدراء :

ـ أنت لم تر شيئا بعد ، مجلتنا « مشبوهة » فى الدوائر العليا ! . ولها الشرف ! . .

فقال أحمد باسما :

ـ تذكرين طبعا افتتاحيات الأستاذ عدلى كريم قبل الحرب ؟ .

ـ لقد عطلت مجلتنا مرة فى عهد على ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة .

ويوما سألته ضمن حديث عابر :

ـ لماذا اخترت الصحافة ؟ .

فتفكر قليلا . الى اى درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التى تبدو طرازا وحدها بين من عرف من بنات جنسها ؟ .

ـ لم ادخل الجامعة لاتوظف ، ولكن عندى أفكار اريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل الى ذلك خير من الصحافة . .

فقالت باهتمام سر له من أعماقه :

ـ أما أنا فلم أدرس فى الجامعة ، أو بالحرى لم تتح لى فرصة (سرته صراحتها كذلك وان أكدت فى نفسها مخالفتها لبنات جنسها) . . . انى متخرجة فى مدرسة الأستاذ عدلى كريم ، وهى ليست دون الجامعة منزلة ، درست عليه منذ حصولى على البكالوريا ، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة ، أو الصحافة التى نعمل فيها ، بيد أنك تنفس عن أفكارك ـ حتى الآن ـ عن طريق غيرك ، أعنى بالترجمة ، ألم تفكر فى اختيار الشكل الذى يناسبك من اشكال الكتابة ؟ .

فصمت مفكرا كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ المقالة ، الشعر ، القصة ، المسرحية ؟ .

ـ لا أدرى ، المقالة اول ما يتبادر الى الخاطر ..

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ نعم ، ولكنها لظروفنا السياسية لم تعد مطلبا يسيرا ، لذلك يضطر الأحرار الى اذاعة آرائهم بالمنشورات السرية ، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهى خطيرة ، خاصة وأن الأعين محملقة فينا ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، انها فن ماكر ، وقد غدت شكلا أدبيا شائعا سوف ينتزع الامامة فى عالم الأدب فى وقت قصير ، الا ترى انه ما من كبير من شيوخ الأدب الا وهو يثبت وجوده فى مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد ؟ .

ـ نعم ، قرات أكثر هذه المؤلفات ، ألم تقرئى للأستاذ رياض قلدس الكاتب بمجلة الفكر ؟ .

ـ هذا واحد من كثيرين ، وليس خيرهم ! .

ـ ربما ، لقد لفتنى اليه خالى الأستاذ كمال احمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة ...

فقالت باسمة :

ـ هو خالك ؟ . قرات له مرات ، ولكن ...

ـ ؟ ......

ـ معذرة انه من الكتاب الذين يهيمون فى تيه الميتافيزيقا !.

فتساءل فيما يشبه القلق :

ـ الم يعجبك ؟ .

ـ الاعجاب شىء آخر ، انه يكتب كثيرا عن الحقائق القديمة : الروح .. المطلق .. نظرية المعرفة ، هذا جميل ، ولكنه ـ فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكرى ـ لا يفضى الى غاية ، ينبغى أن تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف ، وان يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالانسان فى سلم الرقى والتحرر ، الانسانية فى معركة متواصلة والكاتب الخليق بهذا الاسم حقا يجب أن يكون على رأس المجاهدين ، أما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده ...

ـ ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفا ناشئا يهيم فى تيه الميتافيزيقا ؟.

ـ وانتهى بعلم الاجتماع العلمى ، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ ..

لم يرتح أحمد الى نقد خاله على هذا النحو ، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شىء :

— الحقيقة جديرة دائما بأن تعرف ، مهما تكن ، ومهما يكن الرأى فى آثارها ...

فقالت سوسن فى حماس :

— هذا مناقض لما تكتب ، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك !. عند ما يكون الانسان متألما يركز اهتمامه فى ازالة أسباب الألم ، مجتمعنا متألم جدا فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء ، ولنا بعد ذلك أن نلهو ونتفلسف ! ، ولكن تصور انسانا يتفلسف لاهيا وبه جرح ينزف لايعيره أدنى التفات ، ماذا تقول عن مثل هذا الانسان ؟ !

أهذا خاله حقا ؟ ، لكن فليقر بأن كلامها يلقى تجاوبا كاملا مع نفسه ، وبأن عينيها جميلتان ، وبأنها رغم غرابتها و « جديتها » جذابة ... جذابة ...

— الواقع أن خالى لا يعير هذه الأمور التفاتا جديا ، لقد حدثته كثيرا عنها فوجدته انسانا يدرس النازية كما يدرس الديموقراطية أو الشيوعية ، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار ، لم أستطع أن أتبين موقفه..

فقالت باسمة :

— لا موقف له ، ان موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى ، انه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل ، وقد تجده فى حيرة أمام « المطلق » ، وربما بلغت به الحيرة حد الألم ، ولكنه يمر سادرا بالمتألمين الحقيقيين فى طريقه ..

فقال ضاحكا :

— ليس خالى كذلك ..

— انت أدرى ،كذلك قصص رياض قلدس ليست بالقصص المنشودة ، انها واقعية وصفية تحليلية ، ولا تتقدم عن ذلك خطوة ، لا توجيه فيها ولا تبشير !

ففكر أحمد قليلا ثم قال :

— ولكنه كثيرا ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين ، ومعنى هذا انه يهب مسرح البطولة فى أقاصيصه للطبقة الكادحة !

— ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل ، انه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية !

يا لها من فتـاة تروم العراك ! ، شـديدة الجد فيما يبـدو ، ولكن أين المرأة ؟ !

ـ وكيف تريدينه أن يكتب ؟

ـ أقرأت شيئا من الأدب السوفييتي الحديث ، بل أقرأت مكسيم جـوركي ؟

فصمت باسما . لا داعي للخجل ، كان طالب اجتماع لا طالب أدب ، ثم انها تكبره بسنوات ، ترى ما عمرها ؟ ، ربما كانت في الرابعة والعشرين أو اكثر ! . وعادت تقول :

ـ هذا ماينبغي ان تقرأ من الوان الادب ، سأعيرك بعضه اذا شئت ، .

ـ بكل سرور . .

فابتسمت قائلة :

ـ ولكن الانسـان « الحر » لا يكفي ان يكون قارئا او كاتبـا ! ، ان المبادىء تتعلق بالارادة قبل كل شيء ، الارادة أولا وقبل كل شيء .

مع ذلك رآها انيقـة ، اجل ليس في وجهها زواق ، ولكن عنايتهـا بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها ، هذا الصدر الحي مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة ، ولكن مهلا هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ ؟ ، طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر الى المرأة الا من زاوية خاصة !

ـ اني مسرور بمعرفتك ، وأرى أنه امامنا اكثر من مجال لنعمـل معا كيد واحدة . .

فقالت باسمة ـ وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شيء ـ :

ـ هذا اطراء !

ـ اني مسرور بمعرفتك حقا . . .

أجل انه كذلك ، ولكن ينبغي الا يسيء فهم ما ينفعل به صدره فلعله الاستجابة الطبيعية لمراهق مثله ، واصطنع الحذر حتى لا ترمي بنفسك الى مثل موقفك بالمعادي ، فان الحزن لم يمح بعد من صفحة قلبي . . .

ــ مساء الخير يا عمتى ..

وتبع جليلة الى مجلسهما المختار فى الصالة ، وما استقر بهما المجلس فوق الكنبة حتى نادت المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب ، وجعلت تراقبها وهى تعد الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت ، وعند ذاك التفتت جليلة الى كمال قائلة :

ــ يا ابن اخى ، اقسم لك اننى لم أعد أشرب الا معك ، كل ليلة جمعة ، كما كان يحلو لى أن أشارب أباك فى الزمن القديم ، ولكن فى ذلك الزمن كنت اشارب الكثيرين أيضا ..

وقال كمال لنفسه « ما أحوجنى الى الشراب ، لا أدرى ماذا كانت تكون الحياة بدونه ! » ثم قال يحاورها :

ــ ولكن الويسكى اختفى يا عمتى ، وكذلك كافة المشروبات النظيفة ، ويقال ان الغارة الالمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمور عالمى حتى سالت الوديان بالويسكى الأصيل ..

ــ يا روحى على غارة من هذا النوع ، ولكن خبرنى قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد ؟

ــ لاتقدم ولا تأخر ، يعز على ياست جليلة مرقده ، ربنا يلطف به ..

ــ ياما نفسى أزوره ، ألا تجد الشجاعة فتبلغه عنى السلام ؟

ــ يا خبر ! ، لم يبق الا هذا حتى تقوم الساعة !

فضحكت العجوز ثم قالت :

ــ اتحسب ان رجلا مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة فى انسان خاصة اذا كان من صلبه ؟

ــ ولو يا زين الستات ! ، ... صحتك ...

ــ صحتك ... ، ربما تأخرت عطية اذ أن ابنها مريض ..

فقال كمال فى شىء من الاهتمام :

ــ فى آخر مرة لم يكن بها شىء ؟

- نعم ولكن ابنها مرض يوم السبت الماضى، روحها المسكينة فى ابنها ، وهو اذا مُسه سوء طارت ابراج عقلها . .

- يالها من امرأة طيبة عاثرة الحظ ، طالما أقنعتنى أحوالها بأنها لا تمارس هذه الحياة الا مضطرة . .

فقالت جليلة باسمة أو ساخرة :

- اذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هى بمهنتها ؟ !

ومرت الخادم بمجمرة تنفث بخورا لطيفا ، وكان جو الخريف يهفو رطيبا من نافذة فى نهاية الصالة ، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر ، غير أن كلام جليلة عن المهنة ذكره بأمور كاد ينساها فقال :

- كدت انقل من مصر يا عمتى ، ولو وقع المحذور لكنت الآن اعد الحقائب للسفر الى أسيوط !

فضربت جليلة صدرها بكفها وقالت :

- أسيوط يا بلح ! ، اسيوط فى عين عدوك ، وماذا حصل ؟

- سليمة والحمد لله !

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل . .

فهز راسه كالموافق دون تعليق . انها ما زالت ترى أباه فى هالة المجد القديم ، لا تدرى أنه - حين أخبره عما تقرر عن نقله - قال محزونا آسفا « لم يعد يعرفنا أحد ، أين أصدقاؤنا أين ؟ » ، وقبل ذلك مضى الى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوى لعله يعرف أحداً من كبار رجال المعارف ولكن القاضى الخطير قال له « انى آسف جداً يا كمال فأنا بصفتى قاضيا لا أستطيع أن أرجو أحدا » ، واخيرا لجأ الى رضوان ابن أخيه وهو يتعثر بخجله ، وفى نفس اليوم عدل عن نقله ! ، يا له من شاب خطير ، كلاهما موظف فى وزارة واحدة وفى درجة واحدة رغم انه فى الخامسة والثلاثين والشاب فى الثانية والعشرين ، ولكن كيف ينتظر خوجة ابتدائى أفضل من هذا ؟ ، ولم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة أو يدعيها ، فليس الفيلسوف من ردد أقوال الفلاسفة ، كالببغاء ، واليوم كل متخرج فى كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن ، وقد كان هنالك ثمة أمل فى أن يجمع ناشر مقالاته فى كتاب ، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر ، وما أكثر الكتب هذه الأيام ، وهو فى هذا الخضم لا شيء ، وقد مل حتى طفح بالملل ،

فمتى يدرك قطاره محطة الموت ؟. ونظر الى الكأس فى يد عمته ، ثم الى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه الا الاعجاب بها ، ثم تساءل :

ـ ماذا تجدين فى الشراب يا عمتى ؟

فافتر فوها عن اسنان ذهبية وهى تقول :

ـ وهل تحسبنى أشرب الآن ؟ ، مضى ذاك الزمان ، لا طعم لها اليوم ولا اثر ، كالقهوة لا اكثر ولا أقل ، فى الزمان الأول سكرت مرة فى فرح ببيرجوان حتى اضطر التخت أن يحملنى الى عربتى آخر الليل ، ربنا يكفيك شرها . . . !

« ولكنها خير من لا خير له » .

ـ وذروة النشوة هل عرفتها ؟ ، كنت ابلغها بكأسين ، اليوم يلزمنى ثمانية كئوس كى ابلغها ، ولا ادرى كم غدا ، ولكنها ضرورية يا عمتى ، فعندها يرقص القلب المكلوم طربا . . .

ـ قلبك طروب يا ابن أخى دون حاجة الى الخمر . .

قلبه طروب ! ، وهذا الحزن الصديق ؟ ، والرماد المتخلف عن محترق الآمال ؟ ، لم يبق للملول الا الامتلاء بالخمر ، فى هذه الصالة أو فى تلك الحجرة اذا جاءت التى تداوى ابنها ، هو وهى فى موضع واحد من الحياة ، حياة من لا حياة لهم .

ـ أخشى الا تجىء عطية ؟

ـ ستجىء حتما ، أليس المريض فى حاجة الى النقود !

يا له من جواب !. بيد انها لم تمكنه من التفكير اذ مالت نحوه فى اهتمام ، ونظرت اليه مليا ، ثم قالت بصوت منخفض :

ـ لم يبق لى الا أيام !

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها :

ـ ربنا يطول عمرك ولا يحرمنى منك !

فقالت باسمة :

ـ ساهجر هذه الحياة !

فانتصب نصفه الأعلى فى دهش وهتف :

ـ ماذا قلت ؟! . . .

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية :

ـ لا تخف ، ستذهب بك عطية الى بيت آمن كهذا البيت . .

- ؟! ....

- ولكن ماذا حدث ؟

- كبرت يا ابن أخي ، وأغناني الله فوق حاجتي ، وبالأمس ضبط بيت قريب وسيقت صاحبته الى القسم ، حسبي ، اني أفكر فيالتوبة . ينبغي أن أقابل ربي على غير ما أنا عليه !

انى على بقية كأسه ، وملأه ، ثم قال وكأنمالم يصدق ما سمعه :

- لم يبق الا ان تستقلي السفينة الى مكة !

- ربنا يقدرني على فعل الخير ..

وتساءل ولما يفق من دهشته :

- أجاء هذا كله فجاة ؟

- كلا ، انى لاأبوح بسر الا عند العمل ، طالما فكرت فيهذا من زمن..

- جد ؟!

- كل الجد ، ربنا معنا !

- لا أدرى ماذا أقول ، ولكن ربنا يقدرك على فعل الخير ..

- آمين ...

ثم ضاحكة :

- ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى اطمئن على مستقبلك !

فضحك ضحكة عالية وقال :

- هيهات أن أجد بيتا أرتاح فيه كهذا البيت !

- لك على أن أوصى بك البدرونة الجديدة ولو كنت فى مكة !

كل شيء يبدو مضحكا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون ، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوى ويسفل كمال احمد عبد الجواد ولكن الخمر ستظل بشاشة المكروب ، ويوما يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلله ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف ، وحتى الست جليلة تفكر فى التوبة فى الوقت الذى يبحث هو عن ماخور جديد ولكن الخمر ستظل المأوى الأخير ، ويمل السقيم كل شيء حتى يمل الملل ولكن الخمر ستظل مفتاح الفرج .

- يسعدنى أن أسمع عنك دائما ما يسر .

- الله يهديك ويسعدك ..

ــ اذا كان وجودي يضايقك . . . ؟

وسدت فاه بأصبعها وقالت :

ــ سامحك الله ، هذا بيتك ما دام بيتى ، وكل بيت أحــل فيه فهو بيتك يا ابن اخى . . .

اثمة لعنة قديمة مجهولة قضى عليه بأن يكفر عنها ؟ ! . كيف المخرج من هذه الحيرة التى تغشى حياته ؟ . حتى جليلة تفكر جادة فى تغير حياتها فلم لا يتخذ منها أسوة ؟ . لابد للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق، واذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى ؟! .

ــ ربما كان من الخطأ ان نبحث فى هذه الدنيا عن معنى بينا أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى . .

وحدجته جليلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت الى ما بدر منه دون شعور . وضحكت جليلة متسائلة :

ــ سكرت بهذه السرعة ؟ .

فدارى ارتباكه بضحكة عالية وقال :

ــ خمر الحرب كالسم ، لا تؤاخذينى ، ترى متى تأتى عطية ؟ ! .

ــ ٣٦ ــ

غادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية صباحا . كان كل شيء غارقا فى الظلام ، وكان الظلام غارقا فى الصمت . وسار على مهل نحو السكة الجديدة ثم مال الى الحسين . حتى متى يعيش فى هذا الحى المقدس الذي لم يعد يمت اليه بصلة ؟. وابتسم ابتسامة فاترة . لم يكن بقى من الخمر الا خمارها ، أما الجسد فقد خمدت لواعجه ، فنقل خطاه فى اعياء وكسل . عادة فى مثل هذه اللحظة الخامدة يصرخ شيء فى أعماقه ــ لا هو التوبة ولا الندم ــ ناشدا التطهر ، ملتمسا الخلاص من قبضة الشهوات الى الأبد ، كأن موجة شهواته تنحسر عن صخور تقشف كامنة . ورفع رأسه الى السماء كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت فى السكون صفارة الانذار !. ودق قلبه دقة عنيفة ثم حملقت عيناه النائمتان ، ثم بدافع غريزى مال الى أقرب جدار وسار بحذائه . ونظر الى السماء مرة أخرى فرأى

أضواء الكشافات الكهربائية تمسح صفحتها فى سرعة شديدة ، تلتقى أحيانا ثم تتفرق فى جنون . وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورا موحشا بوحدته كأن وجه الأرض قد خلا الا منه ! . واذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل ، يعقبه انفجار شديد ارتجت له الأرض تحت قدميه ، قريب أم بعيد ؟ ، ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات ، اذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس ، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات ، والتمع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيل اليه أن الأرض تتطاير . وانطلق يعدو بسرعة لا يلوى على شىء صوب درب قرمز ملتمسا فى قبوها التاريخى مخبأ . وكانت المدافع تنطلق فى غضب جنونى ، والقنابل تدك مراميها دكا ، والأرض تميد . وفى ثوان من الفزع بلغ القبو ، وكان يكتظ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته ، فاندس بينهم وهو يلهث . وكان جوه يسوده الرعب ويمتلىء بهمهمات الفزع فى ظلام دامس ، أما مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الاشعاعات المنطلقة فى الفضاء . وقد توقف سقوط القنابل أو هذا ما خيل اليهم ، أما المدافع فلم يخف جنونها ولم يكن رجعها فى النفوس دون رجع القنابل ، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال .

ـ هذه غارة جدية وليست كالسابقات . .

ـ وهذا الحى القديم هل يتحمل الغارات الجدية ! .

ـ اعفونا من هذه الثرثرة وقولوا يا رب ! .

ـ كلنا يقول يا رب . .

ـ اسكتوا ، اسكتوا يرحمكم الله ! .

وكان كمال يلاحظ الضوء الذى ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيل اليه أنه لمح هيئة أبيه بينها . وخفق قلبه ، أيكون حقا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق الى القبو ؟ . بل كيف استطاع أن يغادر فراشه ؟ . وشق طريقا الى نهاية القبو مخترقا الكتلة البشرية المضطربة ، فتبين على التماع الضوء أسرته جميعا ، أباه وأمه وعائشة وأم حنفى ! . واتجه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يهمس :

ـ أنا كمال ! . كلكم بخير ؟ .

لم يجب أبوه ، وكان ملقيا بظهره فى اعياء الى جـدار القبو بين الأم وعائشة ، أما الأم فقالت :

ـ كمال ؟. الحمد لله ، شيء فظيع يابنى، ليست ككل مرة ، خيل الينا أن البيت سينقض فوق رءوسنا ، وربنا شد حيل ابيـك فنهض وجاء بيننا ، لا ادرى كيف جاء ولا كيف جئنا . .

وغمغمت أم حنفى :

ـ عنده الرحمة ، ما هذا الهول !. ربنا يلطف بنا . .

وفجأة هتفت عائشة :

ـ متى تسكت هذه المدافع ! .

وخيل الى كمال ان صوتها ينذر بانهيار عصبى فاقترب منها وأمسك بكفها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وعيه المفقود عند ما وجد نفسـه حيال من هم فى حاجة الى تشـجيعه . وكانت المدافع ما تزال تنطلق فى غضبها الجنونى ، غير ان وطأتها اخذت تخف بدرجة غيرمحسوسة . ومال كمال نحو أبيه وسأله :

ـ كيف حالك يا أبى ؟ .

فجاءه صوته وهو يهمس فى خور :

ـ اين كنت يا كمال ؟. اين كنت حين وقعت الغارة ؟.

فقال يطمئنه :

ـ كنت على مقربة من القبو ، كيف حالك ؟.

فاجاب بصوت متقطع :

ـ الله أعلم . . . كيف غادرت فراشي وهرولت فىالطريق ؟ . . . الله أعلم . . . لم اشعر بشيء . . . متى تعود الحال الى الهدوء ؟.

ـ أاخلع لك جاكتتى لتجلس عليها ؟.

ـ كلا ، انا قادر على الوقوف ، ولكن متى تعود الحال الى الهدوء ؟.

ـ الغارة انتهت فيما يبدو ، أما قيامك المفاجيء فلا تخفه ، ان المفاجآت كثيرا ما تصنع المعجزات مع المرض ! .

وما كاد ينتهى من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى ، وضج القبو بالصراخ .

ـ انها فوق رءوسنا !.

ـ وحد الله . . . .

ـ اسكتوا هذا الشؤم !.

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدى ابيه بين يديه ، وكان يفعل ذلك لأول مرة فى حياته ، وكانت يدا الرجل ترتجفان ، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك ، أما أم حنفى فقد انبطحت على الأرض وهى تولول . وعاد الصوت العصبى يصيح فى هياج :

ـ اياكم والصراخ ، سأقتل الصارخ !.

وعلا الصراخ ، وتلاحقت طلقات المدافع ، واشتد توتر الأعصاب فى توقع زلازل جديدة ، ولكن المدافع استمرت تنطلق وحدها ، وظل توقع انفجارات جديدة يخنق الأرواح .

ـ انتهت القنابل !.

ـ انها تغيب ثم تنفجر . .

ـ انها بعيدة ، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت حولنا !.

ـ بل سقطت فى النحاسين !.

ـ هكذا يخيل اليك ولعلها فى الأورنس !.

ـ انصتوا يا هوه ، الم تخف المدافع ؟.

بلى خفت طلقاتها ، ثم لم تعد تسمع الا من بعيد ، ثم متقطعة ، ثم متباعدة ، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة ، ثم اناخ الصمت ، وامتد ، وطال ، وعمق ، وانعقدت الألسن ، حتى مضت تتعالى همسات الأمل الباكى ، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء ، ويحيون من جديد ، ويتنهدون فى ارتياح حذر مشوب بالاشفاق . وعبثا حاول كمال ان يرى وجه أبيه بعد ان غابت التماعات الضوء الخاطف وخيم الظلام .

ـ أبى ، ستعود الحال الى الهدوء . . .

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدى ابنه كأنما ليقنعه بأنه ما زال حيا . . .

ـ هل أنت بخير ؟ .

فحرك يديه مرة أخرى . وشعر كمال بحزن أوشك أن يهيج دموعه . وانطلقت صفارة الأمان . .

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح الأطفال عقب مدافع الأعياد . وضج المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر ، صفقات ابواب

ونوافذ ، هدير كلام عصبى ، ثم تتابع انصراف المنحشرين فى القبــو .
وقال كمال وهو يتنهد :

ـ فلنعد . . .

وضع الأب ذراعا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة . وبدأوا يتساءلون عن الرجل ، كيف هو ، وماذا أصابه اثر مغـامرته الخطيرة . غير أن الأب توقف عن المشي وهو يقول بصـوت ضعيف :

ـ اشعر بأننى يجب أن اجلس . .

فقال له كمال :

ـ دعنى احملك . .

فقال فى اعياء :

ـ لن تستطيع . .

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفعه . لم يكن حملا خفيفا ولكن مابقى من ابيه كان على اى حال هينا. وسار فى بطء شديد والآخرون يتبعونه مشفقين ، وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب :

ـ لا داعى للفضيحة ! .

فكتمت فاها بيدها . ولما بلغوا البيت عاونت أم حنفى فى حمل السيد ، فصعدا به السلم على مهل وحـذر . وكان مستسلما ولـكن همهمته الاستغفارية المتواصلة نمت عن حزنه وضيقه ، حتى طرحاه بعناية على فراشه . ولما اضيء نور الحجرة بدا وجه الأب شديد الشحوب كأن الجهد قد استصفى دمه ، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف ، فأغمض عينيه اعياء ، ثم راح يتأوه ، ويتأوه ، ولكنه غالب الم حتى استطاع أخيرا أن يلوذ بالصمت . وكان الجميع يقفون صفا بازاء فراشـه ويتطلعون اليه فى وجل واشفاق . واخيرا تساءلت أمينة بصوت متهدج :

ـ سيدى بخير ؟ .

ففتح عينيه ، وجعل ينظر فى الوجوه مليا ، وبدا لحظات كأنه لايعرفها، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ الحمد لله . . .

ـ نم يا سيدى ، نم كى تستريح . . .

وترامى اليهم رنين الجرس الخارجي فمضت أم حنفى لتفتح الباب . وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال :

ـ لعل أحدا من السكرية أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا !.

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبدالمنعم وأحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فاقبلوا على فراش الأب وهم يحيون الموجودين ، فوجه اليهم الرجل نظرات فاترة ، وكأن الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده النحيلة تحية . وقص عليهم كمال فى اقتضاب ما عاناه والده فى ليلته المزعجة ، ثم قالت أمينة همسا :

ـ ليلة فظيعة ربنا لا يعيدها ..

وقالت أم حنفى :

ـ الحركة أتعبته قليلا ولكنه سيسترد بالراحة عافيته ..

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول :

ـ ينبغى أن تنام ، كيف حالك الآن ؟.

فرنا الرجل اليه ببصر خاب وغمغم :

ـ الحمد لله .. أشعر بتعب فى جنبى الأيسر ..

فسأله ياسين :

ـ أأحضر لك الطبيب ؟.

فأشار بيده فى ضجر ثم همس :

ـ كلا خير لى أن أنام ..

فأشار ياسين الى الموجودين بالخروج ، وتراجع الى الوراء قليلا فرفع الرجل يده النحيلة تحيـة مرة أخرى . وغادروا الحجرة واحدا فى أثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل الا أمينة . ولما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال :

ـ ماذا فعلتم ؟. أما نحن فقد هرعنا الى المنظرة فى الحوش ..

وقال ياسين :

ـ ونحن نزلنا الى شقة الدور الأرضى عند جيراننا ..

فقال كمال فى قلق :

ـ ولكن التعب قد أنهك قوى بابا ..

فقال ياسين :

ـ ولكنه سيسترد راحته بالنوم ..

ــ وما عسى أن نفعل به اذا وقعت غارة أخرى ؟! .

ولم يحر أحد جوابا فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد :

ــ بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات . .

وعنـد ذاك أراد كمال أن يبدد سحب الـكآبة المخيمة التى أرهقت أعصابه فقال منتزعا من شفتيه ابتسامة :

ــ اذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفا أن هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث . . .

— ٣٧ —

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجى ، ولم يكد يعود الى باب السـلم حتى ترامت اليه من فوق ضجة مريبة ، وكانت أعصـابه مازال متوترة فداخلته كآبة ورقى فى السلم وثبا. وجد الصالة خالية ، وحجرة الأب مغلقة ، وخليطا من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق ، فهرع الى الحجرة ودفع الباب ثم دخل ، وكان يتوقع شرا أبى أن يفكر فى كنهه. كان صوت الأم المبحوح يهتف « سـيدى » . وكانت عائشـة تنادى بصوت غليظ « بابا » على حين تسمرت أم حنفى عنـد رأس الفراش وهى تغمغم . وامتد بصره الى الفراش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين ؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحا على الفراش ، ونصفه الأعلى ملقى على صـدر الأم التى تربعت وراء ظهره ، وصدره يعلو وينخفض فى حركة آلية تند عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا العالم ، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جامدة لا ترى ولا تعى ولا تملك أن تعبر عما يعتلج وراءها ، فتسمرت قدماه وراء شباك السرير ، وانعقد لسانه ، وتحجرت عيناه ، لم يجد شـيئا يقوله أو شيئا يفعله ، وعانى شعورا قاهرا بالعجز المطلق ، واليأس المطلق ، والتفاهة المطلقة ، وكأنه فقد الوعى لولا ادراكه أن أباه يودع الحياة . ورددت عائشة بصرا زائغا بين وجه أبيها ووجه كمال ثم هتفت :

ــ أبى !. هذا كمال يريد أن يحدثك !.

وخرجت أم حنفى عن غمغمتها المتصلة قائلة فى نبرات ممزقة :

ــ احضروا الطبيب . . .

فانت الأم فى حزن غاضب :

ــ أى طبيب يا حمقاء !.

ثم ندت عن الاب حركة كأنما يحاول الجلوس ، وازداد صدره تشنجا واضطرابا ، ومد سبابة يمناه ثم سبابة يسراه ، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الالم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكررت ذلك حتى سكنت يداه. وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وانه دعا الأم لتتشهد نيابة عنه ، وان كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرا الى الأبد ، وان وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب ، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن تطول ، انها أجل وأخطر من أن تبتذل ، أما أعصابه فقد انهارت حيالها ، وخجل من نفسه اذ نزعت لحظات الى تحليل الموقف ودراسته ، كان احتضار أبيه يجوز أن يكون زادا لتأمله ومادة لمعرفته ، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه ، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته ، ثم ما هذا ؟ . أيهم بالقيام ؟ . أم يحاول الكلام ؟ . أم يخاطب شيئا مجهولا ؟ . أيتألم ؟ . أم يفزع ؟ . . . آه . . . .

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتمى رأسه على صدره .

صرخت عائشة من الأعماق « يا أبى . . يا نعيمة . . . يا عثمان . . . يا محمد » فهرعت اليها أم حنفى ودفعتها أمامها برقة الى الخارج . ورفعت الأم وجهها الشاحب الى كمال واشارت الى الخارج ، ولكنه لم يتحرك ، فهمست فى يأس :

ــ دعنى أقم بواجبى الأخير نحو أبيك . . .

فتحول عن موقفه ومضى خارجا . وكانت عائشة مرتمية على الكنبة وهى تعول ، فمضى الى الكنبة المقابلة لها وجلس ، أما أم حنفى فذهبت الى الحجرة لتساعد سيدتها وأغلقت الباب وراءها . ولم يعد بكاء عائشة مما يحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابا وايابا دون أن يوجه اليها خطابا . وكان من حين لآخر يرنو الى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة . وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة ؟. وكان كلما جمع فكره ليتأمل تشتت وغلبه الانفعال . كان الأب ــ حتى بعد انزوائه ــ يملأ هذه الحياة ، فلن يكون غريبا اذا وجد غدا البيت غير البيت الذى عهده ، والحياة غير الحياة التى ألفها ، بل عليه منذ اللحظة

ان يعد نفسه لدور جديد . واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يسكتها ولكنه لم يفعل ، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شيء . وعاد يفكر فى اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصور هذا ، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه . وذكر صورته القديمة الماثلة فى خاطره ، وهو فى تمام أبهته وقوته ، فشعر برثاء عميق للكائنات جميعا . ولكن متى يسكت نحيب عائشة ؟ . . الا تستطيع ان تبكى ـ مثله ـ بغير دموع ! .

وفتح باب الحجرة وخرجت أم حنفى ، وترامى اليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم ، فادرك انها فرغت من اداء واجبها وخلصت للبكاء . وتقدمت أم حنفى من عائشة وقالت لها بصوت غليظ :

ـ كفاية بكاء يا سيدتى ..

ثم تحولت اليه قائلة :

ـ الفجر لاح يا سيدى ، نم ولو قليلا فأمامك غد عصيب ..

ثم افحمت فى البكاء . ثم غادرت المكان وهى تقول بصوت باك :

ـ ساذهب الى السكرية وقصر الشوق لابلاغ الخبر الأسود ..

* * *

وجاء ياسين مهرولا تتبعه زنوبة ورضوان . ثم ترامى اليهم من الطريق الصامت صوات خديجة . وبوصول خديجة أستعرت النار فى البيت جميعا فاختلط الصوات بالصراخ بالبكاء . وتعذر على الرجال البقاء فى الدور الأول فصعدوا الى المكتبة فى الدور الأعلى وجلسوا واجمين . وغشيهم الصمت والوجوم حتى قال ابراهيم شوكت :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، قضت عليه الغارة ، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلا ولا كل الرجال ..

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى ، وعند ذاك انفجر كمال باكيا ، فعاد ابراهيم شوكت يقول :

ـ وحدوا الله ، أنتم رجال ، لقد تركم رجالا ..

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلعون الى الرجلين الباكيين فى

حزن ووجوم وشيء من الدهش . وسرعان ما جفف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت ، فقال ابراهيم شوكت :

ــ الصباح قريب ، فلنفكر فيما يجب عمله . .

فقال ياسين فى اقتضاب حزين :

ــ لا جديد فى الأمر فقد جربناه مرات . .

فقال ابراهيم شوكت :

ــ يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه . .

فقال ياسين بتوكيد :

ــ هذا أقل ما يجب !

وهنا قال رضوان :

ــ الشارع أمام البيت ضيق لايتسع للسرادق المناسب فلنقم سرادق العزاء فى ميدان بيت القاضى . .

فقال ابراهيم شوكت :

ــ ولكن العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء أمام بيت المتوفى . . ؟

فقال رضوان :

ــ ليس هذا بالمكان الأول من الأهمية خاصة وانه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب !

وأدرك المستمعون انه يشير الى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة :

ــ نقيمه هناك . .

وكان احمد يفكر فى الدور المنوط به فقال :

ــ لن نتمكن من نشر النعى فى جرائد الصباح . .

فقال كمال :

ــ جرائد المســـاء تصدر حوالى السـاعة الثـالثة بعد الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة فى السـاعة الخامسة . .

ــ ليكن ، القرافة قريبة على اى حال .

وتأمل كمال مجرى الحديث فى شيء من العجب . كان الأب فى السـاعة الخامسـة اليوم فى فراشـــه يتابع الراديو أما فى نفس السـاعة غدا . . ! ، الى جانب فهمى وابنى ياسين الصغيرين . ترى ماذا تبقى من فهمى ؟ ، لم يخفف العمــر من رغبته القديمة فى التطلع الى جوف القبر ، ترى هل

كان الاب حقـا يرغب فى قول شىء كما تهيـأ له ؟ ، ماذا كان يريد أن يقول ؟. والتفت ياسين اليه متسـائلا :

ـ هل شهدت احتضاره ؟

ـ نعم ، عقب انصرافك مباشرة .

ـ تألم ؟

ـ لا ادرى ، من يدرى يا أخى ؟ ، ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق ..

تنهد ياسين ثم تساءل :

ـ ألم يقل شيئا ؟

ـ كلا ، والغالب انه فقد النطق ..

ـ ألم يتشهد ؟

فقال كمال وهو يغض بصره ليدارى تأثره :

ـ قامت أمى بذلك نيابة عنه ..

ـ ليرحمه الله ..

ـ آمين ..

وساد الصمت مليا حتى خرقه رضوان قائلا :

ـ يجب أن يكون السرادق كبيراً ليتسع للمعزين ..

فقال ياسين :

ـ طبعا ، أصدقاؤنا كثيرون ... (ثم وهو ينظر نحو عبد المنعم) .. وهناك شعبة الاخوان المسلمين !

ثم متنهدا :

ـ لو كان أصحابه احياء لحملوا النعش على أكتافهم ..

* * *

ثم كانت الجنازة كما رسموا . وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عددا أما أصـدقاء رضوان فكانوا أعلى مقـاما ، ولفت نفـر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد والمجلات ، وكان رضوان بهم مزهوا حتى كاد يغطى زهوه على حزنه . وشيع أهل الحى « جار العمـر » حتى الذين لم يصلهم به سبب من أسـباب التعارف الشخصى ، فلم

تكد الجنازة تخلو الا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه الى الدار الآخرة . وعند باب النصر ظهر الشيخ متولى عبد الصمد فى الطريق ، وكان يترنح من الكبر فرفع راسه نحو النعش وهو يضيق عينيه ثم سأل :

ـ من هذا ؟

فاجابه رجل من أهل الحى :

ـ المرحوم السيد احمد عبد الجواد .

فجعل وجه الرجل يهتز يمنة ويسرة فى ارتعاش ، وملامحه تتساءل فى حيرة ، ثم اذا به يسأل :

ـ من أين ؟

فاجابه الرجل وهو يهز راسه فى شىء من الحزن :

ـ من هذا الحى ، كيف لاتعرفه ؟ ، الا تذكر السيد احمد عبدالجواد ؟! .

ولكن لم يبد عليه انه تذكر شيئا ، والقى نظرة أخرى على النعش ثم سار فى سبيله . .

— ٣٨ —

خلا البيت من سيدى فليس هو البيت الذى عاشرته أكثر من خمسين عاما ، والجميع يبكون حولى ، وخديجة لا تفارقنى فهى قلبى العامر بالحزن والذكريات وهى قلب كل قلب بل هى ابنتى وأختى وأمى أحيانا ، وأكثر بكائى خلسة حين أخلو الى نفسى اذ ينبغى أن أشجعهم على النسيان فما يهون على أن يحزنوا أو ـ لا قدر الله ـ أن ينال منهم الحزن أى منال . أما اذا خلوت الى نفسى فلا اجد عزاء الا فى البكاء فأبكى حتى تجف دموعى ، واقول لأم حنفى اذا تسللت الى وحدتى الباكية دعينى وشأنى يرحمك الله . فتقول لى كيف أتركك وأنت على هذه الحال ؟ . أنا عارفة بحالك . . ولكنك ست مؤمنة بل انت ست المؤمنات فعندك نتعلم العزاء والتسليم لقضاء الله . . قول جميل يا أم حنفى ولكن أنى للقلب المحزون أن يفقه معناه ، ولم يعد لى شأن فى هذه الدنيا ولم يعد لى عمل وكل ساعة من ساعات يومى مرتبطة بذكرى

من ذكريات سيدى .. لم أعرف الحياة الا وهو محورها الذى تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظل ، وأنا أول من أقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة .. ما حيلتى ما داموا لا يدخلونها حتى تتعلق ابصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء .. وسيدي يستحق الدموع التى تسيل من أجله ، ولكنى لا أطيق بكاءهم واخاف على قلوبهم الغضة فأعزيهم بما تعزينى به أم حنفى واطالبهم بالتسليم لله وقضائه ، ولذلك اخليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت الى حجرة عائشة ، ولكيلا تهجر الحجرة وتستوحش نقلت اليها أثاث الصالة فانتقل اليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجمرة نتحادث كثيرا وتقطع أحاديثنا الدموع ، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الاعداد للقرافة واشرف بنفسى على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأوحد الذى لم اتخل عنه لأم حنفى كما تخليت لها من كل شيء ، تلك المراة العزيزة الوفية التى دخلت بجدارة فى صميم أسرتنا ، فنحن نعد الرحمة معا ونبكى معا ونتذاكر الأيام الجميلة معا فهى دائما معى بروحها وذاكرتها ، وامس جر الحديث الى ذكر ليالى رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدى فى رمضان منذ ساعة استيقاظه فى الضحى حتى حين عودته الينا عند السحور ، فذكرت بدورى كيف كنت اهرع الى المشربية لأرى الحنطور الذى يعيده واستمع الى ضحكات راكبيه أولئك الذين ذهبوا تباعا الى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم متع الأبناء بطول العمر وقر اعينهم بأفراح الحياة ، وهذا الصباح رأيت قطتنا تتشمم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التى أهديناها الى الجيران فقطع قلبى منظرها الحائر الحزين وهتفت من اعماق قلبى الله يصبرك يا عائشة .. عائشة المسكينة التى هاج موت أبيها أحزانها فهى تبكى أباها وابنتها وابنيها وزوجها فما احر الدموع وأنا التى تجرعت مرارة الثكل قديما حتى سال قلبى دما واليوم أفجع بوفاة سيدى وتخلو حياتى منه وكان ملء حياتى جميعا ولا يبقى لى من الواجبات الا أن أعد له الرحمة أو أتلقاها من السكرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقى لى ، كلا يا بنى ، اختر لنفسك هذه الأيام مجلسا غير مجلسنا الحزين حتى لا تسرى اليك عدواه .. لماذا انت واجم ؟. الحزن لم يخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء

والأحزان معا .. اصعد الى حجرتك وتسل بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق الى اصحابك فاسهر ، ومن بدء الخليقة فالاعزاء يفارقون ذويهم . فلو كان الاستسلام الى الحزن هو المتبع لما بقى على ظهر الأرض حى .. لست حزينة كما تتوهم وما ينبغى لمؤمن أن يحزن ، وسوف نعيش اذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل الى العزيز الذى سبق الا حين يشاء الله ، هكذا أقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بى من التصبر والتجلد الا اذا هلت خديجة قلب بيتنا الحى وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش فى البكاء ، وقالت لى عائشة أنها رأت أباها فى المنام قابضا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمد بيد حاملا عثمان على كتفه وقال لها انه بخير وانهم بخير فسألته عن سر النافذة التى نورت لها فى السماء ثم توارت الى الأبد فتجلت فى عينيه نظرة عتاب ولم ينبس . ثم سألتنى عن معنى الحلم .. يا حيرة أمك يا عائشة..غير انى قلت لها أن العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها فى الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم عينا فلا تنغصى عليهم صفوهم باستسلامك للحزن ، ليت عائشة الزمان الأول تعود ولو ساعة ، ليت الذين حولى يبرأون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق ، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما : هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها ؟ فقال ياسين : آخذ الخاتم فانه على قد أصبعى ولك الساعة يا كمال أما المسبحة فلك أنت يا نينة .. والجبب والقفاطين ؟ .. وذكرت من توى الشيخ متولى عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين : لقد انتهى الرجل فهو فى غيبوبة ولا يعرف له مقر ، وقال كمال مقطبا : لم يعرف أبى !.. نسى اسمه وتولى عن الجنازة دون اكتراث ، فانزعجت وأنا أقول : يا للعجب متى حدث هذا ؟ . كان سيدى يسأل عنه حتى أيامه الأخيرة وكان دائما يحبه ولم يره الا مرة أو مرتين مذ زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة ، ولكن رباه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كله ؟ ثم اقترح ياسين أن تهدى الملابس الى سعاة ديوانه وفراشى مدرسة كمال فليس أحق بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة فى مقره الأخير ، أما المسبحة العزيزة فلن تفارق يدى حتى أفارق الحياة ، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ، ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل اليه الشهيد

الغالى ، ومنذ ذلك الوقت وانا أعتبره حجرة من بيتنا لكنها فى أطراف حينا ، ويجمعنا القبر جميعـا كما كان يجمعنا مجلس القهوة فى الزمن الخالى ، وتنوح خديجة حتى ينال منها الاعياء ثم نؤمر بالسكوت تأدبا لاستماع القرآن ، ثم يشغلهم الحديث حينا فأسر بما يصرف أعزائى عن الحزن ، ويشتبك رضوان وعبدالمنعم وأحمد فى نقاش طويل وتنضم اليهم كريمة أحيانا فذاك ما يغرى كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام ، ويسأل عبدالمنعم عن خاله الشهيد فيقص ياسين القصص فتنبعث الحيـاة فى الأيام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفـق قلبى فلا أدرى كيف أدارى دموعى ، وكثيرا ما ارى كمـال واجما فأسـأله عما به فيقول لى أن صورته لا تفارقنى خاصة منظر الاحتضـار فلو كانت نهايته أخف !.. فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كله فتساءل : كيف يكون النسيان ؟ فقلت له بالايمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال : كم كنت أخافه فى مطلع حياتى ولكنه تكشف لى فى عهـده الأخير عن انسان جديد بل صديق حبيب . الا ماكان أظرفه وأرقه والطفه ، لم يكن فى الرجال مثله ، وياسين يبكى كلما أهاجته الذكرى .. كمال حزنه فى صمته الواجم اما ياسين الضخم فيبكى كالأطفال ويقول لى أنه الرجل الوحيد الذى احببته فى حيـاتى ، اجـل كان أباه وكان أمه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية الا فى كنفه حتى شدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفـا عنى وردنى الى بيته فصـدق فراسة أمى رحمها الله التى ما انفكت تقول لى ان السيد ليس بالرجل الذى يقطع أم أولاده ، وكان يجمعنا حبه فاليوم تجمعنا ذكراه ، أما بيتنا فلا يخلو من الزوار غير أن قلبى لا يسكن حتى أجد خديجة وياسين وآلهما حولى .. حتى زنوبة فما أصدق حزنها ، وقالت لى كريمة الصغيرة الجميلة : يا جدتى تعالى عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقـام الأذكار وانت تحبين ذلك ، فقبلتها شاكرة وقلت لها : يا بنيتى جدتك لم تعتد البيات خارج بيتها .. انها لا تدرى شـيئا عن آداب بيت جدها فى تلك الأيام التى خلت . ما أجمل ذكراها والمشربية آخر حدود دنياى حيث أنتظر عودة سيدى آخر الليل وهو من قوته يكاد يهز الأرض عند مغادرته للحنطور ثم يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعـافية تكاد تثب من وجهه أما اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورق جسمه

وخف وزنه حتى حمل بيد واحدة . يا حزنى الذى لن يذهب ! وقالت عائشة فى غضب ان هؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدهم أنهم لايحزنون ، فقلت لها بل حـزنوا ولكنهم صغار ومن رحمـة الله بهم الا يغرقوا فى الحزن فقالت : انظرى الى عبد المنعم لا ينتهى نقاشـه ، وهو لم يحزن على ابنتى وسرعان ما نسيها كأنها شىء لم يكن . فقلت لها : بل حـزن عليها طويلا وبكى كثيرا وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأم غير القلوب جميعـا ، ومنذا الذى لا ينسى ومنذا الذى لا ينسى يا عائشة ونحن الا نتسلى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحيانا وسوف يأتى يوم لايكون فيه دموع . ثم أين فهمى أين ؛ وقالت لى أم حنفى : لماذا امتنعت عن زيارة الحسين ؟ فقلت : نفسى فاترة عن كل شىء أحببته وسأزور سيدى عنـد ما يبرأ الجرح . فقالت لى : وهل يبرأ الجرح الا بزيارة سيدك ؟ . هكذا ترعانى أم حنفى وهى ربة بيتنا ولولاها ما كان لنـا بيت ، انك يا ربى رب الجميع أنت القاضى ولا راد لقضائك ولك أصلى ، وددت لو أبقيت على سيدى قوته حتى النهاية فما آلمنى شىء كما آلمنى رقاده ، هو الذى كانت الدنيا تضيق عن مراحه .. حتى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولا على الأيدى كالطفل لذلك تسيل دموعى ويتكاثف حزنى ..

— ٣٩ —

ــ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت خالى ..

رفع ابراهيم شوكت عينيه الى ابنه فى شىء من الدهش ، أما أحمد فحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة دلت على أنه لم يفاجأ بالخبر ، على حين تركت خديجة الشـال الذى تطرزه وحدجته بنظرة غريبـة غير مصدقة ثم نظرت الى زوجها وهى تتساءل :

ــ ماذا قال ؟

فعاد عبد المنعم يقول :

ــ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك ..

فبسطت خديجة يديها فى حيرة وقالت :

- هل افلست الدنيا من الذوق ؟ ، اهـذا الوقت مناسب لحـديث الخطبة حتى مع صرف النظر عن المخطوبة ؟!

فقال عبد المنعم باسما :

- كل الأوقات مناسبة للخطبة ..

فهزت رأسها فى حيرة وهى تتساءل

- وجدك ؟!.. (ثم وهى تردد عينيها بين أحمد وابراهيم) .. هل سمعتم عن شىء كهذا من قبل ؟

فقال عبد المنعم فى شىء من الحدة :

- خطبـة لا زواج ولا فـرح ، وقد انقضى على وفاة جدى اربعة أشهر كاملة ..

وقال ابراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

- كريمة ما زالت صغيرة ، مظهرها اكبر من سنها فيما أعتقد ..

فقال عبد المنعم :

- هى فى الخامسة عشرة ولن يكتب الكتاب قبل عام ..

فقالت خديجة فى تهكم ومرارة :

- هل اطلعتك زنوبة هانم على شهادة الميلاد ؟

فضحك ابراهيم شوكت ، وضحك أحمد ، اما عبدالمنعم فقال جادا :

- لن يتم شىء قبل عام ، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدى حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سن الزواج ..

- ولماذا توجع دماغنا الآن ؟

- لأنه لا بأس من اعلان الخطبة فى الوقت الحاضر .

فتساءلت خديجة فى سخرية :

- وهل تحمض الخطبة اذا أجلت عاما ؟

- ارجوك .. ارجوك أن تكفى عن المزاح ..

فصاحت خديجة :

- لو وقع هذا لكان فضيحة .

فقال عبد المنعم فى هدوء ما استطاع :

- دعى جدتى لى ، ستفهمنى خيرا منك ، انها جـدتى وجدة كريمة على السواء .

فقالت بخشونة :

ـ ليست جدة لكريمة . .

فسكت عبد المنعم وقد تجهم وجهه فبادره أبوه قائلا :

ـ المسألة مسألة ذوق فيحسن أن ننتظر قليلا . .

فهتفت خديجة حانقة :

ـ يعنى أنه لا اعتراض لك الا على الوقت !

فتساءل عبد المنعم متغابيا :

ـ هل ثمة اعتراض آخر ؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال فاستطرد عبد المنعم قائلا :

ـ كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك ؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة :

ـ هى ابنة أخى حقا ولكن كان ينبغى أن تذكر أمها أيضا !

وتبادلوا النظرات فى اشفاق ، ثم اندفع عبدالمنعم قائلا فى حدة :

ـ أمها زوجة أخيك كذلك !

فارتفع صوتها وهى تقول :

ـ أعلم هذا ، وهو ما يؤسف له !

ـ ذلك الماضى المنسى ! ، من يذكره الآن ؟ ! ، لم تعد الا سيدة محترمة مثلك !

فقالت بصوت غليظ :

ـ ليست مثلى ولن تكون مثلى أبدا !

ـ ماذا يعيبها ؟! ، عرفناها منذ صغرنا سيدة محترمة بكل معنى الكلمة ، والانسان اذا تاب واستقام محيت صفحة سوابقه فلا يذكر بها بعد ذلك الا . . .

وأمسك ، فقالت وهى تهز رأسها فى أسف :

ـ نعم ؟ ، صفنى ! ، سب أمك اكراما لهذه المرأة التى عرفت كيف تأكل مخك ، طالما تساءلت عما وراء الدعوات المتتابعة الى ولائم قصر الشوق ، واذا بك تقع كالجردل !

فردد عبد المنعم عينيه غاضبا بين أبيه وأخيه ثم تساءل :

ـ أهذا الكلام يليق بنا ؟ ، أسمعانى رأيكما . . ؟

فقال ابراهيم شوكت متثائبا :

— لا داعى لكثرة الكلام ، عبد المنعم سيتزوج ان اليوم أو غدا ، وانت تودين هذا ، وكريمة ابنتنا ، وهى بنت جميلة ولطيفة ، لا داعى للشوشرة . .

وقال أحمد :

— انت يا نينة أول من يود ارضاء خالى ياسين !.

فقالت خديجة محتدة :

— كلكم ضدى كالعادة ، ولا حجة لكم الا خالى ياسين !. ياسين أخى، وكان خطاه الأول أنه لم يعرف كيف يتزوج ، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج الغريب . .

فتساءل عبد المنعم فى عجب :

— أليست امرأة خالى صديقتك ؟. من يراكما وأنتما تتناجيان يظنكما شقيقتين ! .

— ما حيلتى فى امرأة سياسية مثل اللنبى ؟. لكن لو ترك لى الأمر أو لو لم أراع خاطر ياسين ما سمحت لها بدخول بيتى ، وماذا كانت النتيجة ؟. اكلت مخك بالولائم المغرضة ، وعليه العوض !.

عند ذلك قال أحمد مخاطبا أخاه :

— إخطبها وقتما تشاء ، نينة لسانها كثير الكلام ولكن قلبها طيب . .

فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

— غفارم يا ولد ! . تختلفان فى كل شىء ، فى الدين والملة والسياسة ، أما على فتتحدان ! .

فقال أحمد فى مرح :

— خالى ياسين اغلى الناس عندك ، وسوف ترحبين بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب ، الحكاية انك تودين عروسا غريبة حتى تتمكنى — كحماة — من اضطهادها ، حسن ، على انا أن احقق لك هذا الأمل ، سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفى غليلك ! .

— لا أعجب ان جئتنى غدا براقصة !. علام تضحكون ؟!. هذا شيخ الاسلام سيصاهر عالمة فماذا أتوقعمنك انت المتهم فىدينه والعياذ بالله ؟!.

— نحن فى حاجة الى راقصة بالفعل !.

واذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمرا خطيرا :

— وعائشة يا ربى ترى ماذا تقول عنا ؟ .

فقال عبد المنعم محتجا :

ـ ماذا تقول ؟. لقد توفيت زوجتى منذ أربع سنوات كاملة فهل تود ان ابقى أرمل مدى العمر ؟! .

فقال ابراهيم شوكت فى ضجر :

ـ لا تخلقوا من الحبة قبة ، المسألة ابسط من هذا كله ، كريمة ابنة ياسين ، ياسين أخو خديجة وعائشة ، حسبنا هذا ، أف ، كل شىء عندكم نقار حتى الأفراح ؟! .

واختلس أحمد من أمه نظرة باسمة ، وجعل يراقبها حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة . وراح يقول لنفسه : هذه الطبقة البورجوازية كلها عقد ، تحتاج الي محلل نفسانى بارع ليشفيها من كافة عللها ، محلل له قوة التاريخ نفسه ! . لو هادننى الحظ لسبقت أخى الى الزواج ولكن البورجوازية الأخرى اشترطت مرتبا لا يقل عن خمسين جنيها ، هكذا تجرح قلوب لامور لا شأن لها بالقلوب ، ترى ماذا يكون رأى سوسن حماد لو علمت بمغامرتى الفاشلة ؟! .

— ٤٠ —

كان الجو شديد البرودة ، ولم يكن خان الخليلى الرطب مما يؤثر شتاء، ولكن رياض قلدس نفسه الذى أشار ذلك المساء بالذهاب الى قهوة خان الخليلى التى شيدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الارض ، أو كما قال « علمنى كمال على آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب » . كانت قهوة صغيرة ، بابها يفتح علي حى الحسين ، ثم تمتد طولا فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد . جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى ويدخنون نارجيلة بالمناوبة . وكان اسماعيل لطيف يقول :

ـ أنا فى اجازة للاستعداد ومن ثم لم أسافر . .

فتساءل كمال فى أسف :

ـ ستغيب عنا ثلاثة أعوام ؟ .

ــ نعم ، لابد من المغامرة ، مرتب ضخم لا أتخيل أن أناله يوما هنا ، ثم ان العراق بلد عربي لا يختلف عن مصر كثيرا . .

سيخلف وحشة ، لم يكن صديق الروح ولكنه صديق العمر . وتساءل رياض قلدس ضاحكا :

ــ الا يحتاج العراق الى مترجمين ؟

فسأله كمال :

ــ اتسافر اذا سنحت لك فرصة كفرصة اسماعيل ؟

ــ لو حدثت في الماضي ما ترددت أما اليوم فلا . .

ــ وما الفرق بين الماضي والحاضر ؟

فقال رياض قلدس ضاحكا :

ــ بالنسبة لك لا شيء ، اما بالنسبة لي فهو كل شيء ، الظاهر اني سانضم قريبا الى جماعة المتزوجين !

دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه .

ــ حقا ؟ !، لم تشر الى ذلك من قبل !

ــ بلى ، جاء بغتة ، في آخر مقابلة ، في آخر مقابلة بيننا لم يكن في البال شيء !

ضحك اسماعيل لطيف في ظفر ، اما كمال فتساءل وهو يحاول أن يبتسم :

ــ كيف ؟

ــ كيف ! ، كما يحدث كل يوم ، مدرسة جاءت لزيارة أخيها في ادارة الترجمة فاعجبتني ، فجسست النبض فوجدت من يقول « تفضل » . .

تساءل اسماعيل ضاحكا وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال :

ــ ترى متى يجس هذا (مشيرا الى كمال) النبض ؟

هكذا اسماعيل لا يفوت فرصة ابدا لاثارة هذا الموضوع المعاد ، ولكن ثمة امر اخطر من هذا ، فجميع الأصدقاء المتزوجين يقولون ان الزواج « زنزانة » ، فمن المحتمل جدا الا يرى رياض ــ اذا تزوج ــ الا في القليل النادر ، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقا بالمراسلة ، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه ، ولكن كيف تمضي الحياة بدونه ؟ ، واذا

جعل الزواج منه شخصا جديدا كاسماعيل فسلام على كافة مسرات الحياة ! . وسأله :

- ومتى تتزوج ؟

- فى الشتاء القادم على أبعد الفروض . .

كأنما قضى عليه أن يفتقد دواما صديقا لروحه المعذبة .

- عند ذاك ستكون رياض قلدس آخر !

- لم ؟ . . . انت واهم جدا . .

فقال وهو يدارى قلقه بابتسامة :

- واهم ؟! ، رياض اليوم شخص لا يشبع روحه شيء ويقنع جيبه بلا شيء ، أما الزوج فلن يشبع جيبه ابدا ولن يجد فرصة لمتاع الروح . .

- يا له من تعريف جارح للزوج ، ولكنى لا أوافقك عليه . .

- كاسماعيل الذى اضطر الى الهجرة الى العراق ، لست أسخر من هذا ، فهو طبيعى فوق انه بطولة ، ولكنه فى الوقت نفسه بشع ، تصور أن تغرق حتى قمة راسك فى هموم الحياة اليومية ، الا تفكر الا فى مشكلات الرزق ، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم ، أن تمسى شاعرية الحياة ضياع وقت !

فقال رياض فى استهانة :

- أوهام مبعثها الخوف !

وقال اسماعيل بأسف :

- آه لو تعرف الزواج والأبوة ، لقد فاتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة . . .

لا يبعد أن يكون الصواب رايه ، ولو صح هذا فحياته مأساة سخيفة ، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق ؟ ، غير أن الذى يكربه الآن انه بات مهددا بالوحدة المرعبة مرة اخرى ، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته ، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض ؟ ! ، هذا ما يروم حقا ، جسم عطية وروح رياض فى شخص واحد يتزوجه فلا يتهدده الشعور بالوحدة حتى الموت ، هذه هى المشكلة . واذا برياض يقول فى ضجر :

- دعونا من حديث الزواج ، لقد انتهيت منه وعقبى لك ، على أن ثمة احداثا سياسية هامة هى التى ينبغى أن تستأثر اليوم باهتمامنا

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس ، أما اسماعيل لطيف فقال ضاحكا :

ـ عرف النحاس كيف ينتقم لاقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية !

وتريث رياض ليعطى كمال فرصة للرد غير ان هذا لم ينشط للكلام فقال رياض فى لهجة متجهمة :

ـ انتقام ؟ ! ، ان خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة . .

ـ فما الحقيقة ؟

والقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلا :

ـ ليس النحاس بالرجل الذى يتآمر مع الانجليز فى سبيل العودة الى الحكم ، ان أحمد ماهر مجنون ، هو الذى خان الشعب وانضم الى الملك ، ثم أراد ان يغطى مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذى أعلنه أمام الصحفيين . .

ثم نظر الى كمال مستطلعا رأيه ، وكان حديث السياسة قد جذب أخيرا بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة فى معارضة رياض ولو بعض الشىء فقال :

ـ لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف ، ولست أشك فى وطنيته مطلقا ، ان الانسان لا ينقلب فى هذه السن الى خائن ليتولى وظيفة تولاها خمس مرات أو ستا من قبل ، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالى ؟

ـ أنت شكاك لا نهاية لشكك ، ما الموقف المثالى . . ؟

ـ أن يصر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للانذار البريطانى وليكن ما يكون .

ـ ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكرى بريطانى . . ؟

ـ ولو !

تنهد رياض فى غيظ وقال :

ـ نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة ، أما السياسى فأمامه مسئولية

خطيرة ، فى هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد عسكرى انجليزى ؟ ، واذا انتصر الحلفاء — ويجب أن نفترض هذا أيضا — فنكون فى صفوف الأعداء المنهزمين ، السياسة ليست مثالية شعرية ولكنها واقعية حكيمة ..

— لا زلت أومن بالنحاس ، ولكن لعله اخطأ ، لا أقول تآمر أو خان ..

— المسئولية تقع على العابثين الذين مالأوا الفاشست من وراء ظهور الانجليز كان الفاشست سيحترمون استقلالنا ، أليس بيننا وبين الانجليز معاهدة ؟ ، وأليس الشرف يقضى علينا باحترام كلمتنا ؟ ، ثم ألسنا ديموقراطيين يهمنا أن تنتصر الديموقراطية على النازية التى تضعنا فى جدول الأمم والأجناس فى أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية ؟ ! ...

— معك فى هذا كله ، ولكن الخضوع للانذار البريطانى جعل من استقلالنا وهما !

— احتج الرجل على الانذار ونزل الانجليز عند رأيه ..

فضحك اسماعيل عاليا ثم قال :

— يا عينى على الاحتجاج الانجلو اجبشيان !

غير أنه سرعان ما قال جادا :

— انى أقره على ما فعل ، ولو كنت مكانه لفعلته ، رجل أبعد رغم أغلبيته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه ، والواقع انه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ ، ففى سبيل أى شىء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكرى انجليزى ؟ !

وازداد وجه رياض تجهما ، أما كمال فابتسم قائلا فى هدوء بدا غريبا :

— أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ ، لا شك أنه أنقذ الموقف ، أنقذ العرش والبلاد ، ثم ان العبرة بالخاتمة ، فاذا ذكر له الانجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير ..

اسماعيل هازئا وهو يصفق طالبا جمرات للنارجيلة :

— اذا ذكر الانجليز صنيعه ! ، وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقيلونه قبل ذلك !

فقال رياض بايمان :

— الرجل تقدم لحمل أكبر مسئولية فى أحرج الظروف ..

فقال كمال باسما :

ـ كما ستتقدم لحمل أكبر مسئولية فى حياتك !

فضحك رياض ، ثم نهض قائلا « عن اذنكم » ومضى فى اتجاه دورة المياه . وعند ذاك مال اسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم :

ـ فى الأسبوع الماضى زار والدتى « جماعة » لا شك أنك تذكرهم !

فنظر كمال اليه مستطلعا وهو يتساءل :

ـ من ؟

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عايدة !

وقع الاسم من أذنيه موقعا غريبا ، فغطت غرابة موقعه على كافة الانفعالات التى كان حريا بأن يثيرها ، وبدا حينا كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه ، وكل شىء كان متوقعا الا هذا ، ومضت لحظات وكان الاسم ليس له معنى ، من عايدة اى عايدة ؟ ، يا للتاريخ !، كم عاما مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه ؟ ، منذ ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ ؟ ، ستة عشر عاما أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومنى بالاخفاق ! ، لقد طعن فى السن حقا ، عايدة ؟ ! ، ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى ؟، لاشىء !، ليس الا اهتماما عاطفيا مشوبا بشىء من الانفعال كمن تمس يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى . وتمتم متسائلا :

ـ عايدة ؟

ـ نعم ، عايدة شداد الا تذكرها ؟ ، أخت حسين شداد !

وشعر بمضايقة تحت عينى اسماعيل فقال متهربا :

ـ حسين ! ، ترى ما أخبار حسين ؟

ـ من يدرى ؟

وشعر بسخف تهربه ، ولكن ما حيلته وقد أحس بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة ؟ ، وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشىء . . كالطعام ! ، نشعر به بقوة وهو على المائدة ، ثم وهو فى المعدة ، ثم وهو فى الأمعاء على نحو ما ، ثم وهو فى الدم على نحو آخر ، حتى يستحيل خلايا ثم تتجدد الخلايا بمرور الزمن فلا يبقى منه أثر ، لكن ربما بقى منه صدى فى الأعماق هو ما نسميه بالنسيان ، وقد يعرض للانسان

« صــوت » قديم فيدفع بهذا النســيان الى قريب من منطقة الوعى فيسمع الصدى على وجه ما ، والا فما هذا الاضـطراب ؟ ، أم لعـله الحنين الى عايدة لا باعتبارها المحبوبة التى كانت ـ فقد انتهى هذا الى غير رجعة ـ ولكن باعتبارها رمزا للحب الذى كثيرا ما يستوحش غيبته الطويلة ، مجرد رمز كالخربة المهجورة التى تثير ذكريات تاريخية جليلة .

وعاد اسماعيل يقول :

ـ وتحادثنا طـويلا ـ أنا وعايدة وأمى وزوجى ـ فروت لنا كيف هربت هى وزوجها بل وجميع ممثلى الدول السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتى لاذا باسبانيا ، وانهما نقلا أخيرا الى ايران ، ثم رجعنا الى ايام زمان وضحكنا كثيرا ..

مهما يكن من امر الحب الذى مات فقلبه يبعث حنينا مسكرا ، واوتار الأعمـاق التى تهتكت اخذت تصعد أنغـاما بالغة فى الخفوت والحزن .

وتســاءل :

ـ ما شكلها الآن ؟

ـ لعلها فى الأربعين ، كلا انا أكبر منها بعامين ، عايدة فى الســابعة والثلاثين ، امتلأت قليلا عما كانت ، لكنها ما زالت محتفظة برشاقتها ، ووجهها هو هو تقريبا فيما عدا نظرة عينيها التى أصبحت توحى بالجد والرزانة ، وقالت انها أنجبت ابنا فى الرابعة عشرة وبنتا فى العاشرة ..

هذه هى عايدة اذن ، لم تكن حلما ولم يكن تاريخها وهما ، فقد تمر لحظات فيبدو ذلك الماضى كأنه لم يكن ، وهى زوجة وام وتذكر الماضى وتضحك كثيرا ، ولكن ما حقيقة صورتها ؟ ، وماذا بقى من هذه الحقيقة فى الذاكرة ؟ ، فلشد ما تتغير المناظر فى أثناء حفظها بالذاكرة ، وهو يود أن يلقى نظرة ثابتة على هذا الكائن البشرى لعله يقف على السر الذى مكنه قديما من أن يفعل به الأفاعيل .

وعاد رياض الى مجلسه فخاف كمال أن يقطع اسماعيل حديثه ولكنه واصله قائلا :

ـ وسألوا عنك !

ردد رياض نظره بينهما فأدرك أن حديثا خاصا يدور بينهما فعدل عنهما الى النارجيلة ، أما كمال فقد شعر بأن جملة « ســألوا عنك »

توشك أن تودى بقوة مناعته كأشـد الميكروبات فتكا ، وتسـاءل وهو يبذل أقصى ما يملك من قوة ليبدو طبيعيا :

ــ لمـاذا ؟

ــ سـألوا عن فلان وعلان من اصحاب زمان ثم سألوا عنك فقلت : مدرس بمدرسة السلحدار وفيلسوف كبير ينشر مقالات لا افهمها فى مجلة الفكر التى لاافتحها فضحكوا ثم سألوا « هل تزوج ؟ » فقلت كلا . .

فوجد نفسه يسأل :

ــ ماذا قالوا ؟

ــ لا أذكر ماذا حولنا عن هذا الحديث ؟

ان المرض الكامن يهدد بالانفجار ، والذى مرض قديما بالسل يجب أن يحذر البرد ، اما جملة سألوا عنك فما أشبهها بأنغام الصبا فى بساطة معناها وشديد نفاذها فى النفس ، وقد يطرأ ظرف فتعبر النفس حال عاطفية مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع . . . كالمطر فى غير أوانه ، على ذلك شعر فى هذه اللحظة العابرة بانه انقلب ذلك العاشق القديم ، وأنه يعانى الحب حيا بكافة أنغامه السارة والحزينة ، ولكن الخطر لم يكن يتهدده بصفة جدية فهو كالحالم المكروب الذى يداخله شعور ملطف بأن ما يراه حلمـا لا حقيقة ، لـكنه تمنى فى تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو لبضع دقائق فتعترف له بأنها بادلته عاطفته يوما أو بعض يوم وأن فارق السن أو غيره هو الذى فرق بينهما ! ، لو وقعت هذه المعجزة لعزته عن كافة آلامه قديمها وحديثها ولعد نفسه سـعيدا فى الخلق وأن الحياة لم تمض عبثا ، بيد انها صحوة كاذبة كصحوة الموت ، والأحرى به أن يقنع بالنسـيان ، وهو نصر ولو أنطوى على هزيمة ، وليكن عزاؤه انه ليس الوحيـد فى البشر الذى منى بخيبة الحيـاة . وتساءل :

ــ متى يسافرون الى ايران ؟

ــ سافروا أمس أو هذا ما أخبرتنى به فى زيارتها . .

ــ وكيف تلقت كارثة أسرتها ؟

ــ تجنبت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هى اليه !

واذا برياض قلدس يهتف مشيرا امامه « أنظروا » فنظرا الى الجناح الايسر من الشرفة فرأيا امرأة غريبة الشكل . كانت فى الحلقة السابعة ،

نحيلة الجسد ، حافية القدمين ، ترتدى جلبابا مما يرتدى الرجال ، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أى أثر لشعر فهى صلعاء أو قرعاء ، أما وجهها فبدا غارقا فى أصباغ الزواق على هيأة مزرية مضحكة معا ، ولم يكن فى فيها ناب واحد على حين راحت عيناها ترسلان فى جميع الجهات نظرات تودد واستعطاف باسم . تساءل رياض باهتمام :

ـ شحاذة ؟

فقال اسماعيل :

ـ مجذوبة على الأرجح ..

وقفت تنظر الى المقاعد الخالية فى الجناح الأيسر ثم اختارت مقعدا وجلست . عند ذلك انتبهت الى أعين المحدقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت :

ـ مساء الخير يا رجال !

فرحب رياض بتحيتها وقال بحرارة :

ـ مساء الخير يا حاجة !

فندت عنها ضحكة ذكرت اسماعيل ـ على حد قوله ـ بالأزبكية فى عزها !.. وقالت :

ـ حاجة ! ، نعم أنا كذلك ان كنت تقصد المسجد « الحرام » !

وضحك ثلاثتهم فتشجعت وقالت باغراء :

ـ اطلبوا لى الشاى والنارجيلة ولكم الأجر عند الله ..

فصفق رياض بتحمس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامسا « هكذا تبدأ بعض القصص » أما العجوز فقد ضحكت فى سرور وقالت :

ـ هذا كرم أيام زمان !... أغنياء حرب يا أولادى ؟

فقال كمال ضاحكا :

ـ نحن فقراء حرب ، أى موظفون يا حاجة ...

وسألها رياض :

ـ ما الاسم الكريم ؟

فارتفع رأسها فى كبرياء مضحك وقالت :

ـ السلطانة زبيدة على سن ورمح !

ـ السلطانة ؟ !

ـ نعم .. (ثم وهى تضحك) .. ولكن رعيتى ماتوا !

ـ الله يرحمهم !

ـ الله يرحم الأحيــــاء اما الأموات فحسبهم انهم بين يدى الله .. ،
خبرونى من أنتم ؟

وجاء النــادل بالنارجيلة والشاى وهو يبتسم ، ثم اقترب من مجلس الاصحاب وسألهم :

ـ تعرفونها ؟

ـ من هى ؟

ـ زبيدة العالمة ، اشهر عالمة فى زمانها ، ثم انتهى بها العمر والكوكايين الى ما ترون !

خيل الى كمال انه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أما رياض قلدس فقد ارتفع اهتمامه الى الذروة فجعــل يحث اصحابه على أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال اسماعيل مقدما نفسه :

ـ اسماعيل لطيف .

فقالت ضاحكة وهى ترشف الشاى قبل أن يبرد :

ـ عاشت الأسماء ولو انه أسم لا معنى له ..

فضحكوا ، وفى ذات الوقت سبها اسماعيل بصوت لم تسمعه ، أما رياض فقال :

ـ رياض قلدس .

ـ كافر ؟ ! ، عشقنى واحد منكم كان تاجرا فى الموسكى اسمه يوسف غطاس ، كان قد الدنيا ، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح ..!

وشـــاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة فى وجههــا ثم اتجه بصرها الى كمال فقال :

ـ كمال أحمد عبد الجواد

وكانت تقرب قدح الشـــاى من فيهـــا فتوقفت يدها فى يقظة طارئة ثم حملقت فى وجهه متسائلة :

ـ قلت ماذا ؟

فأجاب عنه رياض قلدس :

ـ كمال أحمد عبد الجواد ..

فأخذت نفسا من النارجيلة وقالت وكأنما تخاطب نفسها :

ـ احمد عبد الجواد ! ، ولكن ما أكثر الأسماء ! ، كالقروش أيام زمان .. (ثم مخاطبة كمال) .. والدك تاجر النحاسين ؟

فدهش كمال وقال :

ـ نعم .

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال وهتفت :

ـ أنت ابن أحمد عبد الجواد ! ، يا بن الرفيق الغالى ! ، ولكنك لا تشبهه ! ، هذا انفه حقا ، ولكنه كان كالبدر فى ليلته ، ما عليك الا أن تذكره بالسلطانة زبيدة وهو يحدثك عنى بما فيه الكفاية !

اغرق رياض واسماعيل فى الضحك ، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك ، وهنا فقط تذكر حديث ياسين فى الزمن الخالى ، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالمة ! . وعادت تسائله :

ـ كيف حال السيد ؟ . انقطعت من زمن طويل عن حيكم الذى نبذنى ، انا الآن من أهل الامام ، ولكنى أحن الى الحسين فازوره كل حين ومين ، وكنت مريضة وطال بى المرض حتى ضاق بى الجيران فلولا الملام لرمونى فى القبر حية ، كيف حال السيد ؟ .

فقال كمال فى شيء من الوجوم :

ـ توفى منذ أربعة أشهر ..

فقطبت قليلا وقالت :

ـ الى رحمة الله ، يا خسارة ، كان رجلا ولا كل الرجال ..

ثم عادت الى مجلسها ، وبغتة ضحكت ضحكة عالية ، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذرا :

ـ كفاية ضحك ، سكتنا له دخل بحماره ، كتر خير البكوات على اكرامهم لك ، ولكن ان عدت الى الزياط فالباب من هنا ..

فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل ، ثم نظرت اليهم باسمة ، ثم سألت كمال :

ـ وأنت كأبيك أم لا ؟ ..

وأتت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال اسماعيل :

ـ انه لم يتزوج بعد ! .

فقالت فى لهجة ارتيــاب عابث :

ـ الظاهر أنك ابن أونطة ! . .

فضــحكوا ، ثم نهض رياض ، ومضى اليهــا فجلس الى جانبها وهو يقول :

ـ حصــل لنا الشرف يا سلطانة ، ولــكنى اود ان اســمع لك وانت تحدثينا عن ايام السلطنة ! .

- ٤١ -

لم يبق الا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة ، أما قاعة ايوارت فقد قاربت الامتلاء . ان مستر روجر ـ كما قال رياض قلدس ـ أستاذ خطير ، وهو كاخطر ما يكون حين يتكلم عن شكسبير . أجل قيل ان المحاضرة لن تخلو فى النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا يهم فى ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير . غير أن رياض كان مغتما واجما ، ولولا أنه هو الذى دعا كمال الى سماع المحاضرة لتخلف عن شــهودها . وكان حزينــا كما ينبغى لرجل مثله تســتأثر السياســة باهتمامه كل هذا الاســتئثار . وكان يهمس فى أذن كمال بانفعال غير خاف :

ـ يفصل مكرم من الوفد !. كيف تقع هذه الخوارق !.

ولم يكن كمال قد افاق من الخبر كذلك فهز رأســه فى وجوم دون ان ينبس :

ـ انها كارثة قومية يا كمال ، ما كان ينبغى أن تتهاوى الأمور حتى هذا الحضيض . .

ـ نعم ، ولــكن من المسئول ؟ .

ـ النحاس !. قد يكون مكرم عصبيا ، ولكن الفساد الذى تسرب الى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت عليه .

فقال كمال باسما :

ـ دعنا من الفســاد الحكومى ، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هى لضياع النفوذ . . .

فتساءل رياض فى شيء من التسليم :

ــ أيباع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة ؟ . .

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلا :

ــ لقد بعت نفسك انت بهذه العاطفة الزائلة ! .

ولكن رياض قال دون أن يبتسم :

ــ أجبنى ! . .

ــ مكرم عصبى ، شاعر ومغن !. عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئا على الاطلاق ، وجد نفوذه المأثور يتقلص فثار ، ثم وقف لهم وقفته فى مجلس الوزراء منددا علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون ، حدث يؤسف له . .

ــ والنتيجة ؟ .

ــ هنالك السراى تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد فى الوفد ، وستحتضن مكرم فى الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل ، سنرى من الآن فصاعدا مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراى ، اما هذا واما العزلة ، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر ، ومنهم اناس لم يكرهوا الوفد الا كراهة فى مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد ، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به . .

فعبس رياض وقال :

ــ صورة بشعة ، اخطأ الاثنان ، النحاس ومكرم ، ان قلبى متشائم من هذه الحركة . .

ثم بصوت أشد انخفاضا :

ــ سيجد الأقباط انفسهم بلا مأوى ، أو يأوون الى حضن عدوهم اللدود « الملك » وهو مأوى لن يدوم لهم طويلا ، واذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال ؟ .

فتساءل كمال متغابيا :

ــ لماذا تدفع بالأمر خارج حدوده الطبيعية ؟ . مكرم ليس الاقباط والاقباط ليسوا مكرم ، انه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومى فلن يذهب . . .

فهز رياض رأسه فى أسف ساخر وقال :

ـ هذا ما قد يكتب فى الجرائد ، اما الحقيقة فهى ما اعنى ، لقد شعر الاقباط بأنهم طردوا من الوفد ، وهم يتلمسون الأمان ، واخشى الا يظفروا به أبدا ، لقد جاءتنى السياسة أخيرا بعقدة جديدة كعقدة الدين ، فكما كنت أنبذ الدين بعقلى وأميل اليه بقلبى بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبى وأميل اليه بعقلى ، اذا قلت انى وفدى كذبت قلبى واذا قلت انى عدو للوفد خنت عقلى ، انها كارثة لم تخطر لى على بال ، والظاهر أنه مقضى علينا نحن الاقباط بان نعيش فى شخصيات منقسمة ابدا ، لو كانت مجموعتنا فردا واحدا لجن ! .

شعر كمال بامتعاض وألم ، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفجعة . ثم قال فى صوت لا ينم عن ايمان :

ـ عسى أن تكون مشكلة وهمية ، اذا نظرتم الى مكرم كرجل سياسى لا الأمة القبطية جميعا ! .

ـ هل ينظر اليه المسلمون انفسهم على هذا النحو ؟ ! .

ـ هكذا أنظر اليه انا ! .

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال :

ـ انى اتساءل عن المسلمين فما دخلك انت ؟ .

ـ أليس موقفنا واحدا أعنى انا وانت ؟ .

ـ بلى ، مع فارق بسيط ، وهو أنك لست من الأقلية . . (ثم وهو يبتسم) لو عشت فى عصر الفتح الاسلامى وتكشف لى الغيب لدعوت الأقباط جميعا الى الدخول فى دين الله ! . .

ثم فى شىء من الاحتجاج :

ـ انك لا تصغى الى . . !

أجل ! . كانت عيناه مصوبتين نحو مدخل القاعة . ونظر رياض الى حيث ينظر فرأى فتاة فى مقتبل العمر ، ترتدى فستانا رماديا بسيطا ، فى هيئة الطالبات ، وقد جلست فى المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات .

ـ تعرفها ؟ . .

ـ لا أدرى ! . .

وانقطعت فرصة الكلام اذ ظهر الاستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد ، ثم ساد الصمت الذى تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح ، ثم قدمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة ، ثم بدأ الرجل

فىالقاء محاضرته . وظل كمال اكثر الوقت متجه العينين نحو رأس الفتاة فى تساؤل واهتمام . وكان قد رآها مصادفة عند دخولها ، فدهمه منظرها ، وانتزعته بقوة من تيار أفكاره ، ثم قذفت به فى الماضى عشرين عاما ثم استردته الى الحاضر وهو يلهث . خيل اليه أول الأمر أنه يرى عايدة . غير أنها لم تكن عايدة دون ريب ... هذه الفتاة التى لا يمكن أن تجاوز العشرين . ولم يتح له وقت كاف كى يتفحص قسماتها ولكن جملة منظرها كان فيه الكفاية ، هيئة الوجه والقامة والروح ومجتلى العينين ، أجل لم ير هاتين العينين فى غير وجه عايدة من قبل . أتكون شقيقتها ؟ . خطر له هذا الرأى أول ما خطر . بدور . ولم يغب عنه الاسم هذه المرة . وسرعان ما ذكر صداقتها له فى الماضى البعيد ، ولكن هيهات ـ ان تكن حقا هى ـ أن تتذكره . المهم أن صورتها أيقظت قلبه ، ردته ولو الى حين الى شىء من تلك الحياة الغامرة الغنية التى اكتظ بها زمنا ، فهو فى اضطراب ، يسمع الى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر الى رأس الفتاة اكثر الوقت ، ثم يغرق فى موجة الذكريات ، مستشعرا فى أناة جملة المشاعر التى تتلاحم وتصطرع فى وجدانه . فلأتبعها لأعرف حقيقتها ، لا غاية لى ولكن الملول مشاء ، انى أتوق لأى شىء قد يمسح عن روحى الصدأ المتكاثف فوقها. وتربص مبيتا هذه النية. ترى أطالت المحاضرة أم قصرت ؟.. لا يدرى ، ولكنه عند انتهائها أفضى بغرضه الى رياض ثم ودعه وسار فى أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها ، مشية رشيقة ، قامة هيفاء ، لايستطيع أن يقارن بين المشيتين لأن الأخرى لم يعد متوكدا منها ، أما القامة فأغلب الظن أنها هى هى . وكان شعر الأخرى «ألاجرسون» أما هذا الشعر فغزير معقوص ، ولكن اللون الأسود واحد فى الحالين ما فى ذلك شك . ولم يستطع ايضا أن يتفحص وجهها على محطة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين ، ولكنها استقلت الترام رقم ١٥ الذاهب الى العتبة وانحشرت فى الحريم فاستقله وراءها وهو يتساءل ترى أهى فى طريقها الى العباسية أم أن ما يفترضه ليس الا أضغاث أحلام ؟ . عايدة لم تستقل تراما فى حياتها قط ، كان رهن أمرها سيارتان ، أما هذه المسكينة ...! وداخله حزن كحزنه يوم استمع الى قصة افلاس شداد بك وانتحاره . وأفرغ الترام أكثر حمولته فى العتبة فاختار موقفا غير بعيد منها فوق طوار المحطة . وجعلت تنظر

صوب الناحية التى تترقب مجىء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم ، ثم لاحظ أن بشرتها قمحية اللون مع ميل الى البياض، ليست خمرية كالصورة الذاهبة ، فشعر لذلك بأول أسف منذ تبعها . كأنما تبعها ليرى الأخرى . ثم جاء ترام العباسية فتأهبت للركوب ، ولما وجدت الحريم مزدحمة استقلت عربة الدرجة الثانية ، ولم يتردد فكان فى اعقابها ، وجلست فجلس الى جانبها ، ثم امتلأت المقاعد على الصفين، ثم امتلأ ما بينهمـا بالواقفين . ووجد لتوفيقـه فى الجلوس الى جانبها ارتياحا لا مزيد عليه ، غير أن جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرة أخرى ، ربما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين ، القديمة الخالدة والماثلة الى جانبه . وكان منكبه يلامس منكبها ملامسة خفيفة كلما ند عن الترام حركة مفاجئة خاصة عند القيام والوقوف . وجعل يلاحظها كلما أمكن ويتفحصها ما استطاع . هاتان العينان السوداوان الساجيتان ، والحاجبان المقرونان ، والأنف السـوى اللطيف ، والوجه البدرى . كأنه ينظر الى عايدة . حقا ؟ . كلا ، ثمة تباين فى لون البشرة ، ولبسة اختلاف هنا أو هناك ، لا يذكر ان كانت الى الزيادة هى أم الى النقصان ، ومع أن تباينهما كان يسيرا الا أن احساسه به كان خطيراً فهو كدرجة الحرارة الواحدة التى قد تكون فاصلا بين الصحة والمرض، ولكنه كان فى الوقت نفسه حيال أقرب مثال الى عايدة التى خيل اليه أنه بات يذكرها أوضح من أى وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل . والجسم لعله هو هو ، ما أكثر ما تساءل عنه ، فلعله الآن يراه ، وهو رشيق نحيل، صدره آية فى الحياء ، كذلك هو فى جملته ، لايمت بسبب الى جسم عطية البض المدملج الذى يتعشقه ! . فهل فسد ذوقه على الأيام ؟ . أو أن حبه القديم كان ثائرا على غريزته الكامنة ؟ . بيد أنه كان حيا سعيدا حالما ثمل القلب بنشوات الذكريات ، وكانت ملامساته المتقطعة لها تزيده نشوة واغراقا فى التأملات ، انه لم يمس عايدة ، كان يراها أبدا مستحيلة المنال ، أما هذه الصغيرة فهى تسير فى الأسواق وتجلس فى تواضع بين جمهور الدرجة الثانية ، فما أشد حزنه ، وذلك التباين الطفيف الذى أحنقه وخيب أمله ، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزا الى الأبد . وجاء الكمسـارى مناديا « التذاكر والابونيهات » ففتحت حقيبتهـا واخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتى يصل الرجل اليها ، فاسترق

الى التذكرة النظر حتى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شداد ... طالبة بكلية الآداب » ، لم يعد ثمة شك ، أن قلبى يخفق أكثر مما ينبغى، لو أستطيع أن انشل هذا الاشتراك !. كى أحتفظ بأقرب صورة لعايدة ، آه لو كان فى الامكان هذا ، مدرس فى السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلية الآداب !. يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد ، فيلسوف فاشل فى حدود الأربعين !. ترى ما سن بدور ؟. لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهى فى الواحد والعشرين من عمرها السعيد ، السعيد ؟ ! . لا قصر ولا سيارة ولا خدم ولا حشم ، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلت الكارثة بأسرتها ، وهو عمر حرى بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم ، تألمت المسكينة وذعرت ، ابتليت بهذا الشعور القاسى الذى أصبحت به جد خبير ، جمعنا الألم على تفاوت فى الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية . وجاءها الكمسارى فسمعها وهى تقول له « تفضل » ثم ناولته التذكرة ..وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرا طويلا ثم انبعثت فى السمع بكل حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحيت فترة سماوية من الزمن ، دومت أذنه فى مملكة الطرب الالهية مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب . إسمعينى صوتك ، وما هو بصوتك ، ياصديقتى القديمة السيئة الحظ ، من حسن الحظ أن صاحبة هذا الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى ، لم ترتق اليها الأحزان التى أغرقت أسرتها ، أما أنت فقد انحدرت الينا نحن جمهور الدرجة الثانية ، الا تذكرين صديقك الذى كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل ؟ . كيف تعيشين اليوم ياصغيرتى ؟. وهل تعملين مثلى فى النهاية مدرسة باحدى المدارس الابتدائية ؟. ومر الترام بمكان القصر القديم الذى قام فى موضعه بناء ضخم جديد . وقد رآه قبل ذلك فى المرات القلائل التى زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخى عنها خاصة فى العهد الأخير وهو يتردد على بيت فؤاد جميل الحمزاوى . العباسية نفسها تغيرت كبيتكم يا صغيرتى ، اختفت قصورها وحدائقها التى عاصرت حبى وحزنى وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظة بالسكان والحوانيت والمقاهى والسينمات ، فليسر بذلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أما أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أن قلبى مطمور فى انقاضه ؟ ، أو

كيف احتقر المخلوق البديع الذى لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب اذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبى له ساجد ؟ .

وعند ما توقف الترام فى المحطة التالية لقسم الوايلى غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها ، فرآها وهى تعبر الطريق الى شارع « ابن زيدون » الذى يواجه المحطة مباشرة . كان شارعا ضيقا تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطى وجهه المهد بالأسفلت الأتربة والحصا والأوراق المبعثرة ، وقد دخلت ثالث بيت الى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كواء . وقف ينظر الى الطريق والبيت فى صمت واجم ، ذلك المكان الذى تقيم فيه اليوم سنية هانم حرم شداد بك ! . وهذه الشقة لا يزيد ايجارها على ثلاثة جنيهات ، وليت سنية هانم تخرج الى الشرفة ليلقى عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغير لا شك انه خطير ، ولعله لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاملك متأبطة ذراع زوجها الى حيث تنتظر السيارة ، كانت تختال عجبا فى معطفها الوثير وتلقى على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة ، ولن يمنى الانسان بعدو أشد فتكا من الزمن . فى هذه الشقة نزلت عايدة فى أثناء اقامتها بالقاهرة ، ولعلها جلست بعض العصارى فى هذه الشرفة البالية ، ولعلها قاسمت امها واختها فراشهما الواحد ما فى ذلك ريب ، فليتنى علمت بوجودها فى الوقت المناسب ، وليتنى رأيتها بعد ذلك التاريخ الطويل ، كان ينبغى أن اراها وانا متحرر من استبدادها ، كى أعرفها على حقيقتها ، وبالتالى كى أعرف نفسى أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة ...

- ٤٢ -

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب يصغى الى الدرس الذى يلقيه الأستاذ الانجليزى . لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيما بدا له . ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان فى الحضور - كمستمع - لمتابعة الدروس المسائية التى تلقى ثلاث مرات فى الأسبوع ، واكثر من هذا فان الأستاذ قد رحب

به عند ما علم بأنه مدرس لغة انجليزية . أجل كان غريبا بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس فى أواخر العام الدراسى ولكنه علل ذلك أمام الأستاذ بأنه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها . وكان قد علم بوجود بدور فى هذا القسم عن طريق رياض قلدس الذى عرفه بدوره عن طريق صـديقه سكرتير الكلية . وبدا منظره ، ببدلته الأنيقة ونظارته الذهبية وطوله ونحوله وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التى تلتمع فى سوالفه الى راسه الضخم وانفه الكبير ، بدأ كل أولئك ملفتا للأنظار خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغض ، فكم بدوا كالمتسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها ، حتى خيل اليه أنه يسمع ما يدور فى نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدرى الناس بها وأخبر ! . هو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التى أقدم عليها دون مبالاة على ما جشمته من جهد وحرج ، ما بواعثها الحقيقيـة وما هدفها ؟ . لا يدرى شيئا على وجه التحقيق ، ولكنه ما أن راى بارقة نور فى ظلمة حياته الداكنة حتى انطلق يتسمته وهو لا يلوى على شيء مدفوعا بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل ، غير مبال بما قد يعثر به فى طريق محفوف بالتزمت والتقاليد من ناحيـة ، وبالشباب المتوثب للسخرية من ناحية أخرى . كان غارقا فى اليأس والملل فجرى ملهوفا وراء هذا الشيء الذى لايشك فى أنه تسلية وأى تسلية ، وحياة وأى حياة ، وبحسبه أنه انقلب يهتم بالزمن وينشد الأمل ويأمل فى المسرة ، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتا . وكان يشعر بضيق الوقت ، فالعام الدراسى يشارف نهايته المحتومة ، بيد أن محاولته لم تضع هباء ، فبدور قد رأته كما رآه الجميع ، ولعلها شاركت فيما يدور من همس حـوله ، الى أن عينيهما قد تلاقتا أكثر من مرة ، ولعلها طالعت فى عينيه ما يضطرم فى ذاته من الاهتمام والاعجاب ، من يدرى ؟ . وفضلا عن هذا كله فعنـد العودة يستقلان ترام الجيزة معا ثم ترام العباسية ، وكثيرا ما يجلسـان فى مكان واحد ، فباتت تعرفه جيدا ، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حبها كله ، خاصـة اذا كان مدرسا حريصـا على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار . أما عن غايته من هذا كله فلم يشق على نفسه فى تحقيقها ، لقد دبت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها ، وهو تواق بكل قوة نفســه المعذبة الى أن يعود ذلك الانسان الذى تعتلج فى

وجدانه المشاعر وتهيم فى عقله الخواطر وتنجلى فى حواسه المناظر ، وان ينسى بهذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام ألغاز لاتحل ، كأنها الخمر ولكنها أعمق متاعا والطف عاقبة . وفى الأسبوع الماضى حدث شىء تأثر له قلبــه أيما تأثر . فقد عاقه اشرافه على النشــاط الرياضى بمدرسة السلحدار من الوصول الى الكلية فى الوقت المناسب ، فدخل حجــرة الدرس متأخرا ، والتقت عيناهما حين دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتا ، التقت عيناهما التقاء خاطفا سحريا وسرعان ما أرخت جفونها فيما يشبه الحياء . لم تكن اذن مجرد نظرة تلتقى فيها عينان محايدتان ، وبات مرجحا أنها استشعرت شيئا من الحياء ، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيه قد ضــاع عبثا ؟ ! . الصغيرة باتت تستحى من نظراته فلعلها أخذت تدرك أنها ليست بالنظرات البريئة التى توجهها المصادفة . وأثار ذلك فى نفســه جملة من الذكريات واستدعى كثيرا من الصور ، حتى وجد نفسه يتذكر عايدة ويتخيلها ، ولكنه لم يدر لماذا ، فان عايدة لم تغض الطرف حيــاء حياله قط ، فلعل شيئا آخر الذى ذكره بها ، لفتة او رنوة أو ذلك السر الساحر الذى ندعوه بالروح. وأول أمس حدث شىء آخر له خطورته كذلك ، انظر كيف ردت الحياة اليك ! . قبل ذلك لم يكن لشىء خطورة قط ، أو لم تكن تضفى الخطورة الا على هذه الألغاز العقيمة كالارادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون ، كانت الحياة كلها صماء لا خطر لها ، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفتة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعا !. حدث ذلك وهو ماض الى الكلية قبيل الخامسة مساء مخترقا حديقــة الأورمان ، فما يدرى الا وبدور وثلاث فتيات يطالعنه على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس ، والتقت عيناهما التقاء عميقا كما وقع فى حجرة الدرس ، وكان يود أن يحييهن عند الاقتراب منهن ولكن المشى الذى يسير فيه عرج به بعيدا عنهن كأنه ابى أن يشترك فى هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة ، ولما ابتعد قليلا التفت وراءه فرآهن يهمسن فى أذنها باسمات وهى مسندة رأسها الى راحتها كأنما تخفى وجهها !. ماهذا المنظر البديع ؟!. لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره ، ولكنه لا يحتاج الى براعة رياض ، لا شك أنهن يهمسن لها عنه حتى أخفت وجهها حياء ! ، هل ثمة معنى غير هذا ؟. فلعل الصب فضحته عيونه ، ولعله جاوز المدى وهو

لا يدرى حتى صار أحـدوثة ، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضا يتمازج به الطلبة الشياطين ؟ ! . وفكر جادا فى الانقطـاع عن الكلية . ولكنه وجدها تجلس الى جانبه فى ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها فيه !. وترصد التفاتها ناحيته ليحييها وليكن ما يكون ، فلما طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثم تظاهر بانه فوجيء بجلوسها لصقه فهمس فى أدب :

ــ مساء الخير !

فنظرت نحوه كالذاهشة ــ لم تترك له عايدة ذكرى تصنع أنثوى من اى نوع كان ــ ثم همست :

ــ مساء الخير . . .

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك ، لم يكن مع أختهـا بهذه الجراة ، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج .

ــ حضرتك من العباسية فيما أعتقد ؟

ــ نعم . . .

لا تريد ان تدفع الحديث من ناحيتها !

ــ من المؤسف أننى لم أتابع المحاضرات الا اخيرا . .

ــ نعم . . .

ــ ارجو أن اعوض ما فاتنى فى المستقبل . . .

فابتسمت دون أن تنبس . « زيدينى من سماع صوتك فانه النغمة الوحيدة من الماضى التى لم يغيرها الزمن » .

ــ ماذا تنوين بعد الليسانس ؟ ، معهد التربية ؟

فقالت باهتمام لأول مرة :

ــ لا حاجة بى الى ذلك لأن الوزارة محتاجة الى مدرسات ومدرسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد فى التعليم . .

طمع فى نغمة واحدة فوهب لحنا كاملا !

ــ اذن ستعملين مدرسة ؟

ــ نعم ، لم لا ؟

ــ انها مهنة شاقة ، سلينى عنها .

ــ حضرتك مدرس فيما سمعت ؟

ــ نعم ، أوه ، نسيت أن أقدم نفسى ، كمال احمد عبد الجواد !

ــ تشرفنا .

فقال باسما :

ــ لكنك لم تشرفينى بعد ؟

ــ بدور عبد الحميد شداد !

ــ تشرفت يا فندم . . .

ثم مستدركا كمن فوجىء بشىء فريد :

ــ عبد الحميد شداد ! ، ومن العباسية ؟ ، حضرتك أخت حسين شداد ؟

فلمعت عيناها فى اهتمام وقالت :

ــ نعم .

فضحك كمال كأنما يضحك عجبا من غرابة المصادفات وقال :

ــ يا سلام ! ، كان أعز أصدقائى ، وقضينا معا أياما سعيدة جدا ، رباه أأنت أخته الصغيرة التى كانت تلعب فى الحديقة ؟

فحدجته بنظرة استطلاع . هيهات أن تتذكره !. « فى ذلك العهد كنت مغرمة بى كما كنت مغرما بأختك » .

ــ لا أذكر شيئا طبعا . . .

ــ طبعا ، هذا تاريخ يرجع الى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦ ، تاريخ سفر حسين الى أوروبا ، ماذا يفعل الآن ؟

ــ فى فرنسا فى القسم الجنوبى الذى انتقلت اليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألمانى . . .

ــ وكيف حاله ؟ ، من زمن طويل انقطعت عنى أخباره ورسائله . .

ــ بخير . . .

نطقت بها فى لهجة نمت عن رغبة عن الخوض فى الموضوع أكثر من ذلك . وتساءل كمال والترام يمر بمكان القصر القديم ترى ألم يخطىء بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها ؟ ، أليس فى ذلك حدا من حريته فيما هو بسبيله ؟. ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلى حيته وغادرت الترام ، فلبث فى مكانه كأنما نسى نفسه . كان طوال الطريق يتفحصها كلما سنحت فرصة لعله يهتدى الى السر الذى سحره قديما ، ولكنه لم يجده وان شعر مرارا بأنه منه قريب . وكانت تبدو لطيفة وديعة ، وكانت تبدو قريبة المنال . وهو الآن يشعر كأنما يعانى

خيبة أمل غامضة وحزنا غير بين الأسباب . لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدى . أجل انها تبدو مستجيبة ملبية ، رغم فارق السن المحسوس او بسبب فارق السن ؟ ! ثم ان التجارب قد علمته أن شكله لن يعوقه عن الزواج اذا أراده . وهو اذا تزوجها انتقل بقدرة قادر الى عضوية أسرة عايدة ، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف ؟ ، وما عايدة الآن بالنسبة اليه ؟ . الحق انه لا يريد عايدة ، ولكنه لا يكف عن التطلع الى معرفة سرها ، لعله يقتنع فى الأقل بأن أزهى عصور العمر لم يضع هباء . ووجد رغبة — طالما الحت عليه على فترات من العمر — فى مراجعة كراسة الذكريات وعلبة الملبس التى أهديت اليه ليلة الزفاف . ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الانسان فى الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية ؟ . ولكن هل يقى الكيميائى علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين ؟ ، أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان ؟ ، رغم ما منى به من خيبة الأمل ، رغم الفارق الكبير بين الماضى والحاضر ، رغم انه لا يدرى ان كان من أهل الماضى أم من أهل الحاضر ، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق . . .

— ٤٣ —

هنا حديقة الشاى ، سماؤها أفرع وغصون ريانة ، ومرتاد النظر البط السابح فى البحيرة الزمردية ، والجبلاية فيما وراء ذلك . واليوم عطلة مجلة الانسان الجديد ، وها هى سوسن حماد تبدو رائعة فى فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين ، وهى آخذة زينتها ولكن فى لباقة وحذر . وكان قد مضى على زمالتهما عام فجلسا متقابلين يضىء وجهيهما ابتسام التفاهم ، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيهما الا ذوب ثمالة الحليب المورد بالفراولا . « انها أعز شىء لدى فى هذه الدنيا ، أدين لها بسرائى جميعا وهى قبلة آمالى أيضا ، ونحن زميلان مخلصان ، لم ينطق الحب بيننا ولكننى لا أشك فى أننا متحابان ، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون ، بدأنا رفيقين فى

ميدان الحرية ، وعملنا يدا واحدة ، وكلانا مرشح للسجن ، وكنت كلما نوهت بجمالهـا حملقت في وجهي محتجة وزجرتني مقطبة كأن الحب شيء لا يليق بنا فابتسم واعود الى ما كنا فيه من عمل ، ويوما قلت لها : « اني أحبك . . اني أحبك . . فافعلي ما بدا لك » ، فقالت لي : « هذه الحياة هي الجد كل الجد وأنت تعبث » ، فقلت لها : « اني مثلك ارى أن الراسمالية في طور الاحتضار وانها استنفدت كافة اغراضها ، وان على الطبقة العاملة أن تطلق ارادتها لتدير آلة التطور اذ ان الثمرة لن تسقط وحدها ، وأن علينا ان نخلق الوعي ولكني بعد ذلك أو قبل ذلك احبك » ، فقطبت تقطيبة متكلفة بعض الشيء وقالت : « انك تصر على اسماعي ما لا أحب » ، وشجعني خلو حجرة السكرتارية فهويت الى وجهها فجاة ولثمت خدها فحدجتني بنظرة قاسـية وأكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظـام الأسرة في الاتحـاد السوفييتي الذى كنا نترجمه معا .

ـ هذا الحر كله في يونيه فكيف اذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتي ؟

ـ يبدو أن الاسكندرية لم تخلق لأمثالنا !

فضحك قائلا :

ـ ولكن الاسكندرية لم تعد مصيفا ، كانت كذلك قبـل الحرب أما اليوم فالاشاعات قد جعلتها خرابا . .

ـ الأستاذ عدلي كريم يؤكد أن أكثرية سـكانها قد هجروها وان طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها !

ـ هي كذلك ، وعما قريب يدخلها رومل بجيوشه . .

ثم بعد صمت قصير :

ـ وسوف يلتقي في السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستي كما كان في العصر الحجري !

فقالت سوسن في شيء من الانفعال :

ـ روسـيا لن تنهـزم ، وان آمال البشرية مصونة خلف جبـال الأورال . . .

ـ نعم لكن الألمان على أبواب الاسكندرية !

تساءلت وهي تنفخ :

ـ لماذا يحب المصريون الألمان ؟

– كراهة فى الانجليز ، وسوف يمقتونهم فى الغد القريب ، ان الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثم يشربان معا نخب وأد الديموقراطية الناشئة فى بلادنا ، ومن المضحك ان الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم !

– أعداؤنا كثيرون ، الألمان فى الخارج ، والاخوان والرجعية فى الداخل وكلاهما شيء واحد ...

– لو سمعك اخى عبد المنعم لثار على رايك ، انه يعتبر الاخوانية فكرة تقدمية تزرى بالاشتراكية المادية ..

– قد يكون فى الاسلام اشتراكية ، ولكنها اشتراكية خيالية كالتى بشر بها توماس مورو ولويس بلان وسان سيمو ، انه يبحث عن حل للظلم الاجتماعى فى ضمير الانسان بينما أن الحل موجود فى تطور المجتمع نفسه ، انه لا ينظر الى طبقات المجتمع ولكن الى أفراده ، وليس فيه بطبيعة الحال اية فكرة عن الاشتراكية العلمية ، وفضلا عن هذا كله فتعاليم الاسلام تستند الى ميتافيزيقا اسطورية تلعب فيها الملائكة دورا خطيرا ، لا ينبغى أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا فى الماضى البعيد ، قل هذا لأخيك ...

فضحك احمد فى سرور غير خاف وقال :

– اخى شاب مثقف وقانونى ذكى ، انى اعجب كيف يتحمس أمثاله للاخوان !

فقالت بازدراء :

– الاخوان يصطنعون عملية تزييف هائلة ، فهم حيال المثقفين يقدمون الاسلام فى ثوب عصرى ، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار ، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية ..

حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها ، قلت حبيبتى ؟ ، نعم فمنذ القبلة التى اختلستها دابت على أن ادعوها بحبيبتى وكانت تحتج بالكلام تارة وبالاشارة تارة أخرى ثم جعلت تتجاهله كأنما قد يئست من أصلاحى ، وعند ما قلت لها انى تواق الى سماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبختنى قائلة باحتقار : « هذه النظرة البورجوازية العتيقة الى المراة .. هه ؟! » فقلت لها جزعا ان احترامى لك فوق كل كلام وانى لأعترف بانى تلميذك فى أنبل ما صنعت فى

حياتى ولكننى أحبك كذلك وما فى ذلك من بأس . فذهب غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظاهره فيما رأيت ، واقتربت منها مضمرا تقبيلها فلا ادرى كيف حزرت غرضي فدفعتنى فى صدرى ولكننى على رغم ذلك لثمت خدها وما دام المحذور قد وقع - وقد كان بوسعها منعه جديا - فقد اعتبرتها راضية ، وانها لكائن بديع جميل العقل والجسم معا رغم اغراقها فى السياسة ، وعند ما دعوتها للنزهة فى الحديقة قالت « على شرط أن ناخذ معنا الكتاب لنواصل الترجمة » فقلت لها بل للفرجة والمناجاة والا كفرت بالاشتراكية جميعا ! . ولعله مما يزعجنى كثيرا حيال نفسى المتشبعة بالسكرية اننى ما زلت انظر احيانا الى المراة بالعين التقليدية البورجوازية فيخيل الى فى بعض ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المراة التقدمية ليست الا نوعا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن العام الذى زاملت فيه سوسن قد غيرنى كثيرا وطهرنى لدرجة محمودة من أدران البورجوازية المستوطنة فى أعماقى ! .

- من المؤسف ان زملاءنا يعتقلون بلا حساب ! .

- نعم يا حبيبتى ، الاعتقال موضة تشيع أيام الحروب وأيام الارهاب على السواء ، غير أن القانون لا يرى بأسا فى اعتناق المبدأ اذ لم يقترن بالدعوة الى العنف . .

- ولكننا نلقى محاضرات سرية على العمال ، الا يعد هذا دعوة الى العنف ؟ . . .

فضحك احمد وقال :

- سيلقى القبض علينا ان آجلا وان عاجلا الا . . .

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول :

- الا اذا أدبنا الزواج ! .

فهزت منكبيها فى ازدراء وقالت :

- من ادراك باننى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك ؟ .

- مزيف ؟ . .

ففكرت قليلا ثم قالت باهتمام جدى :

- لست من طبقة العمال مثلى ! . كلانا يحارب عدوا واحدا ولكنك لم تخبره كما خبرته ، لقد ذقت الفقر طويلا ، ولمست آثاره الكريهة فى

أسرتى ، وغالبته اخت لى حتى غلبهـا فماتت ، أما أنت فلست . لست من طبقة العمال ! .

فقال بهدوء :

ـ ولا كان انجلز من هذه الطبقة ! .

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت :

ـ كيف ادعوك ؟ . البرنس احمـدوف ؟ ! . هه ؟ . لا أنـكر عليك مبداك ، ولـكن بك بقايا بورجوازية عتيدة ، يخيـل الى انك تسر أحيانا لكونك من آل شوكت ! .

فقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـ انت مخطئة يا ظالمة ! . لا يعيبنى ما ورثته ، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبنى ، أعنى الدخل القليل الذى عاشت به أسرتنا عيشـة التنابلة ، لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا ، ولا عيب الا فى الجمود والتخلف عن روح العصر . . .

فقالت وهى تبتسم :

ـ لا تغضب ، كلانا ظاهرة طبيعية علمية ، لا نسأل عما وجدنا انفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعـل ، انى اعتذر اليك يا انجلز ، ولكن خبرنى هل أنت على استعداد لمواصلة القاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب ؟ .

فقال بادلال :

ـ لقـد حاضرت حتى أمس خمس مرات ، وحـررت منشـورين خطيرين ، ووزعت عشرات المنشورات ، وللحكومة دين فى عنقى جاوز العامين سجنا ! .

ـ ولها فى عنقى أضعاف ذلك ! .

مد يده بخفة فوضعها على يدها السمراء البضة فى حنان واعجاب . نعم انه يحبها ، ولـكنه لا يندفع فى جهاده باسم الحب ، ترى لم تبـدو أحيانا وكأنها تشك فيه ؟ . أهى مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التى تحسبها كامنة فيـه ؟ . انه مؤمن بالمبدأ كما انه مغرم بها ، لا غنى له عن هذا ولا ذاك ، « أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حق الفهم وتفهمه حق الفهم ؟ . والا يحول بينك وبينه أى نوع من المكر ؟. انى اعبدها اذ قالت « لقد ذقت الفقر طويلا » ، هذا

القول الصريح الذى سما بها عن بنات جنسها جميعا ومزجها بنفسى ، لكننا محبون غافلون والسجن يتربص بنا ، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتاعب ونقنع برغد العيش ، ولكنها تكون حياة بلا روح ، لشد ما يبدو لى المبدأ أحيانا كأنه لعنة مصبوبة علينا من القضاء والقدر ، انه دمى وروحي ، كأننى المسئول الأول عن الانسانية جميعا . .

ـ أحبك . .

ـ ما المناسبة لهذا ؟ .

ـ فى كل مناسبة وبلا مناسبة ! .

ـ انك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء !.

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بينى وبينك . .

ـ الا يعنى الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن ؟.

ـ الم تسمعى عن النبى الذى كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعا ؟! .

ففرقعت بأصابعها هاتفة :

ـ ها هو أخوك قد أعارك فاه ، أى نبى يا هذا ؟ .

فقال ضاحكا :

ـ نبى المسلمين ! .

ـ دعنى أحدثك عن كارل ماركس الذى عكف على تأليف « رأس المال » تاركا زوجه وابناءه للجوع والبهدلة ! .

ـ كان متزوجا على أى حال . .

كان ماء البركة عصير زمرد ، وهذه النسمة اللطيفة تهفو فى خلسة من يونيه ، والبط يسبح مسددا منقاره لالتقاط فتات الخبز ، وانت سعيد جدا ، والحبيبة المتعبة الد من الطبيعة ، يخيل الى أن وجهها تورد ، فلعلها تناست السياسة قليلا وأخذت تفكر فى . .

ـ كان المأمول يا زميلتى العزيزة أن نحظى فى هذه الحديقة بحديث عذب ! .

ـ أعذب مما كنا نتحدث به ؟ .

ـ أعنى حبنا ! .

ـ حبنا ؟ .

ـ نعم وأنت تعلمين ! .

وساد الصمت مليا حتى غضت عينيها متسائلة :

ـ ماذا تريد ؟ .

ـ قولى اننا نريد شيئا واحدا ! .

قالت كأنما لتطيعه فحسب :

ـ نعم ، ولكن ما هو ؟ .

ـ حسبنا لف ودوران ! .

كأنها تفكر ، فما أمر الانتظار على قصره . واذا بها تقول :

ـ ما دام كل شيء واضحا فلم تعذبنى ؟ .

فتنهد فى ارتياح عميق وقال :

ـ ما أبهج حبى ! .

وساد الصمت مرة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة . ثم قالت :

ـ يهمنى شيء واحد ! .

ـ أفندم ؟ .

ـ كرامتى ! .

فقال كالمنزعج :

ـ هى وكرامتى شيء واحد ! .

فقالت بامتعاض :

ـ انت أدرى بتقاليد اناسك !. ستسمع كثيراً عن الأصل والفصل .

ـ كلام فارغ ، أتظنينى طفلا ؟ .

وترددت قليلا ثم قالت :

ـ لا يهددنا الا شيء واحد هو « العقلية البورجوازية » ! .

فقال بقوة جعلته فى تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم :

ـ لست منها فى شيء ! .

ـ هل تدرك مدى خطورة قولك ؟ .. لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة فى صميمها الشخصى والاجتماعى ! .

ـ مفهوم جدا ..

ـ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل : حب ، زواج ، غيرة ، الوفاء ، الماضى ... !

ـ نعم ! .

قد يعنى هذا لا شيء ، وقد يعنى كل شيء ، وكم من مرة خطرت له

افكار ، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة ، ما هو الا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعا ، امتحان رهيب ، وقد خيل اليه أنه ادرك ما تعنى ، ولعل الأمر لا يعدو أنها تمتحنه ، ولكن حتى لو كان الذى أدركه فلن يتراجع ، لقد اعتراه الم ودبت فى أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع ..

ــ انى مسلم بما تعنين ، ولكن دعينى أصارحك باننى كنت آمل أن احظى بفتاة عاطفية لا بفكر محاسب مدقق ! .

فتساءلت وعيناها تتابعان البط السابح :

ــ لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك ؟!

ــ نعم ! .

ضاحكة ...

ــ وهل ترانى كنت ادخل فى التفاصيل مالم اكن موافقة على المبدأ ؟.

فضغط على راحتها فى رقة ، فعادت تقول :

ــ وأنت تعرف كل شيء ، ولكنك تود سماعه ! .

ــ ولا امل سماعه ! .

- ٤٤ -

ــ انها سمعة اسرتنا جميعا ، وهو على اى حال ابنكم ، وأنتم بعد ذلك احرار فيما ترون !.

كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه الى وجه ، من زوجها ابراهيم الذى جلس الى يمينها الى ابنها أحمد فى الناحية المقابلة من الصالة ، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم .

وقال احمد مداعبا وهو يقلد لهجتها :

ــ انتبهوا جميعا ، انها سمعة اسرة ، وانا على اى حال ابنكم ! .

قالت له بصوت متشنك مليء بالمرارة :

ــ ما هذا البلاء يا ابنى ، أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك ، وتأبى المشورة ولوكانت فى صالحك ، دائما انت على صواب والناس جميعا على خطأ ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهديه . رفضت أن تدخل الحقوق

كأخيك قلنـا المستقبل بيد الله . قلت اشـتغل جورنالجى قلنا اشتغل عربجى ! . .

فقال باسما :

— والآن أريد أن أتزوج ! . .

— تزوج ، كلنا يسر لهذا ، ولكن الزواج له شروط ! .

— ومن يضع شروطه ؟ .

— العقل السليم ! .

— عقلى اختار لى . .

— ألم تثبت لك الأيام بعد انه لا يصح الاعتماد على عقلك وحده ؟ ! .

— أبدا ، والمشورة جائزة فى كل شيء الا الزواج فهو كالطعـام سواء بسـواء ! . .

— الطعام ! . أنت لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من اسرتها كلها ، ونحن — أهلك — نتزوج بالتبعية معك ! .

فضحك احمد ضحكة عالية وقال :

— كلكم ! . هـذا أكثر مما يحتمـل ، خالى كمال لا يريد أن يتزوج ، وخالى ياسين يود لو يتزوجها وحده . .

وضحكوا جميعا الا خديجـة ، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك :

— اذا كان فى هذا فض المشكلة فأنا على أتم استعداد للتضحية . .!

فهتفت خديجة :

— اضحكوا ، انه يتشـجع بضحككم ، خير من ذلك أن تصـارحوه بآرائكم ، ما رأيكم فيمن يرغب فى الزواج من « كريمة » عامل المطبعة التى يعمل بمجلتها ؟ . انه يعز علينا أن تعمل بالمجلة «جورنلجى» فكيف وانت تريد أن تصاهر عمالها ! . أليس لك رأى يا سى ابراهيم ؟ .

فرفع ابراهيم شوكت حاجبيـه كأنما يريد أن يقول شـيئا ، ولكنه سكت ، فعادت تقول :

— لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلىء بيتك ليلة الزفاف بعمال المطبعة والعنابر والحوذية ، والله أعلم بما خفى ! .

فقال احمد بتأثر :

— لا تتكلمى هكذا عن أهلى ! .

ـ يا رب السماوات ، أتنكر أن هؤلاء هم أهلها ؟ .
ـ سأتزوجها هي وحدها ، انى لا اتزوج بالجملة . .
فقال ابراهيم شوكت فى ضجر :
ـ لن تتزوجها وحدها ، الله يتعبك كما تتعبنا !.
فقالت خديجة متشجعة بمعارضة زوجها :
ـ ذهبت لزيارة بيتها كما تقضى العادة ، قلت أرى عروس ابنى ، فوجدتهم يقيمون فى بدروم فى شارع كله يهود على الصفين ، وامها لا تفترق فى هيئتها عن الخادمات المحترفات ، والعروس نفسها لايقل عمرها عن ثلاثين عاما ، اى والله ، ولو كان بها ذرة من جمال لعذرته ، لماذا يريد أن يتزوجها ؟ . انه مسحور ، سحرته بحيلة ، انها تعمل معه فى المجلة المشئومة ، لعلها غافلته فوضعت له شيئا فى القهوة أو الماء ، اذهبوا وشوفوها واحكموا ، انا غلبت ، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزنى واسفى . . .
ـ انك تغضبيننى ، لن اغفر لك كلامك هذا ! .
ـ العفو ! . العفو يا سيد الملاح ! . الحق على ، انا طول عمرى عيابة فرمانى ربنا فى أولادى بكل العيوب ، استغفر الله العظيم . .
ـ مهما تقولت عنهم فليس فيهم من يرمى الناس بالباطل . . مثلك !.
ـ بكره يا ما تسمع ، ويا ما تعرف ، سامحك الله على اهانتى . .
ـ انت التى اهنتنى بما فيه الكفاية ! .
ـ انها تطمع فى مالك ، ولولا خيبتك ما طمعت فى احسن من بياع جرائد . . .
ـ انها محررة فى المجلة برتب ضعف مرتبى . . .
ـ جورنالجية هى الأخرى ! . ما شاء الله ، وهل تتوظف الا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة ! .
ـ سامحك الله . . .
ـ فليسامحك انت على ما تصب علينا من عذاب !.
وهنا قال ياسين الذى كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه :
ـ اسمعى يا اختى ، لا داعى للنقار ، سنصارح احمد بما ينبغى قوله ولكن لا جدوى من الشجار . .

ونهض أحمد كالغاضب وهو يقول :

ــ عن اذنكم ، سأرتدى ملابسى لأذهب الى عملى . .

ولما ذهب انتقل ياسين الى جانب اخته ومال عليها قائلا :

ــ لن يفيدك الشجار شيئا ، نحن لا نحكم ابناءنا ، انهم يرون انفسهم خيرا منا واذكى ، اذا كان لابد من الزواج فليتزوج ، فان سعد كان بها والا فهو المسئول عن نفسه ، أنا لم يستقر بى بيت الا بزنوبة كما تعلمين !. فعسى أن يكون الخير فيما اختار ، ثم اننا لانعقل بالكلام ولكن بالتجارب .

ثم مستدركا وهو يضحك :

ــ ولو انه لا الكلام ولا التجارب عقلتنى ! .

وعلق كمال على قول ياسين قائلا :

ــ الحق فيما قال أخى . .

فحدجته بنظرة عتاب قائلة :

ــ أهذا كل ما عندك يا كمال ؟ . انه يحبك فلو انك حدثته على انفراد . . .

فقال كمال :

ــ انى خارج معه وسأحدثه ، ولكن كفى عن الشجار ، انه رجل حر ، ومن حقه أن يتزوج ممن يشاء ، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته ؟.

وقال ياسين باسما :

ــ الأمر بسيط يا أختى ، يتزوج اليوم ويطلق غدا ، نحن مسلمون لا كاثوليك . . .

فضيقت عينيها الصغيرتين وقالت بفم شبه مغلق :

ــ طبعا ، من محام غيرك يدافع عنه ؟. صدق من قال أن الولد لخاله ؟.

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

ــ الله يسامحك ، لو ترك النساء تحت رحمة حكم النساء لما تزوجت امرأة قط ! .

فأشارت الى زوجها وقالت :

ــ أمه الله يرحمها هى التى اختارتنى بنفسها ! .

فقال ابراهيم وهو يتنهد باسما :

ــ ودفعت الثمن ، الله يرحمها ويعفو عنها ! .

ولكنها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة :

ــ لو كانت جميلة ! . . انه اعمى ! .

فقال ابراهيم ضاحكا :

ــ مثل أبيه ! .

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت :

ــ انت جاحد كجنس الرجال ! .

فقال الرجل بهدوء :

ــ بل نحن صابرون ولنا الجنة . .

فصاحت به : .

ــ اذا كنت ستدخلها فبفضلى أنا التى علمتك دينك ! .

* * *

غادر كمال واحمد السكرية معا . وكان يقف من مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد . انه لا يمكن أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة ، أو بالفتور حيال مبادىء المساواة والانسانية ، ومع ذلك فالواقع الاجتماعى الذى لا يد له فى بشاعته حقيقة واقعة لا يجوز أن يتجاهلها انسان . وقديما ولع عهدا بقمر بنت أبى سريع صاحب المقلى ، فكادت ــ رغم جاذبيتها ــ تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة . غير انه كان رغم هذا كله معجبا بالشاب ، غابطا له شجاعته وقوة ارادته وغيرهما من المزايا التى حرم هو منها وعلى رأسها الإيمان والعمل والزواج ، كأنما قد بعث فى الأسرة كفارة عن جموده وسلبيته . ما الذى يجعل للزواج هذه الخطورة فى نظره بينا هو فى نظر الآخرين لا يزيد عن السلام عليكم . . وعليكم السلام ؟ !

ــ الى أين يا فتى ؟

ــ المجلة يا خالى ، وانت ؟

ــ مجلة الفكر لأقابل رياض قلدس ، الا تفكر قليلا قبل أن تخطو هذه الخطوة ؟

ــ اى خطوة يا خالى ! ، لقد تزوجت بالفعل !

ــ حقا ؟

ــ حقا ، وسوف اقيم فى الدور الأول من بيتنا نظرا لأزمة المساكن . .

ــ يا له من تحد سافر !

ـ نعم ، ولكنها لن توجد فى البيت الا حين تكون أمى قد نامت ..
وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله باسما :
ـ وهل تزوجت على سنة الله ورسوله ؟
فضحك احمد أيضا وقال :
ـ طبعا ، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم ، أما الحياة فعلى دين ماركس !
ثم وهو يودعه :
ـ خالى ، ستعجبك جدا ، سترى وتحكم بنفسك ، انها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة ..

- ٤٥ -

يا لها من حيرة ، كأنها مرض مزمن ، فكل أمر يبدو ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الإختيار ، تستوى فى ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة اليومية ، فازاء كل تعترض الحيرة والتردد. أيتزوج أم لا ؟ ، كان ينبغى أن يقطع برأى ، لكنه يدور حول نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح والعقل والحواس ثم تنجلى الدوامة عن موقف لم يتغير وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو : أيتزوج أم لا . قد يضيق أحيانا بحريته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو يضجر من معاشرة الأشباح الفكرية الخاوية فيحن الى الأليف وتئن فى محبسه غرائز الأسرة والحب تروم متنفسا ، ثم يتخيل نفسه زوجا قد برأ من التركيز فى ذاته وتبددت أوهامه لكنه فنى فى الوقت نفسه فى الأبناء واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة اليومية فينزعج أيما انزعاج ويقرر الاستمساك بانطلاقه مهما تجشم من وحشة وعذاب ، بيد انه لا ينعم بالاستقرار طويلا فلا يلبث أن يعود الى التساؤل كرة أخرى ، وهكذا وهكذا ، فأين المقر ؟ . وبدور فتاة ممتازة حقا ، لا يعيبها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد ولدت وشبت فى جنة الملائكة التى شغفت قلبه قديما ، فهى كالشهاب الساقط ، وهى فتاة ممتازة حقا فى حسنها وخلقها وثقافتها ، ثم انها ليست عسيرة المنال فهى الزوجة الواعدة بكل

معنى الكلمة اذا اراد أن يتقدم ، وماعليه الاان يتقدم . والى هذا كله فهو لايسعه الا ان يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه ، فهي آخر مايودع من اطياف الحياة قبل النوم وهي أول مايستقبل من اطيافها عند الاستيقاظ، ثم لاتكاد تغادر خياله طوال يومه ، وما ان يحظى برؤيتها البصر حتى يخفق الفؤاد مرددا انغاما شجية من أوتار علاها الصدأ ، ثم ان دنياه لم تبق كما كانت ، دنيا حيرة وعذاب ووحشة ، داخلتها نسائم وجرى فيها ماء الحياة ، فان لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون ؟ ! . وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل ، يقطعه على مهل ، مسددا عينيه الى الشرفة حتى تلتقي بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين ، وقد بدأ ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كانما من عمد ، فما يجيء ميعاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرح الطرف ، فأيقن أنها تنتظره ، اذ لو شاءت ان تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك الا تجنب الشرفة دقائق كل أصيل ، ولكن ماذا تظن بسروره وابتسامه وتحيته ؟ ! . لكن مهلا ، ان الغرائز لا تخطيء ، كلاهما يود أن يلقى صاحبه ، وقد استخفه لذلك الطرب واسكره السرور ، وملأه احساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل ، غير ان هذا الهناء كله لم يمض دون قلق يشوبه ، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم ، ولم يتضح له سبيل ، ولكن تيارا جرفه فاستسلم له لا يدري كيف مجراه ولا اين مرساه ! . قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر امره ولكن فرحة الحياة صدته في اشفاق ، فثمل سرورا دون ان يخلو من قلق . وقال له رياض : اقدم فهذه فرصتك ، ورياض منذ ان لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الانسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة ، فيقول مزهوا أنه سيقتحم هذه التجربة الفريدة غير هياب فيتاح له ان يفهم الحياة فهماً جديدا صادقا ومن ثم يفتح ابواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال . أليست هذه هي الحياة ايها الفيلسوف السابح فوق الحياة ؟ ، فأجابه متهربا : أنت اليوم خصم فانت آخر من يصلح حكما وسوف أفتقد فيك المشير الصادق ! . وبدا له الحب من ناحية اخرى « دكتاتورا » وقد علمته الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه ، ففي بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكان ما كان

لم يكن ، اما هذه الفتاة المستكنة فى حياتها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعا الى الأبد ، ولن يجد من شعار يأتم به بعد ذلك الا الكفاح المرير فى سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء ، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلائل مجرد وسيلة لتحصيل « الرزق » ، وقد يكون الفقير الهندى سخيفا أو مجنونا ولكنه احكم الف مرة من الغارق حتى اذنيه فى سبيل الرزق ، فانعم بالحب الذى كنت تفتقده وتتحسر عليه .. ها هو يبعث حيا فى فؤادك جارا وراءه المتاعب ! . وقال له رياض : « امن المعقول أن تحبها وأن يكون فى وسعك ان تتزوجها .. ثم تمتنع عن زواجها ؟ » ، فاجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج ! ، فقال له محتجا : « ان الحب هو الذى يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فانت لا تحب الفتاة ! » فأجابه باصرار : « بل أحبها واكره الزواج ! » ، فقال : « لعلك تخاف المسئولية » ، فاجابه محتدا : « انى احمل من اعباء المسئولية فى بيتى وفى عملى ما لا تحمل بعضه » ، فقال : « لعلك انانى اكثر مما اتصور » ، فقال ساخرا : « وهل يتزوج الفرد الا مدفوعا بانانيته الظاهرة أو الخفية ؟ » ، فقال باسما : « لعلك مريض فاذهب الى دكتور نفسانى لعله يحللك » ، فقال له : « من الطريف ان مقالتى القادمة فى مجلة الفكر عن : « كيف تحلل نفسك » ، فقال له : « اشهد لقد حيرتنى » ، فقال : « انا الحائر الى الأبد » .

ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف فى طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت . عرفها من أول نظرة رغم انه لم يرها منذ سبعة عشر عاما على الأقل . ولم تكن « الهانم » التى عرفها قديما . ذبلت ذبولا محزنا وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن فى وسع انسان أن يتصور ان هذه المرأة الساعية فى هزالها هى نفس الهانم التى كانت تخطر فى حديقة القصر فى نهاية من الجمال والكمال !. ورغم هذا كله فقد ذكرته هيأة راسها بعايدة فقطع قلبه منظرها ، وكان من حسن الحظ انه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها والا ما استطاع أن يبتسم . ثم ما يدرى الا وهو يتذكر عائشة ! ، ثم يذكر كيف اثارت عاصفة من النكد هذا الصباح فى البيت وهى تبحث عن طاقم اسنانها التى انسيت أين أودعته قبل نومها . وأول أمس رأى بدور واقفة فى الشرفة على غير عادتها ثم تبين إنها متهيئة للخروج ! . وتساءل ترى

تخرج وحدها ؟. وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى فى سبيله متمهلا متفكرا . حقا لو جاءت وحدها فانما تجىء له . هذا الظفر المسكر لعله يغسل اهانة حلت منذ سنين !. ولكن هل كانت عايدة تفعل هذا ولو انشق القمر ؟!. وعند ما بلغ منتصف الطريق التفت الى الوراء فرآها قادمة .. وحدها !. وخيل اليه أن خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران . وسرعان ما شعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض جوانب نفسه الى الهروب !. كان تبادل الابتسام قبل ذلك لهوا عاطفيا بريئا أما اللقاء فسيكون له شأن وأى شأن . هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم فى الاختيار . ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدا من التروى !. ولكنه لم يهرب ، وتقدم فى خطاه المتمهلة كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق الى شارع الجلال ، وفى التفاتة منه التقت عيناهما فى ابتسامة ، فقال :

ــ مساء الخير ...

ــ مساء الخير ..

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد :

ــ الى أين ؟

ــ عند واحدة صاحبتى ، هناك فى هذا الاتجاه ..

وأشارت صوب شارع الملكة نازلى ، فقال فى استهتار :

ــ انه طريقى فهل تسمحين بأن نسير معا .. ؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ــ تفضل ..

وسارا جنبا الى جنب . انها لم تتحل بهذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبتها ولكن لتقابله هو ، وها هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان ، ولكن كيف يكون مسلكه ؟ ، لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيىء له فرصة مواتية فاما ينتهزها اكراما لها واما يتجاهلها فيفقدها الى الأبد ، هى كلمة قد تقال فيتورط قائلها مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر ، هكذا دفع الى مأزق وهو لا يدرى ، وها هو الطريق يطوى ولعلها تترقب ، وهى تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست من آل شداد ، أجل ليست من آل شداد فى شىء ، لقد انتهى

آل شداد وولى زمانهم ، وليست التى تسايرك الا فتاة سيئة الحظ . والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقة :

ـ فرصة سعيدة !

ـ شكرا !

ثم ماذا ؟!، يبدو انها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته ، وها هى نهاية الطريق تقترب ، يجب ان يقطع برأى فاما التورط وأما الوداع ، لعلهـا لا تتصور أبدا أن يفترقا ببساطة ، ولو كلمة واحدة ، وها المفترق على بعد خطوات ، انه يشعر شـعورا مؤلما بمدى الخيبة التى ستمنى بها ، ويأبى لسانه ان ينطق ، أم يتكلم وليكن ما يكون ؟!. وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسـامة مرتبكة كأنما تقـول آن لنـا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته . ثم مدت يدها ، فتلقاها بيده ، وصمت فترة رهيبة، ثم غمغم :

ـ مع السلامة !

واستردت يدها ثم مالت الى عطفة جانبية . وأوشك ان يناديها . ان ذهابها متعثرة بالخيبة والخجل كابوس لا يحتمل . وانت أدرى بهذه المواقف التعيسة . غير أن لسانه انعقد . فيم كانت متابعته لها طوال الشهرين الماضيين ؟. أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها ؟. أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية التى عاملتك بها اختها ؟. وأنت تحبها ؟!. وهل تلقى من ليلتها ما لقيت من ليلتك التى خلفتهـا وراءك كالجمرة المتقدة تضىء فى غياهب الماضى بالألم المنصهر ؟!.

وواصل سيره وهو يتسـاءل ترى أيريد حقا أن يبقى اعـزب لكى يكون فيلسوفا أم أنه يدعى الفلسفة ليبقى اعزب ؟. وقال له رياض هذا شىء لا يصدق ولسوف تندم ! ، وهو شىء لا يصـدق حقا ولكن هل يندم أيضا ؟. وقال له كيف هان عليك أن تقطعها وقدكنت تتحدث عنها وكأنها فتـاة أحلامك ؟ ، ليست فتاة أحلامه .. ان فتاة احلامه لم تكن لتسعى اليه أبدا . واخيرا قال له انك فى نهاية السادسة والثلاثين من عمـرك ولن تكون بعد ذلك صـالحا للزواج ، فامتعض لقوله وداخلته كآبة ...

- ٤٦ -

جاءت كريمة الى السكرية فى حلة العرس فى عربة مع والديها واخيها . وكان فى استقبالهم ابراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال . ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف الا طاقات الورد التى طوقت الصالة ، اما المنظرة فقد امتلأت بذوى اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ على المنوفى . ومع انه كان قد مر عام ونصف عام على وفاة السيد الا أن امينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد . أما عائشة فانها عند ما دعتها خديجة الى شهود الدخلة الصامتة هزت راسها عجبا وقالت بلهجة عصبية :

ـ انا لا أشهد الا المآتم !

وقد تألمت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلى بالحلم المثالى حيال عائشة . وقد جهز الدور الثانى بالسكرية للمرة الثانية باثاث العرس ، وجهز ياسين ابنته كما ينبغى وباع فى سبيل ذلك آخر املاكه فلم يعد يبقى له الا بيت قصر الشوق . وبدت كريمة آية فى الجمال ، وقد شابهت امها فى عهدها الزاهر خاصة فى عينيها الدائمتين ، ولم تكن بلغت سن الزواج الا فى الأسبوع الماضى من إكتوبر . ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغى لأم العريس ، وقد أنتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالت على اذنه قائلة :

ـ على أى حال فهى ابنة ياسين ، ومهما يكن من أمر فهى خير الف مرة من عروس المنابر !

وقد مد بوفيه صغير فى حجرة السفرة للأسرة ، ومد آخر فى الفناء لمدعوى عبد المنعم من ذوى اللحى . ولم يكن يتميز عنهم اذ ارسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك :

ـ الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التى تبدو فيها مثل محمد العجمى بياع الكسكسى ؟ !

وجلس افراد الأسرة فى حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذى جالس اصحابه ، واحمد الذى شاركه الترحيب بهم بعض الوقت ، ثم

انفتل الى حجرة الاستقبال حيث انضم الى أهله وهو يقول باسما :

ـ تراجعت المنظرة فى الزمان ألف عام !

فسأله كمال :

ـ فيم يتحادثون ؟

ـ عن معركة العلمين ، وقد ارتجت جدران المنظرة بأصواتهم !

ـ وكيف شعورهم حيال انتصار الانجليز ؟

ـ الغضب طبعا ، انهم اعداء الانجليز والألمان والروس جميعا ، وهكذا لم يرحموا العريس حتى فى ليلة زفافه . .

وكان ياسين جالسا الى جانب زنوبة ، يبدو فى زينته كأنما يصغرها بعشرة أعوام ، فقال :

ـ فليأكلوا بعضهم البعض بعيدا عنا ، من رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب . .

فقالت خديجة باسمة :

ـ لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك !

ورمقت زنوبة بنظرة ماكرة حتى ضحك الجميع ، وكان قد ذاع فى الايام القريبة الماضية أن ياسين غازل ساكنة جديدة فى بيته ، وان زنوبة ضبطته متلبسا او كالمتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها الى اخلاء الشقة . فقال ياسين يدارى ارتباكه :

ـ كيف أفرغ لمزاجى وبيتى محكوم بالأحكام العرفية !

فقالت زنوبة فى امتعاض :

ـ هلا استحييت أمام بنتك ؟

فقال ياسين فى توسل :

ـ انى برىء والجارة المسكينة مظلومة !

ـ انا الظالمة ! ، أنا التى ضبطت وأنا اطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بانى ضللت سبيلى فى الظلام ! ، هه ؟ ، اربعون عاما فى البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك ؟ !

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة فى تهكم :

ـ انه كثير الخطأ فى الظلام !

ـ وفى النور على السواء . .

واذا بابراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلا :

ـ وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد افندى حسن ؟

فقال ياسين مصححا :

ـ محمد افندى زفت !

وأجاب رضوان حانقا :

ـ انه ينعم الآن بثروة جدى التى آلت الى أمى !

وقال ياسين محتجا :

ـ ميراث لا يستهان به ، وكلما قصدها رضوان فى معونة للترفيه أو خلافه تصدى له الصفيق وناقشه الحساب !

فقالت خديجة مخاطبة رضوان :

ـ انها لم تنجب غيرك ، وخير لها ان تمتعك بمالك فى حياتها ..

ثم مستدركة :

ـ وقد آن لك أن تتزوج ، اليس كذلك ؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثم قال :

ـ عند ما يتزوج عمى كمال !

ـ لقد يئست من عمك كمال ولكن لا ينبغى أن تقلده ..

واصغى كمال لما يدور حوله بامتعاض وان لم يبد اثره فى وجهه . لقد يئست منه ويئس هو من نفسه . وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلنا بذلك شعوره بذنبه ، غير انه كان يقف عند طرف المحطة ليراها فى شرفتها من حيث لا تراه . لم يستطع ان يقاوم رغبته فى رؤيتها ، ولا أن ينكر حبه لها ، أو يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها ! ، حتى قال له رياض انك مريض وتأبى أن تبرأ !.

وسأل احمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى :

ـ أكان محمد حسن يناقشك الحساب لو كان السعديون فى الحكم ؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال :

ـ انه ليس الوحيد الذى يناقشنى الحساب اليوم ، ولكن صبرا ، ان هى الا ايام او اسابيع .

فسألته سوسن حماد :

ـ اتظن ان ايام الوفد معدودة كما يشيع خصومه ؟

ـ أيامه رهن بمشيئة الانجليز ، وعلى اى حال فلن تطول الحرب الى الأبد .. ، ثم يجىء وقت الحساب !

فقالت سوسن فى جد ظاهر :

ـ المسئول الأول عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشست لطعن الانجليز من الخلف . .

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة ، متعجبة من « استرجالها » فى الحديث ، فما تمالكت أن قالت :

ـ المفروض أننا فى فرح ، تكلموا فى أمور مناسبة !

ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام ، على حين تبادل احمد وكمال نظرة باسمة ، أما ابراهيم شوكت فقال ضاحكا :

ـ عذرهم ان افراحنا لم تعد افراحا ! ، الله يرحم السيد احمد ويسكنه فسيح جناته . .

فقال ياسين متحسرا :

ـ تزوجت ثلاث مرات ولكننى لم أزف مرة واحدة !

فقالت زنوبة بانتقاد مر :

ـ أتذكر نفسك وتنسى بنتك ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـ نزف فى الرابعة ان شاء الله . .

فقالت زنوبة فى تهكم :

ـ أجلها حتى تزف رضوان !

فغضب رضوان دون ان ينبس . لعنة الله عليكم جميعا وعلى الزواج أيضا ، الا تدركون اننى لن اتزوج ابدا ! ، واننى اود لو اقتل من يفاتحنى بهذه السيرة اللعينة . وعقب صمت قصير قال ياسين :

ـ ليتنى ابقى فى بوفيه السيدات حتى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفوننى !

فادركته زنوبة قائلة :

ـ لو عرفوا سيرتك لرجموك !

فقال احمد ساخرا :

ـ ستخوض لحاهم فى الصحاف ، وتكون معركة ، وخالى كمال هل يحب الاخوان ؟

فقال كمال باسما :

ـ أحب منهم واحدا على الاقل !

والتفتت سوسن الى العروس الصامتة وسألتها بمودة :

- وما رأى كريمة فى لحية زوجها ؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحنى رأسها المتوج ولم تتكلم ، فأجابت عنها زنوبة قائلة :

- قليل من الشبان من هم فى تدين عبد المنعم ..

فقالت خديجة :

- يعجبنى تدينه ، هذا خلق فى دم اسرتنا ، ولكن لاتعجبنى لحيته ..

فقالت ابراهيم شوكت ضاحكا :

- اعترف بأن ابنى - المؤمن والمارق على السواء - مجنونان ! .

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

- الجنون خلق فى دم أسرتنا أيضا ! .

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعاجلها قائلا قبل أن تنبس :

- أعنى اننى مجنون ، وأظن كمال أيضا مجنون ، وان شئت فأنا المجنون وحدى ! .

- هذا هو الحق دون زيادة .

- وهل من العقل أن يقضى انسان على نفسه بالعزوبة ليتفرغ القراءة والكتابة ؟ .

- سيتزوج عاجلا أو آجلا ويكون سيد العقلاء .

فسأل رضوان عمه كمال قائلا :

- لم لم تتزوج يا عمى ؟ . أريد أن أقف فى الاقل على وجه اعتراضك لادافع به عن نفسى حين الضرورة ! .

فقال له ياسين :

- أتنوى الاضراب عن الزواج ؟ . لن اسمح بهذا ماحييت ، ولكن انتظر حتى تعودوا الى الحكم ثم تزوج زواجا سياسيا رائعا ! .

أما كمال فقال له :

- اذا لم يكن عندك مانع فتزوج فى الحال ..

هذا الشاب ما أجمله !. وهو مرشح للجاه والمال !. لو رأته عايدة فى زمانها لعشقته ، ولو القى نظرة عابرة على بدور لشغفها حبا ، أما هو فيدور على نفسه والدنيا كلها تتقدم ، ولا يزال يتساءل : أتزوج أم لا أتزوج !. والحياة تبدو حيرة مطلقة ، فلاهى فرصة سانحة ولاهى فرصة

ضائعة ، والحب عشـــير طبعه الخصام والعـذاب ، فليتها تتزوج حتى يخلص من حيرته وعذابه ! .

واذا بعبد المنعم يدخل عليهم تتقدمه لحيته وهو يقول :

ــ تفضلوا الى البوفيه ، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة ..

— ٤٧ —

كان كمال يسير متسكعا فى شارع فؤاد الأول ، وكانت السـاعة تدور فى العاشرة من صباح الجمعة فلقى طريقا غاصا بالمارة والواقفين ، نساء ورجالا . وكان الجو لطيفا كاكثر أيام نوفمبر ، يغرى بالمشى ، وقد الف ان يتخفف من عزلته القلبية بالاندساس بين الناس فى يوم عطلته ، فيمضى على وجهه بلا غاية ، متسليا بمشاهدة الناس والأشياء . وصادفه فى طريقه اكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيوه برفع أيديهم الى رءوسهم فرد تحياتهم باحسن منها باسما . ما اكثر تلاميـــذه ! . منهم من توظف ، ومنهم من لا يزال بالجامعة ، وغالبيتهم بين الابتـــدائى والثانوى ، فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاما . وكان منظره التقليدى لا يكاد يتغير ، البدلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ ، حتى درجته السادسة لم تتغير أربعة عشر عاما رغم مايشاع عن تفكير الوفد فى انصاف الهيئات المظلومة ، شىء واحد تغير هو رأسه الذى انتشر المشيب فى سوالفه . وبدا سعيدا بتحيات تلاميذه الذين يحبونه ويحترمونه ، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرسين ، ظفر هو بها رغم رأسه وانفه ، وبالرغم مما اعترى تلاميذ هذه الأيام من شيطنة وجموح !

وعند ما بلغ به تسكعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأول ما يدرى الا وبدور تطالعه وجها لوجه . وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الانذار ، وجمد بصره لحظات ، ثم هم بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج ، غير انها حولت عنه عينيها فى تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثم مرقت من جانبه ، وعند ذاك فحسب رأى انهـا تتأبط ذراع شاب تسير فى صحبته ! . وتوقف عن المسير ، ثم اتبعهما ناظريه ، أجل هى بدور ، فى

معطف أسود أنيق ، وهذا صاحبها فى مثل أناقتها ولعله لم يبلغ الثلاثين بعد . وبذل جهدا صادقا ليتمالك نفسه التى هزتها المفاجأة ثم تساءل فى اهتمام من يكون هذا الشاب ؟. ليس أخا لها ، ولا هو بالعاشق اذ أن العشاق لا يجاهرون بحبهم فى شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة ، فهل يكون . . .!؟. وتتابعت دقات قلبه فى اشفاق ، ثم تبعهما دون تردد ، وعيناه لا تفارقهما ، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تتماه . ورآهما يتوقفان أمام معرض محل لبيع الحقائب فدنا منهما متباطئا ، مصوبا عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقر بصره على الخاتم الذهبى !. ولفحه احساس حار كأنه مزيج من الألم العميق والارتياح العميق. وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة اشهر ، فهل كان هذا الشاب يرصده فى نهاية الطريق ليحل محله ؟ . وما ينبغى أن يدهش فان أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأسا على عقب . ووقف أمام محل لعب على بعد يسير من موقفهما ، يلحظهما وكأنه يتفرج على اللعب . انها اليوم تبدو أجمل مما كانت فى أى يوم مضى ، كالعروس بكل معنى الكلمة ! . ولكن ما هذا السواد الذى يشيع فى كافة ملابسها ؟ . ان سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك ؟ . .موضة أم حداد ؟ . أتكون أمها قد توفيت ؟ . ليس من عادته تصفح الوفيات فى الصحف ولكن ماذا يهمه من ذلك !. الذى يهمه حقا أن صفحة بدور قد انطوت فى كتاب حياته . انتهت بدور ، وعرف السؤال الحائر « أتزوج أم لا أتزوج » جوابه المحتوم !. فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب !. وكم تمنى لو تتزوج ليخلص من عذابه فها هى قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العذاب !. وخيل اليه أن انسانا لو ذبح لعانى مثل الاحساس الذى يعانيه فى موقفه . ان أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن موقفهما ، ويتجهان نحوه ، ومرا به فى سلام. وأتبعهما عينيه وهم بالسير فى اثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر ، ولبث أمام معرض اللعب ، ينظر ولا يرى شيئا. ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع ، وكانت تبتعد دون توقف ، تختفى تارة وراء المارة وتبدو تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم « وداعا » . ونفذ الى أعماقه شعور العذاب

مصحوبا بأنغام حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالا مماثلة ماضية ، دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتها المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفية مبهمة ! . شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهـــار . ثم اختفت عن ناظريه ، وربما اختفت الى الأبد ، كما اختفت أخت لها من قبل !. ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها ؟. لم يستطع ان يتفحصه وكم يود ان يفعل . وود — أن يكن موظفا — أن يكون من طبقة أدنى من طبقــة المعـلمين ! . ولـكن ما هذه الأفـكار الصبيانية !. انه لأمر مخجل . أما عن الألم فجدير بالخبير به أن يطمئن اذ انه عرف بالتجربة أن مصـيره — ككل شيء — الى الموت . وانتبه لأول مرة الى معرض اللعب الذى ينبسـط تحت عينيه . كان آية فى التنسيق والجمال ، حاويا لشتى فنون اللعب التى يهيم بها الأطفال ، من قطارات وسـيارات وأراجيح وادوات موسـيقية وبيوت وحدائق ، فانجذب الى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجرت عنها نفســه المعذبة حتى تشبثت به عيناه . لم يتح له فى طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاويا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان اشباعها . وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدراهم بها ؟ ، ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلا سـعيدا ؟ . لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة اليائسة التى تحلم بأن ترده طفلا مثل هذا الطفل الخشبى الذى يلعب فى هذه الحديقة الوهمية الجميلة ! ، انها رغبة سخيفة ومحزنة فى آن . ولعل الأطفال فى الأصل كائنات لا تحتمل ، ولعلهـا المهنة وحدها التى علمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم . ولـكن كيف كانت تكون الحيــاة لو رد الى الطفولة محتفظا فى ذات الوقت بعقله النامى وذاكرته ؟ ، فيعود الى اللعب فى بستان السطح بقلب عامر بذكريات عايدة ، أو يمضى الى العباسـية عام ١٩١٤ فيرى عايدة وهى تلعب فى الحديقة ويعرف فى الوقت نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده ! ، أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له ان الحرب ستقع عام ١٩٣٩ وانه سيقضى عليه عقب احدى غاراتها !. يا لها من أفكار سخيفة ولـكنها خير على أى حال من التركيز فى هذه الخيبة الجديدة التى ارتطم بها الآن فى شــارع فؤاد ، خير من التفكير فى بدور وخطيبها وموقفه منها . ولعل ثمة خطأ فى المـاضى يكفر عنه وهو

لا يدرى . كيف ومتى وقع هذا الخطأ ؟. لعله حادث عرض أو كلمة قيلت او موقف كابده ، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذى يعانى . يجب أن يعرف نفسه حتى يتيسر له ان يخلصها من آلامها ؛ فالمعركة لم تنته بعد ، والتسليم لم يقع ، وما ينبغى له أن يقع ، ولعله المسئول الأول عن ذلك التردد الجهنمى الذى انتهى به الى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبها !. وينبغى التفكير مرتين فى هذا العذاب المبطن بلذة غامضة ، أليس هو الذى ذاقه قديما فى صحراء العباسية وهو يتطلع الى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف ؟. فهل كان تردده حيال بدور حيلة لدفع نفسه الى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيثمل بعذابها ولذتها معا ؟ ! . يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة ان يعرف نفسه ، بل شخصه المفرد ، كمال افندى احمد ، بل كمال احمد ، بل كمال فقط ، حتى يتسنى له ان يخلقه من جديد . وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضى جيدا ، وستكون ليلة بلا نوم ، ولكنها ليست الأولى من نوعها ، فعنده منها ذخيرة يصح جمعها فى مؤلف واحد تحت عنوان « ليالى بلا نوم » . ولن يقول ان حياته عبث ، ففى النهاية سيخلف عظاما قد تصنع منها الأجيال القادمة آداة للهو !. اما بدور فقد ولت من حياته الى الأبد . يا لها من حقيقة مليئة بالشجن ، كاللحن الجنائزى . ولم تترك ذكرى حنان واحدة ، لا عناق ولا قبل ، حتى ولا لمسة أو كلمة طيبة. ولكنه لم يعد يخشى السهاد . فقديما كان يلقاه وحيدا ، أما اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب ، ثم يذهب الى عطية فى البيت الجديد بشارع محمد على ، ثم يواصلان أحاديثهما التى لاتنقضى . وفى آخر مرة قال لها بلسان أثقله السكر :

ــ كم يوافق احدنا الآخر ! .

فقالت له بسخرية مستسلمة :

ــ ما ألطفك فى سكرك . .

فاستطرد :

ــ ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا . .

فقالت مقطبة :

ــ لا تهزأ بى فقد كنت « سيدة » بكل معنى الكلمة . .

ــ نعم ، نعم ، انك الذ من الفاكهة فى ابانها . .

فقرصته هازئة وقالت :

ــ هذا قولك ولكننى اذا سألتك ريالا فوق ما تعطينى هربت !

ــ ان ما بيننا ليسمو فوق النقود !

فحدجته بنظرة احتجاج وقالت :

ــ ولكن لى طفلين يفضلان النقود على ما بيننا !

فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخرا :

ــ أنا افكر فى التوبة أسوة بالست جليلة ، ويوم يختارنى التصرف فسأنزل لك عن ثروتى !

فقالت ضاحكة :

ــ اذا وصلت التوبة اليك فقل علينا السلام . .

فضحك ضحكة عالية وقال :

ــ لا كانت التوبة المضرة بمثيلاتك !

الى هذا يفزع من السهاد ! . ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب . .

— ٤٨ —

تساءل خالو صاحب حانة النجمة :

ــ حقيقى يا حبيبى أنهم سيغلقون الخمارات ؟

فأجاب ياسين بثقة واطمئنان :

ــ لا سمح الله يا خالو ! ، من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية ، ومن عادة الحكومة أن تعد بالنظر فى تحقيق رغبات النواب فى أقرب فرصة ، ومن عادة هذه الفرصة الا تقترب ابدا . .

واستبقت جماعة ياسين بحانة محمد على الى المشاركة فى التعليق ، فقال رئيس المستخدمين :

ــ طول عمرهم يعدون باخراج الانجليز ، وبفتح جامعة جديدة ، وبتوسيع شارع الخليج ، فهل تم شىء من هذا يا خالو ؟

وقال عميد ذوى المعاشات :

ـ لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب خمرا زعافا من خمور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه ..

وقال المحامى :

ـ ومهما يكن من أمر ، فان حانات الشوارع الافرنجيــة لن تمس بسوء ، فما عليك يا خالو اذا وقع المحذور ، الا أن تسهم فى تاقرنا أو غيرها .. والخمار للخمار كالبنيان يشد بعضه بعضا !

وقال باشكاتب الأوقاف :

ـ اذا كان الانجليز قد دفعوا بدباباتهم الى عابدين لمســألة تافهة هى اعادة النحاس الى الحكم ، فهل تظنهم يسكتون عن اغلاق الخمارات ؟ !

وكان بالحجرة ـ الى جماعة ياسين ـ نفر من اهل البلد من التجار ، ولكن على الرغم من ذلك اقترح الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشىء من الغناء قائلا :

ـ هلموا نغنىّ « أسير العشق » ..

فبادر خالو بالعودة الى موقفه وراء الطاولة ، وراح الأصدقاء يغنون « أسير العشق يا ما يشوف هوان » . وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام فى أصواتهم حتى لاحت فى وجوه اهل البلد بسمات ساخرة . غير أن الغناء لم يستمر طويلا ، وكان ياسين أول المنسحبين ، ثم تبعه الآخرون فلم يتم الدور الا الباشــكاتب ، ثم ســـاد سكوت تقطعه من حين الى حين مصمصـــة أو تمطق أو يد تصــفق فى طلب كأس أو مزة . واذا بياسين يقول :

ـ أما من وسيلة ناجعة للحبل ؟

فقال الموظف العجوز كالمحتج :

ـ لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده !.. صبرك بالله يا أخى .

وقال باشكاتب الأوقاف :

ـ لا داعى الى الجزع يا ياسين افندى ، ومسير بنتك تحبل !

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء :

ـ انها عروسة كالوردة ، زينة السكرية ، ولـكنها أول فتاة فى أسرتنا يمر عليها عام على زواجها دون أن تحبل ، لهذا جزعت أمها !

ـ وابوها فيما يبدو !

فقال ياسين ضاحكا :

ـ اذا جزعت الزوجة جزع زوجها . .

ـ لويتذكر الانسان قرف الأولاد لكره الحبل !

ـ ولو ! ، الناس يتزوجون عادة لانجاب الذرية . .

ـ لهم حق ! ، لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد . .

فشرب ياسين كأسه وهو يقول :

ـ أخشى أن يكون ابن أختى من أتباع هذا الرأى . .

ـ بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهن فيستردوا شيئا من حريتهم المفقودة !

فقال ياسين :

ـ هيهات ، المرأة ترضع طفلا وتهدهد آخر ولكنها فى نفس الوقت تحملق فى زوجها ، أين كنت ؟ ، لماذا غبت الى هذه الساعة ؟ ، ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن يغيروا هذا النظام الكونى ؟

ـ ماذا منعهم ؟

ـ أزواجهم ! ، لم يدعن لهم فرصة للتفكير فى ذلك . . .

ـ اطمئن يا ياسين أفندى ، فان زوج بنتك لا يمكن أن ينسى فضل ابنك فى توظيفه . .

ـ كل شىء ينسى . . .

ثم ـ وهو يضحك ـ وقد دغدغت الخمر رأسه :

ـ ثم ان « المحروس » نفسه خارج الحكم الآن !

ـ آه ! ، والوفد سيعمر هذه المرة فيما يبدو . .

واذا بالمحامى يقول بلهجة خطابية :

ـ لو سارت الأمور سيرا طبيعيا فى مصر لحكم الوفد الى الأبد . .

فقال ياسين ضاحكا :

ـ هذا القول له وجاهته لولا خروج ابنى على الوفد !

ـ ولا تنسوا حادث القصاصين ! ، اذا مات الملك فقل على أعداء الوفد السلام !

ـ الملك بسلام !

ـ الأمير محمد على يعد بدلة التشريفة ! ، وهو منسجم مع الوفد طول عمره . .

ـ الجالس على العرش ـ أيا كان اسمه ـ هو عدو للوفد بحكم مركزه كالويسكي والحلوى لا يتفقان !

فقال ياسين وهو يضحك نشوة :

ـ لعل الحق معكم ، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة ، وانتم منكم من بلغ ارذل العمر ومنكم من يوشك أن يدركه !

ـ اسم الله عليك انت يابن السبعة والأربعين !

ـ على أى حال فأنا اصغركم سنا ...

ثم فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء ، واستطرد :

ـ ولكن العمر الحقيقى لا يقاس بالسنين ، ولكن بالنشوة ينبغى أن يقاس ، والخمر قد انحطت نوعا ومذاقا فى أيام الحرب ولكن نشوتها هى هى ، وعند الاستيقاظ صباحا يدق راسك الصداع فتفتح جفنيك بكماشة ثم تتجشأ كحولا ، غير انى اقول لكم انه فى سبيل النشوة يهون اى شىء ، ورب اخ يتساءل والصحة ؟ ، أجل لم تعد الصحة كما كانت ، وابن السبعة والأربعين غير مثيله فى الزمن الأول مما يدل على ان كل شىء قد غلا ثمنه فى الحرب الا العمر فلا ثمن له ، فى ألزمن الأول كان الرجل يتزوج فى الستين من عمره أما فى زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل اهل العلم عن الوصفات المقوية ، والعريس فى شهر العسل قد يوحل فى شبر ماء !

ـ الزمن الأول ! ، اهل الدنيا جميعا يسألون عنه !

فعاد ياسين يقول وقد اخذت أنغام السكر ترن فى أوتار صوته :

ـ الزمن الأول ، اللهم ارحم أبى ، شد ما ضربنى ليمنعنى من الاشتراك الدموى فى الثورة ! ، ولكن الذى لا ترهبه قنابل الانجليز يرهبه الزجر ! ، وفى قهوة احمد عبده كنا نجتمع لتدبير المظاهرات وقذف القنابل ...

ـ هذه الأسطوانة من جديد ! ، خبرنى يا ياسين افندى أكان وزنك أيام الجهاد كوزنك اليوم ؟

ـ وأثقل ، غير انى كنت حين الجد كالنحلة ، وفى يوم المعركة الكبرى سرت على راس المظاهرة انا واخى اول شهداء الحركة الوطنية ، فسمعت أزيز الرصاص وهو يمرق لصق اذنى ويستقر فى اخى ، يا للذكرى ! ، لو امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين !

ــ ولكن العمر امتد بك أنت !

ــ نعم ، ولكن ما كان بوسعى أن أكون وزيرا بالابتدائية ، ثم اننــا فى جهادنا توقعنا الموت لا المناصب ، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبوأ المناصب آخرون ، وفى جنازة اخى مشى سعد زغلول فقدمنى اليه زعيم الطلبة ، هذه ذكرى عظيمة اخرى !

ــ ولكن كيف وجدت ــ رغم جهادك ــ متسعا للعربدة والعشق ؟

ــ اسمعوا يا هوه ! ، وهؤلاء الجنــود الذين يضــاجعون النســاء فى الطرق اليســوا هم الذين ردوا رومل على أعقابه ؟ ! ، فالجهاد لا يكره الفرفشة ، والخمر لو علمتم روح من الفروسية ، والمجاهد والسكران اخوان يا أولى الألباب !

ــ وسعد زغلول الم يقل لك شيئا فى جنازة اخيك . . ؟

فأجاب عنه المحامى قائلا :

ــ قال له ليتك كنت الشهيد انت !

وضحكوا ، وكانوا فى هــذه الحال يضحكون أولا ثم يتســاءلون عن السبب ، وضحك معهم ياسين فى أريحية صافية ثم واصل حديثه قائلا :

ــ لم يقل هذا ، كان رحمه الله مؤدبا لا كحضرتك ، وكان ابن حظ أيضــا ، ولذلك كان واســع الآفاق ، فكان سياســيا ومجاهداً وأديبــا وفيلسوفا وقانونيا ، وكانت كلمة منه تحيى وتميت !

ــ الله يرحمه .

ــ ويرحم الجميــع ، كل ميت يستحق الرحمــة ، بحسبه أنه فقد الحياة ، حتى المومس وحتى القواد ، وحتى الأم التى كانت تبعث بابنها الى رفيقها ليعود اليها به . . .

ــ وهل يمكن أن توجد هذه الام ؟

ــ كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد فى الحياة !

ــ ألم تجد الا ابنها ؟

ــ ومن أرعى للأم من الابن ؟ ! ، ثم انكم جميعا أبناء المضاجعة !

ــ الشرعية !

ــ هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة ، وقد عرفت مومسات بائسات كان فراشهن يخلو من ضجيع اسبوعا أو أكثر ، دلونى على أم من أمهاتكم قضت مثل هذه الفترة بعيدا عن قرينها ؟

لا أعرف شعبا كالشعب المصرى ولعا بالخوض فى اعراض الأمهات !

ــ نحن شعب قليل الأدب !

فقال ياسين ضاحكا :

ــ ان الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى ، والشىء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، ولذلك فنحن غير مؤدبين ! ، ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك ، فالتوبة عادة ختامنا !

ــ ها أنا من ذوى المعاشات ولكننى لم أتب بعد !

ــ التوبة لا تخضع لكادر الموظفين . ثم انك لاتفعل شيئا ضارا ، انك تسكر ساعات كل ليلة وليس فى ذلك من بأس ، وسوف يمنعك عن السكر يوما المرض أو الطبيب وكلاهما شىء واحد ، ونحن بطبعنا ضعفاء ، ولولا ذلك ما الفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة الزوجية ، ونزداد بمرور الأيام ضعفا ولكن رغائبنا لا تقف عند حد ، هيهات ، فنتعذب ثم نسكر مرة أخرى ، ويشيب شعرنا فيفضح منا المستور واذا بصفيق يعترض سبيلك فى الطريق وهو يقول « عيب أن تطارد أمرأة وشعرك شايب ! » يا سبحان الله مالك انت اذا كنت شابا أم شيخا ، أتبع امرأة أم اتبع حمارة ! ، حتى تخال حينا ان الناس متآمرون مع زوجك عليك ، وهنالك الى ذلك كله الدلال بثقله والعسكرى بهراوته ، حتى الخادمة تتيه دلالا فى سوق الخضار ، وهكذا تجد نفسك فى عالم مشاكس لا صديق لك فيه الا الكاس ، ثم يجىء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون لك بكل بساطة « لا تشرب ! » . .

ــ ومع ذلك اتنكر أننا نحب الدنيا بكل قلوبنا ؟

ــ بكل قلوبنا ! ، والشر نفسه لايخلو من خير ، حتى الانجليز لايخلون من خير ، لقد عرفتهم يوما عن كثب وكان لى منهم أصدقاء على عهد الثورة !

فهتف المحامى :

ــ ولكنك كنت تجاهدهم . . أنسيت ؟ !

ــ نعم . . نعم ، لكل حال ما يناسبها ! ، وفى مرة ظنونى جاسوسا لولا أن سارع الى زعيم الطلبة فى اللحظة المناسبة فدل القوم على حقيقتى فهتفوا لى ، وكان ذلك فى جامع الحسين !

— يعيش ياسين .. يعيش ياسين ! ، ولكن ماذا كنت تفعل فى جامع الحسين ؟ !

— أجب ، هذه نقطة هامة جدا .. !

فضحك ياسين ثم قال :

— كنا نصلى الجمعة ، وكان من عادة أبى أن يأخذنا معه لصلاة الجمعة، ألا تصدقون ؟ ، سلوا أهل الحسين !

— كنت تصلى زلفى لأبيك ؟

— والله ، لا تسيئوا الظن بنا ، نحن أسرة دينية ، أجل كلنا سكيرون فاسقون ولكن فى النهاية تنتظرنا التوبة !

وهنا تأوه المحامى قائلا :

— ألا نعاود الغناء قليلا ؟

فبادره ياسين قائلا :

— أمس غادرت الحانة وأنا أغنى فاعترضنى شرطى وهتف بى محذرا « يا أفندى ! » ، فسألته « ألا يحق لى أن أغنى ؟ » ، فقال « ممنوع الزعق بعد الساعة ١٢ » ، فقلت محتجا « ولكننى أغنى ! » ، فقال بحدة « كله زعق أمام القانون » ، فسألته « والقنابل التى تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تعد زعقا ؟ » ، فقال مهددا « الظاهر أنك ترغب فى البيات فى القسم » ، فابتعدت عنه وأنا أقول « بل الأفضل أن أبيت فى البيت ! » ، كيف نكون أمة متحضرة والعساكر تحكمنا ؟ ! ، وفى البيت تلقى زوجك بالمرصاد ، وهنالك فى الوزارة رئيسك ، حتى فى التربة يستقبلك ملاكان بالهراوات ...

وعاد المحامى يقول :

— فلنمز بشىء من الغناء ...

فتنحنح عميد ذوى المعاشات ثم راح يترنم :

جوزى اتجوز عليه ولسه الحنه فى ايديه
يوم ماجه وجبها عليه دى نار ياناس وآدت فيه

وسرعان ما رددوا المطلع فى حماس همجى ، وكان ياسين يغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه ...

- ٤٩ -

كثيرا ما كانت تشعر خديجة بانها وحيدة . ومع أن ابراهيم شوكت ـ خاصة منذ أن قارب السبعين ـ كان يعتكف فى بيته طوال أيام الشتاء ، الا انه لم يستطع أن يبدد وحشتها . ولم تهن فى القيام بواجبات بيتها ، غير أنها ـ الواجبات ـ باتت أهون من أن تستغرق حيويتها ونشاطها ، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قوية نشيطة وازدادت جسامة . واسوأ من هذا أن وظيفتها كأم قد انقطعت على حين أن دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدا فيما بدا . فاحدى الزوجتين ابنة أخيها ، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقى بها الا فيما ندر من الأوقات والمناسبات . فكانت تروح عن صدرها المكبوت فيما يدور من حديث بينها وبين زوجها المتلفع بعباءته .

ـ مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نو قد شموعا !

فهز الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول :

ـ لعل عبد المنعم واحمد يعدان الذرية موضة قديمة كطاعة الوالدين !

فقال الرجل فى ضجر :

ـ اريحى نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا !

فتساءلت فى حدة :

ـ اذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها ؟

ـ لعل ابنيك يخالفانك فى هذا الرأى !

ـ لقد خالفانى فى كل شىء ، ما اضيع تعبى وأملى . .

ـ أيحزنك الا تكونى جدة ؟

فقالت فى حدة تعالت درجتها :

ـ أن حزنى عليهما لا على نفسى !

ـ لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره خيرا . . .

ـ أنفق المسكين كثيرا وسينفق غدا أكثر ، ان عرائس اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم !

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول :

ــ اما الأخرى فاستعين عليها بسيدى المتولى !
ــ اعترف بأن لسانها كالشهد !
ــ مكر ودهاء ، ماذا تتوقع من ابنة العنابر ؟
ــ اتقى الله يا شيخة !
ــ ترى متى يذهب بها « الأستاذ » الى الطبيب ؟
ــ انهما زاهدان فى هذا !
ــ طبعا ، انها موظفة ، فمن اين تجد وقتا للحبل والولادة ؟
ــ انهما سعيدان ما فى ذلك شك . .
ــ الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة ، وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان . . .
ــ انه رجل ولن يضيره ذلك . . .
ــ ليس فى هذا الحى كله شابان كولدى فيا للخسارة !

* * *

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتجاهه ، فاثبت أنه موظف كفء و« اخ » نشيط . وقد انتهى الاشراف على شعبة الجمالية اليه فعين مستشارا قانونيا لها ، واسهم فى تحرير المجلة ، وكان يلقى المواعظ أحيانا فى المساجد الأهلية . وجعل من شقته ناديا لاخوانه يسهرون عنده كل ليلة وعلى راسهم الشيخ على المنوفى . وكان الشاب شديد التحمس موفور الاستعداد كى يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل فى خدمة الدعوة التى آمن بكل قلبه ــ على حد تعبير المرشد ــ بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهياة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية . وكان الشيخ على المنوفى يقول :

ــ تعاليم الاسلام وأحكامه شاملة تنتظم شئون الناس فى الدنيا والآخرة ، وان الذين يظنون أن هذه التعاليم انما تتناول الناحية الروحية أو العبادية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن ، فالاسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف . . .

فيقول شاب من المجتمعين :

- هذا هو ديننا ، ولكننا جامدون لا نفعل شيئا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله ...

فيقول الشيخ على :

- لابد من الدعاية والتبشير وتكوين الانصار المجاهدين ، ثم تجىء مرحلة التنفيذ ...

- والام ننتظر ؟

- لننتظر حتى تنتهى الحرب ، ان الحقل مهيأ لدعوتنا ، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب ، وعند ما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الاخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه ..

عبد المنعم بصوته القوى العميق :

- فلنوطن النفس على جهاد طويل ، ان دعوتنا ليست موجهة الى مصر وحدها ، ولكن الى كافة المسلمين فى الأرض ، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم الاسلامية على هذه المبادىء القرآنية ، فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستورا للمسلمين اجمعين ..

الشيخ على المنوفى :

- ابشركم بأن دعوتنا تنتشر بفضل الله فى كل بيئة ، لها اليوم مركز فى كل قرية ، انها دعوة الله ، والله لا يخذل قوما ينصرونه ...

وفى نفس الوقت ، كان يستعر نشاط آخر فى الدور التحتانى وان اختلف الهدف . ولم يكن وفير العدد كهذا ، فان احمد وسوسن كانا يجتمعان فى كثير من الليالى بعدد محدود من الأصدقاء مختلفى النحل والملل ، اكثرهم من البيئة الصحفية . وقد زارهم الأستاذ عدلى كريم ذات مساء ، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظرية ، فقال لهم :

- حسن أن تدرسوا الماركسية ، ولكن تذكروا أنها وان تكن ضرورة تاريخية الا أن حتميتها ليست من نوع حتمية الظاهرات الفلكية ، انها لن توجد الا بارادة البشر وجهادهم ، فواجبنا الأول ليس فى ان نتفلسف كثيرا ولكن فى أن نملأ وعى الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخى الذى عليها أن تلعبه لانقاذ نفسها والعالم جميعا .

احمد :

ـ اننا نترجم الكتب القيمة عن هذه الفلسفة للخاصة من المثقفين ، ونلقى المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين ، وكلا العملين واجب لا غنى عنه ...

فقال الأستاذ :

ـ ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور الا باليد العاملة ، وحين يمتلىء وعيها بالايمان الجديد ، ويمسى الشعب كله كتلة واحدة من الارادة ، فهنالك لن تقف فى سبيلنا القوانين الهمجية ولا المدافع ..

ـ كلنا مؤمنون بذلك ، غير ان كسب العقول المثقفة يعنى السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم ...

واذا بأحمد يقول :

ـ سيدى الأستاذ ، ثمة ملاحظة أود ابداءها ، عرفت بالتجربة انه ليس من العسير اقناع المثقفين بأن الدين خرافة وأن الغيبيات تخدير وتضليل ، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء ، وان اكبر تهمة يستغلها اعداؤنا هى رمى حركتنا بالالحاد او الكفر .. ؟

ـ ان مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام ، أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه الا فى ظل الحكم الحر ، ولن يتحقق هذا الحكم الا بالانقلاب ، وعلى العموم فالفقر أقوى من الايمان ، ومن الحكمة دائما أن تخاطب الناس على قدر عقولهم ...

ونظر الأستاذ الى سوسن باسما وهو يقول :

ـ كنت تؤمنين بالعمل فهل بت تقنعين بالنقاش فى ظل الزواج ؟

وكانت تدرك انه يداعبها وانه لا يعنى ما يقول ، ومع ذلك فقد قالت جادة :

ـ أن زوجى يحاضر العمال فى الخرابات النائية ، وأنا لا أنى أوزع المنشورات بنفسى ...

ثم قال احمد مغتما :

ـ ان عيب حركتنا أنها تجذب اليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين ، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية !

فقال الأستاذ عدلى كريم وهو يهز رأسه الكبير فى استهانة واضحة :

ـ أعلم هذا حق العلم ، ولكنى أعلم ايضا أن الأمويين قد ورثوا الاسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذلك فهم الذين نشروه فى بقاع العالم

القديم حتى اسبانيا ! ، فمن حقنا أن نستفيد من هؤلاء ، وعلينا أن نحذرهم فى الوقت نفسه ، ولا تنسوا أن الزمن معنا على شرط أن نبذل ما فى وسعنا من جهد وتضحية . .

ـ والاخوان يا استاذ ؟، لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة خطيرة فى سبيلنا !

ـ لا أنكر هذا ، ولكنهم ليسوا بالخطورة التى تتخيلها ، ألا ترى أنهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الاسلام ؟ ، فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعارة اصطلاحاتنا ، وهم لو سبقونا الى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقا جزئيا ، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة الى هدفها المحتوم ، ثم ان نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش ! .

* * *

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب فى دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط ، حتى قالت يوما لزوجها :

ـ لم أر بيتا كبيتى عبد المنعم واحمد ، لعلهما قهوتان وأنا لا أدرى ، فلا يجىء المساء حتى يمتلىء الطريق بالزوار من أصحاب اللحى والخواجات ، لم أسمع عن شىء كهذا من قبل . .

فهز الرجل رأسه قائلا :

ـ آن لك أن تسمعى . . !

فقالت بحدة :

ـ ان مرتبيهما لن يكفيا ثمن القهوة التى تقدم للضيوف !

ـ هل اشتكيا اليك الفقر ؟

ـ والناس ؟ ، ماذا يقولون وهم يرون أفواجا تدخل وأفواجا تخرج ؟

ـ كل واحد حر فى بيته . .

فنفخت قائلة :

ـ ان أصوات أحاديثهم التى لا تنتهى تعلو أحيانا حتى تخرج الى الحارة . .

ـ فلتخرج الى الحارة أو فلتصعد الى السماء . .

وتنهدت خديجة من الأعماق وهى تضرب كفا بكف . .

— ٥٠ —

كانت ڤيللا عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودع الفوج الأخير من الزوار الذين جاءوا يودعونه قبيل سفره الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج ..

ــ ان الحج امنية قديمة ، لعن الله السياسة فهى التى شغلتنى عنه عاما بعد عام ، ولكن فى مثل عمرى يجب ان يفكر المرء فى آداب اللقاء القريب بربه ..

فقال على مهران وكيل الباشا :

ــ لعن الله السياسة !

فردد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وحلمى متفكرا ثم قال :

ــ قل فيها ما شئت ، غير ان لها جميلا فى عنقى لا انساه وهو انها سلتنى عن وحشتى ، ان الأعزب العجوز مثلى يلتمس الأنس ولو فى الجحيم !

فلعب على مهران حاجبيه وقال :

ــ ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا فى تسليتك ؟

ــ دون شك ، ولكن يوم الأعزب طويل كليل الشتاء ، ولا بد للانسان من رفيق ، وانى لأعترف بأن المرأة ضرورة خطيرة ، وكم اذكر امى كثيرا هذه الأيام ! ، ان المرأة ضرورة حتى لمن لا يتعشقها !

وكان رضوان يفكر فى أمور بعيدة فاذا به يسأل الباشا :

ــ هب النحاس باشا سقط أفلا تعدل عن السفر ؟ !

فلوح الباشا بيده ساخطا وقال :

ــ فليبق بنحسه حتى أعود على الأقل من الحج ! . . .

ثم وهو يهز رأسه :

ــ كلنا مذنب ، والحج يغسل الذنوب ..

فضحك حلمى عزت قائلا :

ــ انك يا باشا مؤمن ، وان ايمانك لمما يحير الكثيرين !

ــ لم ؟ ، ان الايمان واسع الصدر ، والمنافق وحده الذى يدعى البراءة

المطلقة ، ومن الغباء أن تظن ان الانسان لا يقترف الذنوب الا على جثة الايمان ، ثم ان ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانى البرىء !

فقال على مهران متنهدا فى ارتياح :

ـ يا له من قول جميل ، والآن دعنى أصارحك باننى تشاءمت كثيرا حين حدثتنى عن اعتزامك الحج ، وساءلت نفسى ترى أهى التوبة ؟ وهل تنتهى بالنسبة لنا مسرات الحياة ؟ ! .

فضحك الباشا حتى اهتز جذعه وقال :

ـ انت شيطان من صلب شيطان ، أتحزنون حقا اذا علمتم أنها التوبة؟.

فقال حلمى عزت متأوها :

ـ كمن ذبح وليدها فى حجرها ! .

فضحك عبد الرحيم باشا مرة اخرى وقال :

ـ آه منكم ياأولاد الايه ، على مثلى اذا أراد التوبة حقا أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والخدود الوردية ، وأن يعكف على مجاورة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ...

فهتف مهران فى شماتة :

ـ الحجاز وما أدراك ما الحجاز ، لقد حدثنى عنه العارفون ، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ! .

فقال حلمى عزت كالمحتج :

ـ لعلها دعاية كاذبة كالدعايات الانجليزية ، وهل يوجد فى الحجاز كله وجه كوجه رضوان ؟ ! .

فهتف عبد الرحيم عيسى :

ـ ولا فى الجنة ! .. (ثم متراجعا) .. لكننا يا أولاد الحرام بصدد حديث التوبة ! .

فقال على مهران :

ـ مهلا باباشا ، لقد اخبرتنى يوما عن الصوفى الذى تاب سبعين مرة ، أليس معنى هذا انه أذنب سبعين مرة ؟ .

فقال رضوان :

ـ او مائة مرة ! .

فقال على مهران :

ـ أنا راض بسبعين ! .

فتساءل الباشا ووجهه يتهلل بشرا :

ــ وهل فى العمر بقية ؟ .

ــ ربنا يطول عمرك يا باشا ، طمئنا وقل انها التوبة الأولى ! .

ــ والأخيرة ! .

ــ فشر ! . اذا تحديتنى فسوف استقبلك حين العودة من الحج بقمر ولا كل الأقمار ثم ننظر ماذا يكون من أمرك ! .

فقال الباشا باسما :

ــ ستكون النتيجة مثل وجهك يابوزالاخص ، انت شيطان يا مهرأن ، شيطان لا غنى للانسان عنه . .

ــ أحمد الله على ذلك . .

رضوان وحلمى فى وقت واحد تقريبا :

ــ ونحمده عليه . .

فقال الباشا فى خيلاء وسرور :

ــ انتم انسى ، ما الحياة بدون المودة والصداقة ؟ . الحياة جميلة ، الجمال جميل ، الطرب جميل ، العفو جميل ، انتم شباب وتنظرون الى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، انى أحبكم وأحب الدنيا ، وان زيارتى لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية . .

فقال رضوان باسما :

ــ ما أجمل منظرك ، انك تقطر صفاء ! .

فقال على مهران بمكر :

ــ ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى ، حقا يا باشا انك معلم الجيل ! .

ــ وأنت ابليس نفسه يا ابن الهرمة ! . اللهم انى اذا قدمت يوما للحساب فسأشير اليك وكفى !

ــ أنا ! . مظلوم والله ، لست الا عبدا مامورا ! .

ــ بل انت شيطان . .

ــ ولكن لا غنى لانسان عنه ؟! .

فضحك الباشا قائلا :

ــ نعم يا عكروت . .

ـ كنت وما أزال فى حياتك العامرة نغما مطربا ووجها مليحا وهنــاء متجددا ، وأخيرا لا تنس أيام شبابى يا سعادة الغادر ! .

.فتأوه الباشا قائلا .

ـ أيام زمان ! . آه من الزمان ! . يا أولاد لم تكبر ؟ ! . جلت حكمتك يا ربى وعلت :

كانت قنــاتى لا تميــل لغامز   فألانها الاصباح والامســاء

فقال مهران ملعبا حاجبيه :

ـ لغامز ؟ ! . بل قل لا تميل لمهران ! .

ـ يا بن الكلب لا تفسد الجو بهذرك !. لا يجوز أن نعبث عند ذكرالأيام الجميلة ، الدموع أحيانا أجمل من‌الابتسام وأضخم انسانية وأشد عرفانا بالجميل ، اسمعوا هذا أيضا :

واستنكرتنى وماكان‌الذى‌نكرت   من‌الحوادث الا الشيب والصلعا

ما رأيكم فى قوله « من الحوادث » ؟ . .

واذا بمهران ينادى على طريقة باعة الصحف :

ـ الحوادث والاهرام والمصرى . .

الباشا يائسا :

ـ الحق ليس عليك ولكن ع . . .

ـ عليك انت !

ـ أنا !. أنا برىء منك ، عند ما عرفتك كنت على حال يحسدك عليها ابليس ، ولكنى لن‌اسمح لك أن‌تنتزعنى من‌جو الذكريات ، نعم ، اسمعوا الى هذا أيضا :

عريت من الشباب وكان غضا   كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج :

ـ القضيب يا باشا ؟ ! .

الباشا وهو يردد ناظريه بين رضوان وحلمى المغرقين فى الضحك :

ـ صاحبكما جثة لا يؤثر فيهــا الشعر ! . ولكنه سيبلغ قريبا فترة الحسرات ، حين يصير كل‌جميل خبرا لكان أو احدى اخواتها ، (ثم‌ملتفتا الى مهران) وأصحاب زمان يا بن الهرمة هل نسيتهم ؟.

ـ اوه ، الله يمسيهم بالخير . . ، كانوا الجمال كله والدلال كله . .

ـ ماذا تعرف عن شاكر سليمان ؟ .

- كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الانجليز حتى أحيل على المعاش قبل الأوان فى وزارة النحاس الثانية أو الثالثة لا اذكر ، واظنه الآن معتكفا فى عزبته بكوم حمادة ..

- يا عينى على أيامه ، وحامد النجدى ؟ .

- هذا اسوأ احبابنا حظا ! . خسر الجلد والسقط ، وانه ليطوف الآن ليلا بالمراحيض العمومية ! .

- كان خفيفا ظريفا ولكنه كان كذلك مقامرا وعربيدا ، وعلى رأفت ؟.

- لقد بلغ « باجتهاده » أن صار عضوا فى مجلس ادارة عدة شركات ، ولكن سمعته ضيمت عليه الوزارة فيما يقال ! .

- لا تصدق ما يقال ، ولى الوزارة اناس جاوزت شهرتهم حدود المملكة ، غير أن هذا يؤيد الرأى الذى طالما نوهت لكم عنه وهو أن التحلى بالفضائل العامة واجب علينا أكثر من بقية الناس !. فاذا تحقق لأحدكم هذا فلا تثريب عليه بعد ذلك ، لقد حكم المماليك مصر أجيالا ، ومازالت ذراريهم تتمتع بالجاه والمال ، وما المملوك ؟!. هو ذلك نفسه !. سأقص عليكم قصة عظيمة المغزى ..

وصمت الباشا قليلا كأنما ليجمع شتات فكره ثم قال :

- كنت فى ذلك الوقت رئيس محكمة ، وحدث أن عرضت على قضية مدنية عن ميراث مختلف عليه ، وقبل نظر القضية عرفنى بعضهم بشاب جميل له وجه رضوان وقوام حلمى .. (ثم مشيرا الى مهران) ورشاقة هذا الكلب فى عز أيامه ! . فتصادقنا عهدا وانا لا ادرى عن سره شيئا ، حتى اذا كان يوم نظر القضية ما ادرى الا وهو يقف أمامى ممثلا لأحد طرفى النزاع ! . ماذا تظنونى فعلت ؟ .

فتمتم رضوان :

- يا له من موقف ! .

- تنحيت عن نظر القضية دون تردد ! .

وابدى رضوان وحلمى عن اعجابهما أما مهران فقال كالمحتج :

- وضيعت عليه كفاحه ! ؟ .

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران :

- ليس هذا فحسب ، ولكنى قطعته احتقارا لسوء خلقه !. أجل ، لا قيمة للانسان بلا خلق ، ليس الانجليز بأذكى الناس ، الفرنسيون

والايطاليون أذكى منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم ! . لذلك انبذ الجمال التافه المنحط ! .

فتساءل على مهران ضاحكا :

ـ هل افهم من ابقائك على انى ذو خلق ؟ .

فأشار الباشا نحوه جادا وهو يقول :

ـ الاخلاق متنوعة ، فالقاضى مطالب بالنزاهة والعدل ، والوزير بالواجب والشعور بالمسئولية العامة ، والصديق بالصفاء والوفاء ، وانت عربيد بلا شك ووغد فى أحايين كثيرة ولكنك امين وفى . .

ـ ارجو أن يكون وجهى قد تورد ! .

ـ الله لا يكلف نفسا الا وسعها ! . والحق انى قانع بما فيك من خير ، ثم انك زوج واب وهذه فضيلة اخرى ، وهى سعادة لا يقدرها الا من عانى صمت البيوت ، الا ان صمت المقام عذاب الشيخوخة ! .

فقال رضوان كالمنكر :

ـ حسبت الشيخوخة محبة للهدوء ! .

ـ تخيلات الشباب عن الشيخوخة ضلال ، تخيلات الشيخوخة عن الشباب حسرات ، خبرنى يا رضوان عن رأيك فى الزواج ؟ .

وانقبضت اسارير رضوان وهو يقول :

ـ هو الرأى الذى حدثتك عنه من قبل يا باشا .

ـ لا أمل فى العدول عنه ؟ .

ـ لا إظن .

ـ لم ؟ .

تردد رضوان قليلا ثم قال :

ـ شىء عجيب ، لا ادرى كنهه ، ولكن المرأة تبدو لى مخلوقا مثيرا للاشمئزاز ! .

فتجلت فى العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال :

ـ يا للأسف ، الا ترى أن على مهران زوج وأب ؟ . وأن صديقك حلمى من انصار الزواج ؟ . انى ارثى لك رثاء مضاعفا اذ انه رثاء لنفسى ايضا ، طالما حيرنى ما قرات وما سمعت عن جمال المرأة ، غير انى طويت نفسى على رأيى الخاص اكراما لذكرى امى ، كنت احبها حبا جما ، وقد

اسلمت الروح بين ذراعى ودموعى تساقط فوق جبينها وخديها ، وكم اود لو تتغلب على متاعبك يا رضوان ..

فقال رضوان وكان يبدو شاردا ساهما :

ـ يستطيع الانسان ان يعيش بلا امراة .. ليس الأمر مشكلة !.

ـ يستطيع الانسان أن يعيش بلا امراة ، ولكن الأمر مشكلة ، وقد لا تبالى تساؤل الناس ولكن ماذا عن تساؤلك أنت ؟ . من الممكن ان تقول ان المراة مثيرة للاشمئزاز ، ولكن لماذا هى لا تثير اشمئزاز الآخرين ؟ . هنالك يركبك احساس كالمرض ، مرض لا تعرف له دواء ، فتعتزل العالم به ، وهو شر رفيق فى الوحدة ، وربما أخجلك بعد ذلك ان تحتقر المراة وان تكن مضطرا الى مواصلة احتقارها ! .

وهنا نفخ على مهران فيما يشبه اليأس ثم قال :

ـ منيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع ! .

فضحك عبد الرحيم باشا وقال :

ـ لكنه وداع حاج ! . ماذا تعرف أنت عن توديع الحجاج ؟ .

ـ سأودعك بالدعاء ثم استقبلك بالورود والخدود ، ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل ! .

فضرب الباشا كفا بكف وهو يقول ضاحكا :

ـ انى مفوض أمرى الى الله ذى الجلال ..

— ٥١ —

عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل ، أمام مقهى رتز ، وفجاة ، وجد كمال نفسه أمام حسين شداد !. وتوقفا عن السير وكلاهما يحملق فى وجه صاحبه حتى هتف كمال :

ـ حسين ! .

فهتف الآخر بدوره :

ـ كمال ! .

ثم تصافحا فى حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة والسرور .

ـ اية مفاجاة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل ! .

— أية مفاجأة سعيدة !. تغيرت كثيرا ياكمال ، ولكن مهلا لعلى أبالغ !. عودك هو هو ، وجملة منظرك ، ولكن ما هذا الشارب المحترم !؟. وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا !. وهـذا الطربوش الذى لم يعد أحد يلبسه غيرك ! .

— وانت شد ما تغيرت ! . سمنت أكثر مما كنت أتصور ، أهذا يتفق وتقاليد باريس ؟ . أين حسين زمان ؟ ! .

— وأين باريس زمان ؟ . أين هتلر وموسولينى ؟ . ما علينا ، كنت ذاهبا الى ريتز لأشرب قدح شاى فهل عندك مانع من الجلوس معى قليلا ؟ .

— بكل سرور .

فمالا الى ريتز ثم جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجية المطلة على الطريق ، وطلب حسين شداد الشاى وطلب كمال قهوة ثم عادا يتفحصان بعضهما البعض فى ابتسام . لقد ضخم حسين فامتد طولا وعرضا . ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى ؟ . هل ساح فى الأرض والسماء كما كان يود قديما ؟ . لكن عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بدلت من طفولة الحياة جدا . وكان قد مضى عام على التقائه ببدور فى شارع فؤاد الأول فبرىء فى اثنائه من نكسة الحب وانزوى آل شداد جميعا فى ركن النسيان ، غير أن ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها ، فبدأ الماضى وكأنه يتمطى ناشرا أفراحه وآلامه .

— متى عدت من الخارج ؟ .

— منذ عام تقريبا ...

ولم يحاول مقابلته على الاطلاق ! ! . ولكن علام يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر ؟ ! .

— لو علمت انك عدت الى مصر لسعيت الى لقائك ! .

ولم يبد على حسين انه أحرج أو ارتبك ولكنه قال ببساطة :

— عدت فوجدت الهموم فى انتظارى ، الم تبلغك أشياء عنا ؟ .

فتجهم وجه كمال وقال باقتضاب واسف :

— بلى ، عن طريق صديقنا اسماعيل لطيف .

— لقد سافر الى العراق منذ عامين كما أخبرتنى والدتى ... وجدت الهموم فى انتظارى كما قلت ، ثم كان على أن أعمل ، وأن اعمل ليل نهار !. هذا حسين شداد طبعة ١٩٤٤ ! . ذلك الذى كان يعد العمل جريمة

انسانية ، أحق وجد ذلك الماضي ؟ . لعله لا دليل عليه الا خفقان هذا القلب .

ـ اتذكر آخر مرة تلاقينا ؟ ! .

ـ أوه ! . . .

وجاء النادل بالشاى والقهوة قبل أن يتم كلامه غير أنه لم يبد متحمسا للذكريات ! .

ـ دعنى أذكرك ، كان ذلك فى عام ١٩٢٦ .

ـ عفارم علىذاكرتك !. . (ثم شاردا) . . سبعة عشرعاما فىأوروبا !.

ـ حدثنى عن حياتك هنالك ! .

فهز رأسه الذى لم يشب منه الا سوالفه وقال :

ـ دع ذلك الى حينه واقنع الآن بهذه العناوين : أعوام سياحة وفرجة كالحلم ، حب فزواج من باريسية من أسرة محترمة ، الحرب والهجرة الى الجنوب ، افلاس ابى ، العمل فى متجر حماى ، عودتى الى مصر دونزوجي حتىأهيىء لها حياة مستقرة ، ماذا تريد أكثرمنذلك !.

ـ انجبت أطفالا ؟ .

ـ كلا . . .

كأنما لا يود أن يتكلم ، ولكن ماذا بقى من الصداقة القديمة حتى يأسف على ذلك ؟. ورغم هذا وجد رغبة قوية فى طرق ابواب الماضي فتساءل :

ـ وماذا عن فلسفتك القديمة ؟ .

وتفكر حسين مليا ، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال :

ـ انى غارق فى العمل منذ أعوام وأعوام ، لست الا رجل أعمال !.

أين روح حسين شداد الذى كان يأوى منها الى ظل ظليل من الغبطة الروحية ؟ . ليست فى هذا الرجل الضخم ، لعلها استقرت فى رياض قلدس ، أما هذا الرجل فانه لا يعرفه ، ولا يربطه به الا ماض مجهول ماض ود فى تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حية لا صورة فوتوغرافية باردة .

ـ وماذا تعمل الآن ؟ .

ـ الحقنى أحد أصدقاء ابى بوظيفة فى الرقابة حيث اعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر ، والى هذا فانى أقوم بالترجمة فى بعض الصحف الافرنجية . .

ـ ومتى تخلو من العمل ؟ .

ـ فيما ندر ، والذى يهون على المشقة اننى لن أدعو زوجى الى مصر حتى أهيىء لها حياة تناسبها ، فهى من أسرة محترمة ، وكنت حين تزوجت منها معدودا من الأغنياء ! .

قال ذلك وضحك ضحكة كأنما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنما يشجعه بها ، وراح يقول لنفسه : من حسن حظى انى سلوتك من زمن طويل ، ولولا ذلك لبكيت عليك من أعماق قلبى !

ـ وانت يا كمال ماذا تعمل ؟

ثم مستدركا :

ـ اذكر انك كنت مغرما بالثقافة ؟

ما اجدره بالشكر على هذا التذكر ! ، فهو ميت بالنسبة اليه كما ان الآخر ميت بالنسبة اليه هو ، واننا لنموت ونحيا كل يوم مرات ! . واجابه :

ـ انى مدرس لغة انجليزية . .

ـ مدرس ! ، نعم . . نعم ، تذكرت الآن أشياء ، وكنت ترغب فى ان تكون مؤلفا ؟

يا للرغبات الخائبة ! .

ـ انى أنشر مقالاتى فى مجلة الفكر ، ولعلى اجمع بعضها فى كتاب عما قريب !

فابتسم حسين ابتسامة كئيبة وقال :

ـ أنت سعيد لانك حققت أحلام صباك ، أما أنا . . !

وضحك مرة أخرى . أما كمال فقد وقعت جملة « أنت سعيد » من أذنيه موقعا غريبا ، ولم يكن اغرب منها الا اللهجة التى قيلت بها الدالة على الحسد ، فوجد نفسه مرة واحدة سعيدا ومحسودا ، وممن ؟ ، من عميد آل شداد ! . غير أنه قال على سبيل المجاملة :

ـ حياتك العملية أجل حياة !

فقال الآخر باسما :

ـ لااختيار لى ، ومرجوى الوحيد أن أستعيد شيئا من مستوى الماضى . .

وساد الصمت مليا . وكان كمال يتفحص حسين باهتمام ، وكانت صور من الماضى تنبعث خلال تفحصه ، حتى وجد نفسه يسأله قائلا :

ــ وكيف حال الأسرة ؟

فقال دون اكتراث :

ــ بخير . .

فتردد كمال قليلا ثم قال :

ــ كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم ؟

ــ بدور ! ، تزوجت فى العام الماضى . .

ــ ما شاء الله ، أولادنا يتزوجون !

ــ وانت الم تتزوج ؟

ترى ألم تعاوده الذكريات ؟.

ــ كلا . .

ــ اسرع والا فاتك القطار . .

فقال ضاحكا :

ــ فاتنى باميال . .

ــ ربما تزوجت من حيث لا تدرى ، صدقنى ، لم يكن الزواج ضمن خطتى ولكننى متزوج منذ اكثر من عشر سنوات . .

فهز كمال منكبيه دون اكتراث وقال :

ــ خبرنى كيف تجد الحياة هنا بعد اقامتك الطويلة فى فرنسا ؟

ــ لم تكن الحياة فى فرنسا عقب الغزو مما يسر ، أما هنا فالحياة يسيرة لطيفة بالقياس الى هناك ، (ثم بحنان) ولكن باريس ! ، اين أين باريس ؟!

ــ لم لم تبق فى فرنسا ؟

فقال باستنكار :

ــ أعيش كلا على حمى ؟ ! ، كلا ، كان ثمة عذر عند ما حالت ظروف الحرب دون السفر ، أما بعد ذلك فلم يكن من السفر بد !

ترى اهو شــذا من الــكبرياء القديم ؟ . ثم وجد نفسه مدفوعا الى مغامرة خطيرة عذبة معا ، فتساءل بمكر :

ــ وما أخبار صاحبنا حسن سليم ؟

فحدجه بنظرة ارتياب لحظة ثم قال ببرود :

ــ لا أدرى عنه شيئا !

ــ كيف ؟ !

فقال وهو يمد بصره الى الطريق خلل الزجاج :

ــ انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين !
فقال كمال فى دهشة لم يستطع اخفاءها :
ــ اتعنى . . . !

ولم يتم كلامه . غلبته المفاجاة . هل عادت عايدة الى العباسية مرة اخرى ؟. امراة مطلقة ؟ !. فليؤجل التفكير فى هذا كله الى حين . وقال بهدوء :

ــ كان سفره الى ايران آخر ما حدثنى اسماعيل لطيف عنه !
فقال حسين بكآبة :

ــ لم تمكث أختى معه فى هذه الرحلة الا شهرا واحدا ، ثم عادت بمفردها . . (ثم بصوت منخفض) رحمها الله !.
ــ هه ؟ !

ندت عن كمال فى صوت ترامى الى الموائد القريبة من حولهم ، فنظر اليه حسين كالداهش وقال :

ــ لم تكن تدرى ! ، لقد ماتت منذ عام !
ــ عايدة ؟ !

فهز الآخر رأسه بالايجاب . وفى نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجردا بصوت مسموع . ولكنه لم يقف عند هذا الا اقل من لحظة . وبدت الألفاظ جميعا وكان لا معنى لها . وشعر بدوامة الفناء تدور برأسه . وكان ما به دهشة وارتياع ، لا حزن ولا الم . وتكلم اخيرا فقال :

ــ يا له من خبر محزن ، البقية فى حياتك !
فقال حسين :

ــ عادت من ايران وحيدة ، ومكثت مع امى شهرا ، ثم تزوجت من أنور بك زكى كبير مفتشى اللغة الانجليزية ولكنها لم تعاشره الا شهرين ؛ ثم مرضت ، ثم توفيت فى المستشفى القبطى . .

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث فى سرعتها الجنونية !. ولكنه يقول أنور بك زكى . وهو المراقب الأعلى لهيأته التعليمية . ولعله تشرف بمقابلته مرات وهو زوج لعايدة . رباه . . انه ليذكر الآن انه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هى عايدة ؟ ! . ولكن كيف لم يلتق بحسين ؟ !

ــ هل حضرت وفاتها ؟
ــ كلا ، توفيت قبيل عودتي الى مصر . .
فقال وهو يهز رأسه تعجبا :
ــ لقد سرت في جنازتها وأنا لا ادرى انها اختك !
ــ كيف ؟
ــ علمت في المدرسة ذلك اليوم بأن حرم كبير المفتشين قد توفيت وان الجنــازة ستشــيع من ميدان الاسماعيلية ، فذهبت مع زملائي المدرســين دون أن أطلع على النعي في الصحف ، وسرنا بين المشــيعين حتى جامع چركس ، كان ذلك منذ عام . .
فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول :
ــ سعيكم مشكور . .
لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن أو انتحر ، اليوم تمر به كخبر من الأخبار ، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدرى ، وكان وقتذاك ما يزال أسيرا لمرارة التجربة التي تخلفت عن زواج بدور فلعل صاحبة النعش طافت برأسه فيما طاف به من خواطر بدور وأسرتها ، وما زال يذكر يوم الجنــازة حين تقــدم من أنور بك زكي معــزيا ثم جلس بين المشيعين ، وحين قالوا قياما لقد حضر النعش فمد عينيه فرأى نعشا جميلا مكللا بالحرير الأبيض حتى تهامس بعض زملائه انها عروس . . الزوجة الثانية للمفتش . . وقد ذهبت ضحية للالتهاب الرئوى ، وودع النعش وهو لا يدرى أنه يودع ماضيه ، ومن كان زوجها ؟ ، رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضى به ملاك الزمان الخالى ؟ ، وكنت تظنهــا فوق الزواج فاذا هي تعنو للطلاق ثم تقنع بنصــيب الزوجة الثانية ! ، وسوف يمضى وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الذهول والدهشة ، ومن خلو العــالم من مباهج الأحلام ، ومن ضياع سر الماضي الساحر الى الأبد ، وأن كان ثمة حزن فعلى انك لم تحزن كما كان يجدر بك ! .
ــ لكن ماذا غير حسن سليم ؟
فهز حسين رأسه بازدراء وقال :
ــ عشق الوغد موظفة بمفوضــية بلچيكا بايران فغضــبت المرحومة لكرامتها وطالبته بالانفصــال . .

« مما يعزى المرء فى مثـل هذا الموقف أن بديهيات اقليدس لم تعد بالبديهيات المطلقة ! »

ــ واولادها ؟

ــ عند جدتهم لأبيهم .

وهى أين هى ؟ ، وماذا جد عليها فى هذا العام ؟ ، وهل يمكن أن يعرفها فهمى أو السيد أحمد عبد الجواد او نعيمة ؟ .

واذا بحسين شداد ينهض وهو يقول :

ــ آن لى أن اذهب ، دعنى أراك ، انى أتناول عشائى عادة فى رتز .

فنهض بدوره ، وتصافحا وهو يتمتم :

ــ أن شاء الله . .

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنه لن يراه مرة اخرى ، وبأنه ليس به حاجة الى معاودة رؤيتـه ، كما ليس بالآخر حاجة الى ذلك . وغادر المشرب وهو يقول لنفسـه : « انى حزين يا عايدة لأنى لم أحزن عليك كما كان يجدر بى . . »

— ٥٢ —

فى سكون الهزيع الاخير من الليـل طرق طارق باب بيت آل شوكت بالسكرية ، ثم تتـابع الطرق حتى اسـتيقظ النائمون . وما أن فتحت خادم الباب حتى تدافعت الى الداخل أقدام ثقيـلة شـديدة الوقع ، انتشرت فى الفناء والسلم وأطبقت على الشقق الثلاث . وخرج ابراهيم شوكت الى الصالة مثقل الراس بالنوم متعبا بالكبر فرأى ضابطا كبيرا يتوسط مجموعة من الجنود والمخبرين ، فدهش الرجل وتساءل منزعجا :

ــ ماذا هنالك كفى الله الشر ؟ !

فسأله الضابط الكبير بخشونة :

ــ الست والد احمد ابراهيم وعبد المنعم ابراهيم المقيمين فى هـذا البيت ؟

فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه :

ــ بلى .

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه . .

ـ لماذا يا حضرة المامور ؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه آمرا :

ـ فتشوا .

واندفع الرجال الى الحجرات صادعين بالأمر على حين تساءل ابراهيم شوكت :

ـ لماذا تفتشون شقتى ؟

ولكن المامور تجاهله . وعند ذاك اضطرت خديجة الى مغادرة حجرة النوم ـ التى اقتحمها المخبرون ـ متلفعة بشال اسود وهى تهتف غاضبة :

ـ اليس للنساء حرمة ! ، هل نحن لصوص يا حضرة المامور . .!

كانت تحدق فى وجهه غاضبة ، واذا بها تشعر بغتة بانها رات هذا الوجه من قبل ، أو بمعنى اصح انها رات صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدم السن ، متى واين ؟ ، رباه انه هو دون ريب ، لم يكد يتغير كثيراً ، واسمه ؟ ، و قالت دون تردد :

ـ حضرتك كنت ضابطا بقسم الجمالية منذ عشرين عاما ، بل منذ ثلاثين عاما لا اذكر الزمن بالضبط . .

فرفع المامور اليها عينين متسائلتين ؛ وردد ابراهيم شوكت ناظريه بينهما متسائلا كذلك ، واذا بها تقول :

ـ اسمك حسن ابراهيم ، اليس كذلك ؟

ـ حضرتك تعرفينني ؟

فقالت برجاء :

ـ أنا بنت السيد احمد عبد الجواد واخت فهمى احمد الذى قتله الانجليز أيام الثورة ، الا تذكره ؟

فلاحت الدهشة فى عينى المامور وتمتم بصوت مهذب لأول مرة :

ـ رحمه الله رحمة واسعة . .

فقالت برجاء اشد :

ـ انا اخته فهل ترضى لبيتى هذه البهدلة ؟

فاشاح المامور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر :

ـ اننا ننفذ الأوامر يا هانم !

ـ ولكن لماذا يا حضرة المامور ، نحن أناس طيبون !

فقال المامور برقة :

ـ نعم ، ولكن ليس كذلك نجلاك . .

فهتفت خديجة باضطراب :

ـ انهما ابنا اخت صديقك القديم !

فقال المامور دون أن ينظر نحوها :

ـ اننا ننفذ اوامر الداخلية .

ـ لم يفعلا شيئا ضارا ، انهما ولدان طيبان واقسم لك على ذلك . .

وعاد الجنود والمخبرون الى الصالة دون أن يعثروا على شيء فأمرهم المامور بمغادرة الشقة ، ثم التفت الى الزوجين الماثلين امامه وقال :

ـ أبلغنا عن اجتماعات مريبة تعقد فى شقتيهما . .

ـ هذا كذب يا حضرة المامور !

ـ ارجو ان يكون الأمر كذلك ، لكننى مضطر الآن الى القبض عليهما ، وسوف يبقيان حتى يتم التحقيق معهما ، ولعل العاقبة أن تكون سليمة.

هتفت خديجة بصوت متهدج وشى بدموعها :

ـ اتسوقهما حقا الى القسم ؟ ، هذا . . . ، لا اتصور . . . ، اعف عنهما وحياة أولادك !

ـ ليس بوسعى ذلك ، لدى أوامر صريحة بالقبض عليهما ، طاب مساؤكما !

وغادر الرجل الشقة . وما لبثت أن غادرتها خديجة وفى اعقابها الرجل العجوز وتزلا السلم لا يلويان على شيء . ورأتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها فى حال شديدة من الفزع فهتفت :

ـ اخذوه يا عمتى ، اخذوه الى السجن . .

فألقت خديجة على الشقة نظرة متحجرة ونزلت مسرعة الى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن على باب شقتها كذلك تتطلع الى الفناء بوجه كالح ، فنظرت حيث تنظر فرات القوة تحيط بعبد المنعم وأحمد ، متجهة بهما الى الخارج ، فلم تتمالك أن تصرخ من أعماق قلبها وهمت بالانطلاق فى أثرهما لولا أن امسكت بها يد سوسن . فالتفتت نحوها هائجة ، غير ان سوسن قالت لها بصوت هادىء حزين :

ـ هدئى روعك ، لم يعثروا على شىء مريب ، ولن يثبت ضـدهما شىء ، لا تجرى وراءهم حفظا لكرامة عبد المنعم وأحمد . .

فصاحت بها :

ـ هذا الهدوء تحسدين عليه !

فقالت سوسن برقة وصبر :

ـ سيعودان الى بيتهما بخير ، اطمئنى . .

فتساءلت بحدة :

ـ من أدراك ؟

ـ انى واثقة مما أقول . .

فلم تكترث لقولها والتفتت نحو زوجهـا ثم ضربت كفا بكف وهى تقول :

ـ انعدم الوفاء ، أقول له انهما ابنـا أخت فهمى فيقول لى عنـدى أوامر ، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأرذال !

واتجهت سوسن نحو ابراهيم وقالت :

ـ سيفتشون بيت الجمـاعة فى بين القصرين ! ، سمعت مخبرا يقول للمامور انه يعرف بيت جدهما فى بين القصرين فاقترح عليه الضـابط المساعد تفتيشه تنفيذا للأوامر وعلى سبيل الحيطة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات !

فصاحت خديجة :

ـ انى ذاهبة الى أمى ، لعل كمال يسـتطيع شيئا ، آه يا ربى انى احترق . .

وجاءت بمعطفها وغادرت السكرية فى خطوات متلاحقة مضـطربة . كان الجو باردا والظلام ما يزال كثيفا ، وكانت الديكة تصيح فى تجاوب متواصل . انطلقت من الفورية مخترقة الصاغة الى النحاسين . ووجدت عند باب البيت مخبرا ، ووجدت فى الفناء مخبرا آخر ، ثم صعدت السلم وهى تلهث . .

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس ، ثم جاءتهم أم حنفى وهى تقـول فى ذعر : « بوليس » ، وهرع كمـال الى الحوش حيث التقى بالمامور فتساءل منزعجا .

ـ أفندم ؟

فسأله المأمور :

ـ أتعرف عبد المنعم ابراهيم واحمد ابراهيم ؟

ـ أنا خالهما !

ـ صناعتك ؟

ـ مدرس بمدرسة السلحدار .

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت !

ـ ولكن لماذا ؟ ، أى تهمة توجهها الى ؟

ـ اننا نفتش عن منشورات تخص الشابين لعلهما أخفياها هنا .

ـ أؤكد لحضرتك أنه ليس فى بيتنا منشورات ، تفضل فتش كما تشاء . .

ولاحظ كمال أنه أمر القوة باحتلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده . وكان تفتيشا يقلب البيت راسا على عقب ولكن المأمور اكتفى بتفقد الحجرات والقاء نظرات سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاسترد انفاسه ، واستطاع ان يسأله وقد آنس اليه :

ـ فتشتم بيتهما ؟

ـ طبعا . . .

ثم بعد لحظة قصيرة :

ـ انهما الآن فى سجن القسم !

فسأله كمال فى انزعاج :

ـ هل ثبت عليهما شىء ؟

فأجاب الرجل برقة غير معهودة فى امثاله :

ـ ارجو الا يصل الأمر الى هذا الحد ، غير أن التحقيق متروك للنيابة .

ـ اشكر لك جميل عواطفك !

فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم :

ـ ولا تنس اننى لم أبهدل البيت !

ـ نعم يا سيدى ، انى لا ادرى كيف اشكرك !

واذا به يلتفت نحوه متسائلا :

ـ حضرتك أخو المرحوم فهمى ؟

فاتسعت عينا كمال دهشة وقال :

ـ نعم ، أكنت تعرفه ؟

ـ كنا أصدقاء ، رحمه الله . . .

فقال كمال برجاء :

ـ مصادفة سعيدة . . (وهو يمد له يده) . . كمال احمد عبدالجواد .

فصافحه الرجل قائلا :

ـ حسن ابراهيم مأمور قسم الجمالية !. بدات فيه ملازما وعدت اليه في آخر المطاف مأمورا . . .

ثم وهو يهز رأسه :

ـ كانت الأوامر صريحة ، أرجو الا يثبت عليهما ما يدينهما . .

وهنا ترامى اليهما صوت خديجة وهي تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكي فقال :

ـ هذه أمهما ، عرفتني بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتني بالمرحوم ولكن بعد ان كان التفتيش الدقيق قد وقع ، طمئنها ما امكنك . .

ثم نزلا معا جنبا الى جنب ، وعند مرورهما بالدور الثاني مرقت عائشة من الباب في حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به :

ـ لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب ؟. الا تسمع بكاء امهما ؟.

فانحرف بصر المأمور اليها كرد فعل للمفاجأة ثم غض بصره تأدبا وهو يقول :

ـ سيطلق سراحهما عما قريب ان شاء الله . .

ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني :

ـ والدتك ؟ .

فابتسم كمال ابتسامة حزينة وقال :

ـ بل شقيقتي ! . لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطمها . .

والتفت المأمور اليه كالداهش ، وخيل اليه بانه هم أن يطرح سؤالا ولكنه تردد لحظة ثم عدل عما كان هم به . وتصافحا في الفناء ، وقبل أن يمضي الرجل الى سبيله سأله كمال :

ـ أمن المستطاع ان ازورهما في السجن ؟ .

ـ نعم . . .

ـ شكرا . . .

وعاد كمال الى الصالة فانضم الى أمه وشقيقتيه وهو يقول :

- سأزورهما غداً ، لا داعي للخوف ، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما . . .

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة في نرفزة :

- لا تبك ، كفانا بكاء ، سيعودان اليك الا تسمعين ؟ .

فولولت خديجة قائلة :

- لا أدري ، لا أدري ، في السجن يا ولداه ! .

وكانت أمينة صامتة كأن الحزن أخرسها ، فقال كمال في لهجة توحي بالطمأنينة :

- المأمور يعرفنا ، كان صديق المرحوم فهمي ، وقد تلطف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدق ، ولا شك أنه سيرعاهما بعطفه ! .

فرفعت الأم رأسها كالمتسائلة فقالت خديجة في حنق :

- حسن ابراهيم ، الا تذكرينه يا أمي ؟ . وقد أخبرته بأنني أخت فهمي فما كان منه الا أن قال : اننا ننفذ الأوامر يا هانم ! . أوامر في عينه . . ! .

واتجهت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها أنها ذكرت شيئاً .

ثم انتحت أمينة بكمال جانباً وراحت تقول له في قلق بالغ :

- لم أفهم شيئاً يا ابني ، لماذا قبض عليهما ؟ .

فتفكر كمال فيما ينبغي قوله ، ثم قال :

- الحكومة تظن خطأ أنهما يعملان ضدها ! .

فهزت رأسها في حيرة وقالت :

- اختك تقول انهم قبضوا على عبد المنعم لأنه من الاخوان المسلمين ، لماذا يقبضون على المسلمين ؟ .

- الحكومة تظنهم يعملون ضدها . .

- واحمد ؟ ! . قالت انه . . . ، نسيت الكلمة يا ابني ! ؟ .

- شيوعي ؟ . الشيوعيون كالاخوان في ظن الحكومة ! .

- الشيوعيون ؟ ! . أشياع سيدنا علي ؟ .

فدارى كمال ابتسامة وقال :

- الشيوعيون لا الشيعة ، هم حزب ضد الحكومة والانجليز ! .

فتنهدت المرأة في حيرة وقالت :

- متى يفرج عنهما ؟ . أنظر الى اختك المسكينة ! . الحكومة والانجليز . ألم يجدوا بيتاً الا بيتنا المصاب ؟ ! .

- ٥٣ -

كان آذان الفجر يسرى فى الصمت الشامل حين استدعى مامور قسم الجمالية عبد المنعم واحمد الىحجرته . ومثلا امام مكتبه يسوقهما جندى مسلح ، فامره المامور بالانصراف ، ومضى يتفحصهما باهتمام ، ثم نظر الى عبد المنعم وساله :

ـ اسمك وسنك وصناعتك ؟.

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات :

ـ عبد المنعم ابراهيم شوكت ، خمسة وعشرون عاما ، محقق بادارة التحقيقات بوزارة المعارف .

ـ كيف تخرق قوانين الدولة وانت من رجال القانون ؟!.

ـ لم أخرق قانونا ، ونحن نعمل جهارا فنكتب فىالصحف ونخطب فى المساجد ، ان الدين يدعون لله لا يجدون ما يخفونه . .

ـ الم تحدث فى بيتك اجتماعات مريبة ؟ .

ـ كلا ، كانت اجتماعات عادية مم، تجمع بين الأصدقاء لتبادل الراى والمشورة والتفقه فى الدين . .

ـ وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة ؟.

ـ اتعنى بريطانيا يا سيدى ؟. انها عــدو غادر ، الدولة التى تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة . .

ـ انك رجل مثقف ، وكان ينبغى أن تدرك أن للحــرب ظروفا تبيح المحظورات ! .

ـ انى أدرك ان بريطانيا هى عدونا الأول فى هذا الوجود ! .

والتفت المامور الى احمد متسائلا :

ـ وأنت ؟ .

فأجاب أحمد وعلى شفتيه شبه ابتسامة :

ـ أحمد ابراهيم شوكت ، أربعة وعشرون عاما ، محرر بمجلة الانسان الجــديد . . .

- هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة ، فضلا عن انه من المسلم به أن مجلتك سيئة السمعة . .

- مقالاتى لا تعدو الدفاع عن مبادىء العدالة الاجتماعية .

- شيوعى حضرتك ؟ .

- انى اشتراكى ، وكثير من النواب يدعون الى الاشتراكية ، والقانون نفسه لايؤاخذ الشيوعى على رأيه ما دام لا يلجأ الى أساليب العنف . .

- اكان ينبغى أن ننتظر حتى تتمخض الاجتماعات التى تعقد كل مساء فى شقتك عن العنف ؟ .

وتساءل فى نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلية ؟! . وأجاب :

- انى لا أجتمع فى بيتى الا بالأصدقاء المقربين ، ولم يزد عدد زوارى يوما عن أربعة أو خمسة ، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف . . .

وردد المأمور نظره بينهما ثم قال بعد تردد :

- انكما مثقفان و . . مهذبان ، ومتزوجان اليس كذلك ؟ . حسن . اليس من الأفضل لكما ان تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنبا نفسيكما الهلاك ؟ . . .

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

- انى أشكر لك نصيحتك التى لن اعمل بها . .

فندت عن المأمور ضحكة مقتضبة كانما على رغمه ، ثم قال :

- علمت فى أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبدالجواد ، وقد كان خالكما المرحوم فهمى صديقا حميما لى ، وأظنكما تعلمان أنه فقد حياته فى ربيع العمر على حين أن زملاءه ظلوا على قيد الحياة حتى تبوأوا اكبر المناصب . . .

فقال احمد وقد أدرك السر فى لطف المأمور الذى حيره :

- دعنى أسالك يا سيدى عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالى وأمثاله ؟! .

فهز الرجل راسه وقال :

- فكرا فى نصيحتى بعقل وروية ودعكما من هذه الفلسفة المهلكة ! .

ثم وهو يقف :

ـ ستبقيان ضيفين فى سجننا حتى تدعوا الى التحقيق ، ارجـو لكما حظا سـعيدا ...

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونباشى وجنديان مسلحان ، ومضوا جميعا الىالدور الأرضى ، ثم عرجوا الى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلا حتى استقبلهم السجان بكشافه الكهربائى كانما ليدلهم علىباب السجن . وفتح الرجل الباب وادخلهما ، ثم صوب ضـوءه الى الداخل ليهتديا به الى برشيهما . واضاء الكشاف المكان فبدا متوسط المساحة عالىالسقف ، ذا نافذة صغيرة فىأعلىجداره تعترضها القضبانالحديدية . وكان عامرا بالضيوف ، فيهم شابان فى هيئة الطلبة ، وثلاثة رجال حفاة بجفوى المنظر شائهى الخلقة . وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام ، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد ايقظت النائمين . وقالاحمد لأخيه همسـا :

ـ لن اجلس والا قتلتنى الرطوبة ، فلننتظر الصبح واقفين ..

فقال عبد المنعم :

ـ سنضطر الىالجلوسعاجلا أوآجلا ، اعلمت متىنبرح هذا السجن؟ .

واذا بصوت ـ ادركا بالبداهة أنه لأحد الشابين ـ يقول :

ـ لابد من الجلوس ، ليس هو بالشىء السار ولكنه اخف من الوقوف أياما ...

ـ هل مكثتما هنا طويلا ؟ .

ـ منذ ثلاثة أيام ! .

وساد الصمت مليا حتى عاد الصوت يسأل :

ـ لماذا قبض عليكما ؟ .

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلا :

ـ أسباب سياسية فيما يبدو ...

فقال الصوت ضاحكا :

ـ صارت الأغلبية أخيرا للسياسـيين فى هذا السـجن ، كنا قبـل تشريفكما اقلية ...

فسأله احمد :

ـ وما تهمتكما ؟ .

- تكلما انتما اولا ، فانتما احدث مقاما ! . وان يكن لا داعى للسؤال بعد ان راينا لحية أحدكما الاخوانية ؟ ! .

فسأله أحمد وهو يبتسم فى الظلام :

- وأنتما ؟ .

- كلانا طالب فى الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون . .

فثار اهتمام احمد وسأله :

- أضبطتما متلبسين ؟ .

- نعم . . .

- وماذا كان فى المنشورات ؟ .

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية فى مصر . .

- هذا مما تنشره الصحف فى ظل الأحكام العرفية نفسها ! .

- يضاف اليه شوية توجيهات حماسية ! .

فابتسم أحمد مرة أخرى فى الظلام وقد تخفف من وحشته لأول مرة .

وعاد صاحب الصوت يقول :

- اننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال . .

- ان الأمور تبشر بتغيير شامل . .

- لكننا سنظل الهدف فى جميع العهود . .

واذا بصوت غليظ يعلو فى خشونة قائلا :

- كفاكم كلاما ودعونا ننام . .

ولكن صوته ايقظ زميلا من زميليه فتثاءب متسائلا :

- طلع الصبح ؟ .

فاجابه الأول هازئا :

- كلا ، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم فى غرزة . .

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه الا أحمد :

- أيزج بى الى هذا المكان لا لسبب الا أننى أعبد الله ؟ .

فهمس أحمد فى اذنه باسما :

- وما ذنبى انا الذى لا اعبده ؟ ! .

لم يشأ احد بعد ذلك ان يرفع صوته . وراح أحمد يسائل نفسه عما دعا الى القبض على الآخرين ، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعربدة ؟ . طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطفه فى حجرة مكتبه الجميلة ، ها هو

الشعب يلعن أو يغط فى نومه . وهذه الوجوه الكالحة البائسة التى رآها على ضوء الكشاف لحظات ، وذاك الرجل الذى كان يحك رأسه وما تحت ابطيه فلعل قمله يزحف نحوهما دائبا ، هذا هو الشعب الذى تعيش من أجله فكيف تجزع من فكرة ملامسته ؟! . هذا الرجل المناط به خلاص الانسانية ينبغى ان يمسك عن شخيره وأن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض لانقاذ العالم جميعا !. وقال لنفسه : « ان موقفا انسانيا واحدا هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان المظلم الرطب ، الأخ والشيوعى والسكير والسارق على السواء ، كلنا واحد على تفاوت فى قوة المناعة ولون الحظ » . وحدث نفسه مرة أخرى فقال : لماذا لاتعنى بشئونك الخاصة ، هكذا يقول المأمور ، ولى زوجة محبوبة ورزق موفور ، والحق ان الانسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو اب أو ابن ولكنه مقضى عليه بالمتاعب او بالموت نفسه بما هو انسان. وسواء أقضى عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه فى أفق حياته . وعاد يتساءل : ماذا يدفعنى فى هذا السبيل الخطير الباهر؟. الا انه الانسان الكامن فى أعماقى ، الانســـان الواعى لذاته المدرك لموقفه الانسانى التاريخى العام ، وأن ميزة الانسان على سائر المخلوقات هى انه يستطيع أن يقضى على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه . .

وشعر بالرطوبة تسرى فى ساقيه والاعياء يتخلل مفاصـــله ، وكان الشخير يتردد فى الأركان بايقاع موصول ، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة العالية طلائع النور وانية رقيقة . .

— ٥٤ —

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعـــه واجما ، ثم لحق به فى الصـــالة وحدجه بعينين متسائلتين ، فقال الطبيب بهدوء :

ــ يؤسفنى أن أخبرك بأنها حالة شلل كلى . .

فانقبض صدر كمال انقباضا شديدا وسأله :

ــ حالة خطرة ؟ .

ــ طبعا ! . وقد أصيبت فى الوقت نفسه بالتهــاب رئوى ، ولذلك فالحقن ضرورية لاراحتها . .

ــ أليس هنالك أمل فى الشفاء ؟ .

فصمت الطبيب قليلا ثم قال :

ــ الأعمار بيد الله ، أما الطب فيقرر فى حدوده أن هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام . .

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد ، وأوصل الطبيب الى الباب الخارجى ثم عاد الى الحجرة . وكانت الأم نائمة ، أو كالنائمة ، لا يبدو من الغطاء الكثيف الا وجهها الشاحب وفوها المطبق فى شىء من الاعوجاج . وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه متسائلة :

ــ مالها يا أخى ؟ . ماذا قال الطبيب ؟ .

وقالت أم حنفى من موقفها عند مقدم الفراش :

ــ انها لا تتكلم يا سيدى ، لم تتكلم كلمة واحدة . .

وقال لنفسه : ولن يسمع لها صوت بعد الآن . ثم قال مجيبا أخته :

ــ حالة ضغط مصحوبة باصابة برد خفيفة ، سوف تريحها الحقن !.

فقالت عائشة ، ولعلها كانت تخاطب نفسها :

ــ انى خائفة ، واذا كانت سترقد هكذا طويلا فكيف تحتمل الحياة فى هذا البيت ؟ .

فتحول عنها الى أم حنفى وسألها :

ــ هل أخبرت الجماعة ؟ .

ــ نعم يا سيدى ، وستحضر ست خديجة وسى ياسين فى الحال ، مالها يا سيدى ؟ . كانت فى الصباح فى تمام الصحة والعافية . .

كانت !. . وهو يشهد بذلك !. وقد مر بالصــالة كعادته كل صباح قبل انطلاقه الى مدرسة السلحدار ، فتناول فنجان القهوة الذى قدمته له وهو يقول :

ــ لا تغادرى البيت اليوم فالجو بارد جدا . .

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت :

ــ وكيف يطيب لى اليوم دون زيارة سيدك ؟ .

فقال محتجا :

ــ افعلى ما يحلو لك ، انت عنيدة يا أماه ! .

فتمتمت :

ــ ربك الحافظ .

ثم وهو يغادر المكان :

ــ ربنا يسعد أيامك . . .

كان هذا آخر عهده بيقظتها . وقد جاءه نبأ مرضها ظهرا فى المدرسة فعاد مصطحبا الطبيب الذى نعاها اليه سلفا منذ دقائق . اجل لم يبق الا ثلاثة أيام !. ترى كم يوما تبقى له هو ؟. واقترب من عائشة وسالها :

ــ متى وكيف وقع لها ما وقع ؟ .

فاجابت عنها أم حنفى قائلة :

ــ كنا جالستين فى الصالة ، ثم قامت متجهة نحو حجرتها لترتدى معطفها وتخرج وهى تقول لى « عند ما أفرغ من زيارة الحسين سازور خديجة » ، وذهبت الى الحجرة ، وبعد دخولها مباشرة ترامى الى اذنى صوت وقوع شىء فهرعت الى الداخل فوجدتها ملقاة على الأرض بين السرير والدولاب ، فجريت نحوها وأنا أنادى ست عائشة . .

وقالت عائشة :

ــ جئت مسرعة فوجدتها فى هذا المكان ، فحملناها الى السرير ، وجعلت اسالها عما بها ولكنها لم تجبنى ، ولم تتكلم ، متى تتكلم يا أخى ؟.

فاجاب فى ضيق :

ــ عند ما يشاء الله ! .

وتراجع الى الكنبة ثم جلس ، ومضى ينظر فى حزن الى الوجه الشاحب الصامت. أجل لينظر اليه طويلا فعما قريب لن يكون له الى رؤيته سبيل. هذه الحجرة نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالى معالم البيت فى مجموعه ، ولن ينادى به أحد « أمى » . لم يكن يتصور أن موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله . الم يالف الموت بعد؟ . . بلى ، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه الجزع ، ولكن للدعة الفراق الأبدى موجعة ، ولعله مما يلام عليه قلبه انه رغم ما كابد من الم ما زال يتالم كالقلب الغض . وكم احبته ، وكم احبت الجميع ، وكم احبت كل شىء فى الوجود ، ولكن هذه السجايا الطيبة لاتعيها النفس الا عند الفراق . ففى هذه اللحظة الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث يهتز الفؤاد لها من أعماقه، وها هى يخالط نورها الظلام ، وتمتزج فيها زرقة الفجر بحديقة السطح،

ومجمرة مجلس القهوة بالأساطير ، وهديل الحمام بأغنيات حلوة ، وكان حبا رائعا أيها القلب الجاحد . ولعلك تقول غدا بحق ان الموت استأثر بأحب الناس اليك ، ولعل عينيك أن تدمعا حتى يزجرك المشيب . والنظر الى الحياة كماساة لايخلو من رومانتيكية طفلية والأجدر بك أن تنظر اليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت . ثم سائل نفسك الام تضيع حياتك هباء ؟. ان الأم تموت وقد صنعت بناء متكاملا فماذا صنعت انت ؟.

* * *

واستيقظ على صوت أقدام ، واذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتتجه نحو الفراش وهى تنادى أمها وتسألهم عما حل بها . وتضاعف أله حتى خاف أن يخونه تجلده فغادر الحجرة الى الصالة ، وما لبث أن جاء ياسين وزنوبة ورضوان، فصافحوه ، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل، فذهبوا الى الحجرة ولبث وحيدا حتى عاد اليه ياسين وهو يسأله :

ـ ماذا قال لك الطبيب ؟ .

فقال فى وجوم :

ـ شلل والتهاب رئوى ، سينتهى كل شىء فى ظرف ثلاثة أيام. . . .

فعض ياسين على شفته وقال بحزن :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . . .

ثم جلس وهو يتمتم :

ـ مسكينة ، كان كل شيء مفاجئا !. الم تشك تعبا فى الأيام الأخيرة ؟.

ـ كلا ، انها لم تعتد الشكوى كما تعلم ، ولكنها كانت تبدو أحيانا كالمتعبة . . . .

ـ ليتك عرضتها على الطبيب من قبل ؟ .

ـ لم يكن أبغض الى نفسها من سيرة الطبيب !.

وانضم اليهما رضوان بعد حين فقال لكمال : .

ـ ارى أن تنقل الى المستشفى يا عمى . .

فقال كمال وهو يهز رأسه فى حزن :

ـ لا داعى الى ذلك ، وسيرسل الصيدلى ممرضة يعرفها لتحقنها . .

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم . وعند ذاك ذكر كمال امرا تقتضى المجاملة الا يهمله فسأل ياسين :

- كيف حال كريمة ؟ . . .
- ستلد فى بحر هذا الأسبوع ، أو هذا ما تؤكده الحكيمة . .
فتمتم كمال :
- ربنا يأخذ بيدها . . .
فقال ياسين :
- سيخرج الوليد الى الدنيا وأبوه فى المعتقل . . .

ودق الجرس ، فكان القادم رياض قلدس ، وقد استقبله كمال ومضى به الى حجرة مكتبه . وفى الطريق الى الحجرة قال رياض :
- سألت عنك فىالمدرسة فاخبرنى السكرتير بالخبر ، كيف حالها ؟.
- أصيبت بشلل واخبرنىالطبيب بانها ستنتهى فىظرف ثلاثةايام . .
فوجم رياض وتساءل :
- أليس هنالك حيلة ما ؟ .
فهز كمال رأسه يائسا ، وقال .
- لعله من حسن الحظ أنها فى غيبوبة لا تدرى عما ينتظرها شيئا . .
ثم فى لهجة ساخرة وهما يجلسان :
- ولكن هل ندرى نحن عما ينتظرنا شيئا ؟ .
وابتسم رياض دون أن ينبس ، فعاد الآخر يقول :
- كثيرون يرون أن من الحكمة ان نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الموت ، والحق أنه يجب أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الحياة . .
فقال رياض باسما :
- هذا أفضل فيما أرى كذلك ، فلنسأل أنفسنا عند الموت - أى موت - ماذا صنعنا بحياتنا ؟
- اما أنا فلم أصنع بحياتى شيئا ، هذا ماكنت أفكر فيه . .
- بيد انك ما زلت فى منتصف الطريق . .

ربما نعم ، وربما لا ، غير أنه من المستحسن دائما أن يتأمل الانسان ما يراود نفسه من أحلام ، على ذلك فالتصوف هروب ، كما أن الايمان السلبى بالعلم هروب ، واذن فلا بد من عمل ، ولا بد للعمل من ايمان ، والمسألة هى كيف نخلق لانفسنا ايمانا جديرا بالحياة . قال :
- حسبتنى قد أديت للحياة واجبها بالاخلاص لمهنتى كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفية . .

فقال رياض بعطف :
ــ وقد اديت واجبا بلا شك !
ــ ولكننى عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن !
ــ خائن ؟ !
فتنهد كمال وقال :
ــ دعنى اخبرك بما قال لى احمد ابن اختى عند ما زرته فى سجن القسم قبل نقله الى المعتقل ...
ــ على فكرة ، أما من جديد عنهما ؟
ــ لقد رحلا مع كثيرين الى معتقل الطور ..
فتساءل رياض باسما :
ــ الذى يعبد الله والذى لا يعبده ؟
ــ يجب أن تعبد الحكومة اولا كى تعيش مطمئنا ..
ــ على أى حال الاعتقال أخف فى نظرى من المحاكمة !
ــ هذا رأى ، ولكن متى تنكشف هذه الغمة ؟ ، متى ترفع الأحكام العرفية ؟ ، متى يعود السلطان الى القانون الطبيعى والدستور ! ، متى يعامل المصريون كالآدميين ؟ !
فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج فى يسراه ، ثم قال بحزن :
ــ نعم متم ! ، ما علينا ، ماذا قال لك احمد فى سجن القسم ؟
ــ نعم ، قال لى ان الحياة عمل وزواج وواجب انسانى عام ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه ، أما الواجب الانسانى العام فهو الثورة الأبدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى ..
فتفكر رياض قليلا ثم قال :
ــ رأى جميل ، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات ..
ــ نعم ، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه : عبدالمنعم ، ولذلك فهمته على أنه دعوة الى الايمان أيا كان مشربه وأيا كانت غايته ، ولذلك فانى أعلل تعاستى بعذاب الضمير الخليق بكل خائن ، قد يبدو يسيرا أن تعيش فى قمقم انانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك اذا كنت انسانا حقا ...
فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال :

ـ هذا بشير بانقلاب خطير يوشك ان يقع !

فقال كمال فى حذر :

ـ لا تسخر منى ، ان مشكلة الايمان ما زالت قائمة بدون حل ، وغاية ما أستطيع أن اعزى به نفسى هو أن المعركة لم تنته ، ولن تنتهى ولو لم يبق من عمرى الا ثلاثة أيام كأمى . .

ثم وهو يتنهد :

ـ أتعلم ماذا قال أيضا ؟ ، قال : انى أومن بالحياة وبالناس ، وأرى نفسى ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت اعتقد أنها الحق اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب ، كما أرى نفسى ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت انها باطل اذ النكوص عن ذلك خيانة ، وهذا هو معنى الثورة الأبدية !

وجعل رياض ينصت وهو يهز راسه موافقا . ثم بدا على كمال الاعياء والضيق فقال رياض :

ـ انا مضطر الى الذهاب فما رايك فى أن تصحبنى الى محطة الترام لعل المشى يريح أعصابك ؟

ونهضا معا وغادرا الحجرة ، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول ـ وكان على معرفة سطحية برياض ـ فدعاه كمال الى مصاحبته . غير انه استأذن منهما دقائق ريثما يلقى نظرة على امه . ومضى الى حجرتها فوجدها كما تركها فى غيبوبة . وكانت خديجة جالسة فى الفراش عند قدميها وقد احمرت عيناها من البكاء ، وعلت وجهها الكآبة التى لم تفارقه منذ امتدت يد الحكومة الى ابنيها . أما زنوبة وعائشة وأم حنفى فقد جلسن على الكنبة صامتات ، وكانت عائشة تدخن سيجارة فى سرعة وقلق ، على حين راحت عيناها تجولان فى المكان فى اضطراب عصبى . وسألهن :

ـ كيف حالها ؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج :

ـ لا تريد أن تصحو !

وحانت منه التفاتة الى خديجة فتبادلا نظرة طويلة دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك الا ان يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه .

وساروا فى الطريق متمهلين ، فقطعوا الصاغة الى الغورية فى شبه صمت ، وعندما بلغوا عطفة الصناديقية صادفوا الشيخ متولى عبدالصمد

ينحدر منها الى الغورية متوكئا على عصـــاه ، فى خطوات مخلخلة ، وقد كف بصره وارتعشت اطـــرافه ، وكان يتلفت فيما حوله متســـائلا فى صوت مرتفع :

ــ من اين طريق الجنة ؟

فاجابه مار وهو يضحك :

ــ اول عطفة على يمينك . . .

وقال ياسين لرياض قلدس :

ــ اتصدق ان هذا الرجل قد جاوز المائة بما يقرب من عشرة أعوام ؟

فقال رياض باسما :

ــ انه لم يعد رجلا على اى حال . .

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولى بعطف . كان يذكر به أباه ، وكان يعتده معلما من معالم الحى كالسبيل القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز . ووجد كثيرين وهم يعطفون عليه غير ان العجوز لم يســـلم من شـــطارة بعض الغلمان الذين راحوا يصفرون فى وجهه او يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتى محطة الترام ، وانتظرا معه حتى ركب ، ثم عادا معا الى الغورية . وتوقف كمال عن السير فجأة وقال لاخيه :

ــ آن لك ان تذهب الى القهوة . .

فقال ياسين بحدة :

ــ كلا ، سابقى معك . .

وكان كمال من اعرف الناس بمزاج اخيه ، فقال :

ــ لا داعى الى ذلك البتة . . .

فدفعه ياسين امامه وهو يقول :

ــ انها امى كما انها امك !

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين !. حقا انه يسير مكتظا بالحيـــاة فى ضخامة الجمل ولكن الام يحتمل حياته المفعمة بالأهواء ؟ . وطفح فؤاده بالكآبة ، غير ان فكره طار فجأة الى الطور ، الى المعتقل . انى اومن بالحياة وبالناس ، هكذا قال ، وأرى نفسى ملزما باتباع مثلهم العليا ما دمت اعتقد انها الحق اذ النكوص عن ذلك جبن وهروب ، كما ارى نفسى ملزما بالثورة على مثلهم ما اعتقدت انها باطل اذ النكوص عن ذلك خيانة !. وقد تسال ما الحق وما الباطل ، ولكن لعل الشك نوع من

الهروب كالتصوف والايمان السلبى بالعلم ، فهل تستطيع أن تكون مدرسا مثاليا وزوجا مثاليا وثائرا ابديا ؟ ! .

وعند ما مرا بدكان الشرقاوى توقف ياسين وهو يقول :

ــ كلفتنى كريمة بأن استبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر ، عن اذنك ...

ودخلا الدكان الصغيرة ، وراح ياسين ينتقى ما يريد من لوازم المولود المنتظر قماطا وطاقية ومنامة ، وعند ذاك تذكر كمال أن رباط عنقه الأسود الذى استعمله عاما حدادا على والده قد استهلك ، وانه يلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين ، فقال للرجل حين فرغ من ياسين :

ــ رباط عنق أسود من فضلك ..

وتناول كل لفافته ، وغادرا الدكان .

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبا الى جنب نحو البيت .

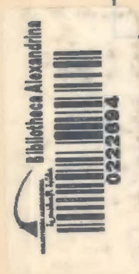
للمؤلف

		الطبعة الأولى	الطبعة الثانية	الطبعة الثالثة
مصر القديمة	(مترجم عن الإنجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	١٩٥٨	
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	١٩٥٨	
رادوبيس	« «	١٩٤٣	١٩٤٦	١٩٥٨
كفاح طيبة	« «	١٩٤٤	١٩٤٧	١٩٥٧
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	١٩٥٣	١٩٥٨
خان الخليلي		١٩٤٦	١٩٥٤	١٩٥٨
زقاق المدق		١٩٤٧	١٩٥٥	١٩٥٧
السراب		١٩٤٨	١٩٥٨	
بداية ونهاية		١٩٤٩	١٩٥٦	١٩٥٨
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	١٩٥٧	
قصر الشوق		١٩٥٧	١٩٥٧	
السكرية		١٩٥٧	١٩٥٨	



تطلب مطبوعاتنـــا فى الخارج من :

مكتبة المثنى ببغداد
المكتب التجارى ومكتبة المعارف ببيروت
دار الكتب الشرقية بتونس
مكتبة الثقافة بمكة



دار مصر للطباعة
٣٧ (٢) شارع كامل صدقى الفجالة

ص
٣٠